

سليمان مظهر

أظلم هذا الشرق



دار الشروق

اسلام في الشرق

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المصطفى عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيدييوس المصطفى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ الياثورا - تلفون: ٠٢٣٣٩٩٠ - فاكس: ٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)

سليمان مظهر

أطليق من الشر

دار الشروق

هذه الأساطير

فى أذهان بعض الناس أن الأساطير ليست سوى « حوادث » تروى حول « المدفأة » فى ليلالى الشتاء الباردة ، لا هدف من ورائها سوى التسلية والمتعة وقطع الوقت . . .

وينحطى هؤلاء إذ يأخذون الأساطير على أنها خرافة فحسب ، ليس فيها من الواقع أو الأهداف شىء سوى ماتضم من خيالات غريبة شاردة لاتصلح لغير الأطفال . .

فما كانت الأساطير شيئاً من ذلك أبداً . وإلا لما استطاعت قط أن تكون هى العمدة الخالدة التى قامت عليها أركان الأدب العالمى ، ولما أصبحت هى الجذور التى تفرعت منها هذه الألوان المتباينة من الآداب والفنون .

فقد رافقت الأسطورة الإنسان منذ نشأته وماتزال ترافقه .

وفى كل أسطورة تتمثل عقائد أصحابها ومثلهم وعاداتهم ، وتتضح نظرتهم وفلسفتهم فى الحياة . وهى تعطى فكرة كاملة عن الروح المتأصل فى هذه البلاد التى اتحدت فى صراعها العنيف من أجل الحرية ، والخير ، والسلام .

وما من أمة ارتفع شأنها أو هان ، إلا ولها أساطيرها ، وهى فى كل ألوانها - سواء كانت إلهية أو بطولية أو غرامية أو خلقية أو فكاهية - إنما تمثل جزءاً ضخماً من التراث القومى الذى يتلقاه الناس جيلاً بعد جيل ، ويمتزج بنفوسهم حتى يصبح جانباً حيويماً فى تكوينهم وحيواتهم .

ولاشك أن كل هذه الأساطير قائمة على أساس من الحقيقة . غير أن الخيال الإنسانى مع مر الأيام ألبس الحقيقة من الأوهام أودية جعلتها بعيدة عن المعقول ، وإن تكن قريبة محبة إلى النفوس .

ومع ذلك ، فأغلب الأساطير يدور حول إنشاء حياة أفضل . وهى محاولات نشأت مع نشوء الإنسان ، يفسر بها أهم المشاكل التى واجهته فى بدء حياته على الأرض ، وعلى رأسها مشكلة خلق الكون ، ويمتاز بوساطتها الهوة بين العالم الذى يعيش فيه والكون

الغامض الذى يحيط به ، ويحاول بها الوصول إلى معرفة سر القوى المسيطرة على العالم كله ، ولماذا يقع الشر ، وكيف ينتصر الخير.

وبالرغم من أن الإنسان يظن نفسه قد تحرر اليوم من هذه المحاولات ، إلا أنه فى خضم غروره ، ينسى أن محاولاته الحالية للوصول إلى الكواكب ، ومغالبة الفضاء ، ليست سوى محاولات أخرى متطورة لمعرفة أسرار الكون . وهى وإن كانت اليوم تبلغ ذروة عالية من ذرى الحضارة ، إلا أنها لا تختلف فى شىء عما كان يملأ ذهن الإنسان القديم ، بالقياس إلى المراحل الحضارية التى كان يعيش فيها ويتربع بين أحضانها .

قصة الخلق :

هذه هى حقيقة الأساطير . التى يقول عنها سير « جوم » إنها علوم عصر ما قبل العلوم . . .

وهذه الحقيقة تتضح تماما عندما يتلمس المرء قصة الأساطير منذ بدأت ، وقصة منشاء الأساطير نفسه منذ خلق . .

فقد عاش الإنسان أول أمره حياة بدائية محاطة بمئات الأخطار والأسرار . وحملته مدهشات الكون وأعاجيبه التى لم يستطع إدراكها إدراكا علميا ، على أن يتوهم لها تفسيراً ، ويتخيل أصولاً ووقائع يرتاح إليها وتزيل حيرة نفسه . .

وكان أول ماملاً رأسه من تلك الخوارق التى تحيط به ، إيمانه بوجود قوى مسيطرة خالقة عاقلة ذات قدرة أسمى من قدرة كل العناصر والكائنات .

وبدأ الإنسان يتأمل تلك القوى ، ويجسم كل شىء خارق منها يحسه ولا يستطيع الوصول إليه فيجعله إلها ، يعمل على استرضائه بتقديم الضحايا والقربان . . فالنار والرياح والشمس والقمر والنجوم والمياه والبرق والرعد ، كلها آلهة طفق الإنسان ينسج حولها القصص ، ويتناقلها خلفاً عن سلف ، جيلاً بعد جيل .

ولكن الإنسان أخذ يعجب بعد ذلك لكل تلك القوى . . كيف جاءت هى الأخرى ؟! لا بد أن هناك شيئاً خالقاً ، شيئاً أقوى من كل شىء ، استطاع أن يصنع وحده كل تلك الأشياء . .

ومن هنا كانت أقدم الأساطير التى وضعها الإنسان هى أساطير الخلق ، نسجها حافلة بما تصوره لهذا الخالق ، وكيف أقام السماء والأرض ، وكيف جاءت الكائنات على اختلاف صورها وأشكالها لتعمر الكون .

المجتمع الإلهي :

تصور الإنسان الخالق الأول ، مصدرا رئيسيا للقوة والخلق ، يهيمن على كل شيء ،
ويسيطر على أركان الكون الشاسع . تصور هذا الخالق ومن حوله الآلهة الآخرون ،
ينظمون الحياة على الأرض ، ويصرون أعمال الناس ، فيثييون المحسن ، وينكلون
بالمسيء .

وتباينت صور هذا الخالق في أذهان البشر ، حتى آمن البعض بفكرة الرب الواحد
الذى يتمثل دائما في رب الأرباب أو كبير الآلهة ، وجعلوا الآلهة الأخرى أتباعا له
يكلفهم مساعدته ، ويكل لكل منهم مهمة معينة ، ويمنحهم قوى خاصة يمارسونها
تارة بإرشاده ، وطورا من تلقاء أنفسهم ، دون أن يكون في ذلك مساس به أو تجريدا لما له
من ربوبية مطلقة ، وسلطان شامل على كل شيء . . .

وكان لابد للإنسان بعد ذلك أن يتخيل ذلك المجتمع الإلهي الذى يختلط فيه آلهة
مختلفو النزعات والأهداف والمهام ، فيهم الذكر وفيهم الأنثى . وكان لابد أيضا أن
تختلط تلك الصور في ذهنه بالعالم الأرضى الذى يعيش فيه هو نفسه . فسج في أساطيره
كل ماتخيله لذلك المجتمع الإلهي ، من صور الصراع والنزاع والحسد والطمع والجشع
والخير والشر ، مما يراه كل يوم ويشهده في العالم البشرى .

قصة الطوفان :

عندما تصور الإنسان مجتمع الآلهة وتخيله ، بدأ يربط بينه وبين مجتمعه ، حيث كان
لابد من اتصال الآلهة والبشر ، واشتباك أعمال هؤلاء بأعمال أولئك ، فنشأت صور
جديدة ترسم ذلك الاتصال ، ثم الاشتباك ، ثم الصراع الذى كان لابد أن يكون . . .

وهنا تصور الإنسان قصة الطوفان . . قصة أول صراع بين الآلهة والبشر ، حين يمعن
أهل الأرض في الفساد والسخرية بالآلهة ، فيغضب الآلهة عليهم ، وينزلون بهم نقمتهم
بغمر صاخب تتفجر له عيون السماء ، فيهبط طوفان هائل يقضى على البشر
المفسدين ، إلا واحدا يصطفيه الآلهة فينجو في فلك يصنعه ، وعلى يديه تعود الحياة من
جديد . وبدت صورة الطوفان واضحة في مختلف الأساطير ، وتماثلت صورة الإنسان
الذى اصطفته السماء ، فهو شمس نيشتين عند البابليين ، وتحتوج عند السومريين ،
وكريزوتروس عند الأشوريين ، ودوكاليون عند الإغريق . . .

الأبطال والخوارق :

عاد الإنسان يطل إلى الأشياء الغامضة التي تحيط به . . . فَوَهَمَ أن لكل شيء حوله نفس الصفات التي له ، وافترض أن للجناد روحا وللنبات روحا وللآلهة روحا . وأنها تتصرف تماما كالإنسان : تحب وتكره ، وترضى وتغضب ، وتفعل كل ما يفعله هو نفسه . . !

واستمر الإنسان في صراعه مع الطبيعة ، ومع الحيوان . . صراع عنيف ينتصر فيه الإنسان مرة والطبيعة والحيوان مرات ، فما كان لدى الإنسان سوى وسائل بدائية بسيطة ساذجة ، للنزول بها في معترك هذا الصراع الرهيب .

ولم تعد وسائل الحرب العادية البسيطة تكفى ذلك الإنسان ، وهو يصارع قوى أشد منه وأقدر . فبدأ يتصور بخياله كائنات تستطيع بقواها الخارقة منازلة أعدائه ، ومن خلال خيالاته بدأ يستعين بأصحاب الخوارق فيما لم يستطع أن يفعله بنفسه ، فصور أنصاف آلهة يستمدون قواهم من السماء ، وصور أبطالاً خارقين تتمثل فيهم مظاهر القوة عند الحيوان ، ومظاهر الجبروت عند الآلهة . ومن هنا ظهر جلعيميش وأنجيدو عند البابليين ، ورستم عند الفرس ، وهرقل عند الإغريق ، وأمثالهم كثيرون في عالم الأساطير.

مجتمع الجن :

لم يكتف الإنسان خلال بحثه عن مصادر القوة التي تساعد على الأعداء بمثل هؤلاء الأبطال . فبدأ يتخيل من جديد كائنات أخرى تستطيع القيام بما يعجز عن الإتيان به والوصول إليه . .

وهنا ظهر الجن في أساطير الإنسان . . جن خيرون يستطيع بوساطتهم الوصول إلى ما يجيد نفسه عاجزا عن بلوغه بغير شيء خارق ، وجن شريرون يساعدونه في الانتقام من الأعداء عند تصور أقصى أنواع الشر في مجال الشر . وجعل الإنسان للجن من القوى والسمات الفائقة ما يقدمهم عليه هو نفسه ، مادام هو أدنى قوة وأقل من الجن سلطانا . . !

تصور الإنسان أن مجتمع الجن مثل مجتمع الإنس من حيث التركيب . . ففيه حكام وأمراء ، وفيه أجراء وصعاليك ، وفيه خيرون وشريرون . ولكن أهم صفات هذا المجتمع أنه يساكن الإنسان ويعاشره . . يساكنه في جسمه وفي ثوبه وفي طعامه وفي تفكيره وفي علاقته الجنسية وفي أخص خواطره . . !

هكذا تخيل الإنسان الجن الذين لا يراهم رأى العين ويتوهمهم دائما في الوقت نفسه . وأنشأ حولهم مجموعة غزيرة من الأساطير، وأدخلهم دائما خلال صراعه بين الخير والشر، وبين البشر والآلهة ، ونظم أسلوبا للتعامل بينه وبينهم ، وجعل عالمهم تصاعديا مطبوعا بالسلطة شأن المجتمع البشرى الإقطاعى ، وأضاف إلى أشخاصهم صفات الشذوذ في الهيئة والمسكن والسلوك والصوت . . حتى يستطيع بذلك أن ينم عن صفاتهم الخارقة للمصطلح العام ، ويدل على التميز البالغ حد التفوق .

السحر والسحرة :

غير أن أشياء أخرى في تفكير الإنسان دفعته إلى البحث عن وسائل جديدة لبلوغ أهدافه . . وسائل يستطيع أن يلمسها ويتبينها بنفسه في الوقت الذى لا يستطيع فيه أن يلمس ويتبين أشخاص الجن . . وهنا . . اتجه الإنسان نحو السحر . . وفى كتاب الأدب الشعبى يقول مؤلفه الأستاذ رشدى صالح :

« ونحن إذا نظرنا إلى السحر الآن بتقديرنا الحديث رفضناه، واعتبرناه أسلوبا من التصرف الساذج ، ولكنه كان في التاريخ القديم قائما على استخدام القوة الخفية للكلمة ، لأن اختراع اللغة - أى استبدال الصوت بالإشارة أو الرسم - كان انقلابا مذهلا بالنسبة للإنسان البدائي ، فاعتقد أن في الصوت قدرة خارقة تستطيع إذا نظمت في بضع جمل - أى تعويذة - وتليت مرارا ، أن تفرض سلطانها على أى ظاهرة أو كائن أو إله . ومن هنا اعتقد المصريون القدماء مثلا أن الكلمة هي الأداة الإلهية في خلق العالم ، حتى أن آتون رع يقول في أسطوريته : « خلقت كل الأشياء مما يخرج من فمى عندما لم تكن ثمة سماء ولا أرض ! » .

هذه القوة الخفية للكلمة هي قوة الإلزام أو الربط . . وتتضح تلك القوة مما جاء في تعويذة إيزيس وهي تطرد الألم من جسد رع فتقول : « اخرج أيها السم . اخرج من جسد رع . . اخرج من جسد رع المحترق . لأننى أقول التعويذة . . إننى أنا التى أمر ، إننى أنا التى أبعث بالرسالة . . اخرج على الأرض أيها السم القوي . . ولتعلم أن الإله الكبير قد أسر في أذننى باسمه الكبير . . ! » .

وهكذا أصبح السحر في عقيدة القدماء بمثابة الروح من شعائر تلك العبادة . وتصور الإنسان محاولات جديدة لاسترضاء الآلهة والقوى الخفية التى ظل يحل طبيعتها وغاياتها ، فعمل على اجتلابها في صفه لمعونته ، ولم يجد سوى السحر سبيلا إلى ذلك ، باعتباره القوة الجديدة التى يستطيع بها أن يقهر القوى المناهضة له أو الخارقة لكل مستطاع . وهكذا شاع الاعتقاد بأن الرقية أو التعويذة أو القسم يجبر القوى الخفية على

أن تطيع الإنسان . . حتى أننا نقرأ في ألف ليلة وليلة كيف أن من ينطق بكلمة « افتح ياسمسم » يلزم هذه القوى على أن تشق الصخرة وتفتحها . . ! ولم يكن ذلك وحده ما تستطيعه التعويذة السحرية ، بل إنها لتمكن الإنسان من تسخير القوى الخفية أيضا في ربط أعدائه ، حتى إن البابليين كانوا حين يدعون على أعدائهم يقولون : « ليقع عليكم جبل الله » . فكأنما الله إذا أراد أن يقتل إنسانا أو يشل حركته لزمه أن يستخدم جبلا . وتقول أسطورة طمهورث الفارسية إنه ربط أهرمان ليمنعه من إنزال الشر بالناس . وتصور أسطورة برميثيوس الإغريقية أن العقاب الإلهي كان بربطه إلى صخرة . . وهكذا استطاع الإنسان وقف غرمائه وأعدائه - أى وقف الشر - بالرقية أو التعويذة السحرية . وجعل السحر بذلك أساسا جديدا لصراعه مع العالم المجهول .

تشابه الأساطير:

كان كل ذلك إذن أصلا لأساطير الإنسان في مختلف حضاراته وبيئاته . . تلك الأساطير التي جاءت في أغلبها متشابهة متفقة تثير الحيرة والتساؤل عن علة تشابه أساطير المصريين مثلا مع أساطير الهنود والفرس والصين والإغريق والأوربيين أيضا . هذا التساؤل يجيب عنه بعض الدارسين بأن الجنس البشري كله قد نشأ أول ما نشأ في مكان واحد ثم تفرق وارتحلت معه معتقداته وأساطيره . ويذهب آخرون إلى أن حياة الإنسان لم تظهر في مكان واحد بل في أمكنة متفرقة ، ولكن قام بين مختلف هذه الأوطان علاقات ثقافية هاجرت معها الأساطير وسواها من عناصر التراث القديم من أمة إلى أمة . وثُمَّ رأى ثالث يقول إن سبب التشابه هو تشابه ظروف تطور التاريخ الإنساني عامة وانتقاله من حالات قامت في كل موطن ، إلى حالات أخرى قامت في هذا الموطن نفسه .

ومهما يكن الأمر ، فالثابت برغم تشابه العناصر الأولى لكل هذه الأساطير ، أن ثَمَّ اختلافا وتباينا واضحا في تفاصيلها . فكل أمة شكلت أساطيرها حسب ظروفها الطبيعية ذاتها . . فالمجتمعات التي استقرت في أرض زراعية تشكل أساطيرها في أهم ما يشغلها وهو الماء والنماء وخصوبة الأرض ، والمجتمعات التي عاشت على الصيد تشكل أساطيرها فيما يشغلها من الحيوان وأدوات الصيد وشياطين الغاب . والمجتمعات التي يحيط بها البحر تشكل أساطيرها على العواصف والأمواج والخور والجنيات !

وكما تباينت تفاصيل أساطير الأمم ، تباينت أيضا أشكال أساطير الأمة الواحدة . فمع كل تلك المراحل من ظروف الحياة تنوعت الأساطير ، فكانت هناك الأساطير الإلهية التي ترتبط بها وراء الطبيعة ارتباطا تفسره العلاقات المتبادلة بين الآلهة والبشر والتي

ينتصر الآلهة فيها دائما، والأساطير التى تتناول الخوارق التى تدور حول أنصاف الآلهة والأبطال خارقى القوة المتمتعين بقدرة جسدية أو معنوية فائقة ، والأساطير التى تدور حول وسائل البشر فى التخلص من مآزق البيشة التى تحيط بهم ، والأساطير التى تهدف إلى وضع أسس خلقية يتباين فيها الصراع الدائم بين الخير والشر . !

أصول العادات الحديثة :

ومع كل ذلك ، يجب ألا ننسى أن هذه الأساطير التى عاشت حتى بدأت الديانات السماوية فأخذت تتلاشى كنظام حل محله النظام الدينى . . . هذه الأساطير لا يزال لها بقايا فى معتقد كل أمة ، حتى الأمم التى تعيش فى ظل الصناعة والعلوم ، بقايا لا تزال مسيطرة على العادات والتقاليد والثقافة الإنسانية بوجه عام . !

من ذلك أن الفراعنة فسروا الفيضان فى أساطيرهم بأنه فيض الدموع التى تسفحها إيزيس وهى تبكى أخاها أوزيريس الذى قتله ست . وعندما جاءت المسيحية مصر وأزالت عبادة إيزيس ، استمرت أسطورتها تعيش فى معتقد الفلاحين فى شكل أسطورة مسيحية جديدة تقول إن الفيضان ينبع من دموع القديس ميخائيل الذى كان كلما حل ميعاد الفيضان يدخل على العرش الإلهى يرحو الله أن يرحم عباده المصريين فيأمر بزيادة النيل ، ويظل يتضرع ويبكى حتى يستجاب دعاؤه ويفيض النيل من فيض دموعه !

الأساطير للجميع :

وبعد . . فهذه هى قصة الأساطير التى دفعنى إلى تقديمها لقراء العربية إيمانى بأنها لون رائع من ألوان الأدب الممتزج بالتاريخ . لا بد لكل صغير وكبير من الإلمام بها لفهم معتقدات البشر وعاداتهم وطبائعهم ، وإدراك المثل والروح المتأصل لكل شعوب هذا العالم الكبير . وقد أخذت على عاتقى فى هذا الكتاب تقديم بعض أساطير الشرق ، بعد إخراجها من الطابع المتزمت وتبسيطها وتقديمها فى صورة حية ، سهلة التناول ، تطرب لها نفوس القارئ .

سليمان مظهر

أسطورة فرعونية رع أبو الآلهة

كان «رع إله الشمس» أشهر الآلهة الذين حاول الكهنة في مصر القديمة أن يقرّبوا بها إلى أذهان العامة فكرة الخالق العظيم الواحد الذى هو الأصل فى حياة كل شيء . وقد جعلوا لرع من اللرية ثمانية أبناء . أربعة ذكور وأربع إناث . كل ذكر منهم متزوج بأنثى . قشور وتغنوت رمز الهواء والنار، وجب ونوت رمز الأرض والسماء . وأوزيريس وإيزيس رمز النيل والتربة، وست ونفتيس رمز الصحراء والضواري .

وتقول العقيدة القديمة «إن السماء كانت لاتزال متصلة بالأرض حين تمرد البشر على الآلهة الذين كانوا يعيشون بينهم، وازداد بالبشر الفساد حتى ثار غضب رع وقرر أن ينزل بهم نقمته . وبعد طوفان من الدم، عفا الإله عن حافظ على عهده من الناس . غير أنه منذ ذلك اليوم امتنع عن مخالطتهم وفصل السماء عن الأرض ليجعل منها مقاما وسكنا، وليشرف من فوقها على كل أبناء البشرية . . .» .

هناك . . . فى قلب هليوبوليس . . . كان يقبع قصر فخيم لم تعرف مصر قصرا مثله على الإطلاق، أمام أبوابه تنتصب مسلات شاحخة، وعُمد ضخمة . . . وعلى جوانب ممراته تصطف تماثيل أسود وكباش، ترقب كل زائر غريب، وتنحى كل مارد رجيم . أما القصر نفسه، فيموج بجموع هائلة من الخدم، كلهم عيون مفتوحة، وآذان مرهفة، فى حراسة الإله الأكبر «رع» رب القصر العظيم .

وهنا . . . فى هذا القصر . . . كانت تجرى قصة الحياة . . .

يفتح رع إله الشمس عينيه، فيبزع الفجر على الوجود . وينهض من فراشه ليدلف إلى الحمام يستحم بالماء البارد . وتقبل عليه «أنوبيس» إلهة الندى فتصب عليه أباريقها الأربعة الطاهرة . وينطلق «حورس» فيدلك جسده . وينحني «توت» فيجفف ساقيه . وما يكاد الجميع ينتهون، حتى يرتدى الإله الأكبر ملابسه المتألثة ذات البريق . وينطلق ومن أمامه الرسل تتسابق لإخلاء الطريق، ومن حوله جنود الموكب ينحنون حتى تلامس جباههم غبار الأرض . ويصل الإله إلى زورقه العلوى الراسى على ضفة النهر، فيستقله منزلقا به على الأمواه بلا مجداف ولا شراع ولا سكان^(١) ويطلع النهار فيهتف الناس والآلهة على الضفتين :

(١) السكان : ذنب السفينة (أو ما يعبر عنه بالدفة) .

«تباركت يارب . . يا خالق السموات والأرض! يامرسى الجبال وساقى البحار!
يامرسول الفرح والحرارة والضموء إلى أرض السلام . . !» .

ومن الشرق، تبدأ دورة كل يوم، لتنتهى بعد ذلك فى الغرب حيث يختفى موكب رع
فى طبقات الأفق، فتظلم الأرض، وتضىء ظلمات العالم السفلى . . إقليم الجحيم
الرابض فى الأعماق . وهناك، يستمر مسير الإله على صفحة نهر كبير، يخترق واديا يتفرع
إلى اثنى عشر فرعا، تفصل كل واحد منها عن الآخر جدران هائلة ذات أبواب
ضخام . . .

وتجرى رحلة الليل كما تجرى كل يوم . وتمر الساعات هادئة طويلا والإله لايزال يسير،
حتى يلج الباب الذى يصل إلى حدائق «أيالو»، حيث يرقد رقدة قصيرة فى قصره
الكبير، ما أسرع ماينهض بعدها لينبغ الفجر، وتبدأ إشراقة يوم جديد!

* * *

وكان الناس . . كل الناس فى هذا العالم الكبير . يسجدون لرب النور كل
صباح . . الرب السخى على كل خلقه فى هذه الأرض . فهو لاينى طوال تسياره يصرف
كل أنواع الأعمال . يقابل الخلق ويهديهم . ويقضى فى شكاوى المظلومين . ويفرق
بالمعذنين فيزيل عنهم الأوجاع . ويعلم الناس تعاويد السواقية من خطر الثعابين
والحيات . ويمنحهم الطلاسم التى تطرد كل شريس من الأرواح . ولم يبخل رع على
الناس أبدا بما يحمل من تعاويد وطلاسم ، حتى لم يبق له منها سوى سر اسمه الإلهى ،
الذى أطلقه عليه والداه يوم ولد ، ولم يبوحا به لأحد سواه . هذا الاسم كان هو وحده
سر القوة التى يحكم بها رع عالمه الكبير . وكان يعرف أن من يصل إلى معرفة سر اسمه
القدسى ، بشرا كان أو إله ، فإنه يستطيع السيطرة على كل شىء فى الأرض وفى
السماء . . !

والحق أن أحدا من الآلهة والبشر لم يكن ليطمع فى ذلك السلطان والجبروت سوى
إيزيس . فقد طالما أبصرت مظاهر القوة التى يتمتع بها أبو الآلهة ، وتلك القدرة التى
يطوى سلطانها كل شىء . وما أكثر ما تمننت إيزيس فى أعماق نفسها . أن تعرف سر
ذلك الاسم القدسى الغامض الذى يخفيه إله الشمس . حتى تملك بفعله السحرى كل
الأرض وكل السماء ، وتصبح به من بعد كبيرة الآلهة . . !

منذ ذلك الوقت امتلأ رأس إيزيس بفكرة الوصول إلى سر اسم الإله الخالد .

فراحت تتابع رع في غدوه ورواحه ، ترقب وتسعى ، حتى إذا ما أحست أن الإله قد بدأ ينوء تحت عبء السنين ، وتقوست قامته بدبيب الشيخوخة ، ولم يعد يستطيع أن يضم فكيه ، أو يقفل فمه ، أو يمنع اللعاب القدسي من أن يسيل على الأرض . . هنا فقط أحست أنها تستطيع أن تتغلب عليه ، لو هي استعملت مكر النساء . . !

والحق ، أن إيزيس كانت أشد مكرًا من ملايين من الرجال ، وأقدر حيلة من ملايين من الأرواح . ومن خلال ذلك المكر وتلك الحيلة ، عثرت إيزيس على الوسيلة التي تستخلص بها سر الاسم الإلهي الذي يخفيه رع . . . من بين شفثيه هو نفسه . . .

لقد كانت تعلم أن التعاويذ والرقى لاتنجح في شفاء أمراض الآلهة والبشر سواء ، إلا إذا اختلطت في التلاوة باسم المصاب نفسه . . اسمه الحقيقي . . الاسم المسلط على الشيطان الموجع الذي يسبب الأوجاع . فهي إذا استطاعت أن تصيب الإله الأكبر بمرض خبيث ، أو أذى مستعص ، فلن يستطيع أحد ، بشرا كان أو إلهًا ، أن يشفيه . أما هي ، فلن يكون أمامها سوى أن تتقدم إليه ، وتقنعه بأن برآه في مقدورها هي وحدها ، على أن تخلط في التلاوة اسمه الحقيقي بالتعاويذ . وهنا فقط . . سيجد الإله نفسه بين أمرين : إما أن يتحمل الألم الفظيع الموجع ، وإما أن يكشف لها سر اسمه القدسي . . وهو كل ماتبعيه !

شئ واحد كان يقف عقبة في سبيل التنفيذ . . هو كيف تستطيع أن تسبب له الأذى ، وما من أحد يملك قط أن يؤذيه ، بغير أن يستعمل سر الاسم في تبويذة الشيطان . . ؟ !

ولكن المكر النسوي لم يعجز عن بلوغ سبيل آخر . . فقد كانت تعرف أن اللعاب المقدس المتساقط من فم رع يستطيع أن يمنح قوة السحر القدسية لأي شئ يختلط به . .

وهذا هو ما يجب أن تهتم به . . !

وانطلقت إيزيس تتبع رع أينما ذهب وسار ، حتى إذا ماشهدت بعض اللعاب يسيل من بين فكيه على تراب الأرض ، أسرع فأخذت حفنة من التراب مزجتها باللعاب المقدس ، وعجتها بيديها البارعتين في شكل حية . . تشبه تمام الشبه تلك الحية التي تتوج رؤوس الآلهة والفراعين . وفي غبار الطريق الذي يمر به رع خلال رحلة كل يوم ، دفنت إيزيس حيتها بعد أن نفخت فيها الحياة بتعاويذ سحرية تحيي الجماد !

وجاء الصباح . . وانطلق رب الشمس يستأنف رحلة النور الخالدة . وبينما هو في طريقه إذ مر حيث ترقد الحية المسحورة . وفي لحظة ، كانت قد أنشبت في عقبه أنيابها ، وأفرغت من السم نارا صاح لها الإله صيحة ارتجت لها جنبات الكون ، واضطربت العربة في يده واختلت ، فأسرع عائدا يجرى ويصرخ ، حتى استقر في «أيالو» فتمدد على الأرض ، والدموع تنهمر من عينيه مما يعانى من ألم مرير . . .

ودوت من السماء أصوات الآلهة وهى تنطلق مسرعة إلى حيث رقد رع . ولكن الإله الأكبر كان يرتعش ، ويتفض ، ولايستطيع كلاما قط ، بينما السم الزعاف يتسرب إلى كل عضو فيه ، ويسرى في عروقه كالنيل عندما يدفع أمواهه إلى الأراضى العطشى أثناء الفيضان .

ومرت الساعات طويلة رهيبة قبل أن يتبه الإله إلى ماحوله . وعندما فتح عينيه دعا إليه من أحاط به من الآلهة ، وشرع يشرح لهم ماجرى في صوت أليم خفيض :

- انصتوا يا من خلقتكم قدرتى . لقد وخزنى شىء آذانى وأوجعنى وجعا لا حد له . ذلك الشىء لم أصنعه ولم أخلقه ولم تصغه يدى كما صاغت المخلوقات كلها . فما سره؟ ومن الذى استطاع أن يؤذنى؟ إن أحدا لايعلم سر اسمى الذى منحه لى أبواى وظل مودعا خبيثا فى صدرى ، ولا أحد يستطيع أن يؤثر فى جسدى بسحر أو تعاويذ إلا إذا عرف سر الاسم . فكيف أصبت بهذا الأذى؟ كيف . . كيف ؟!

ولم يعرف الآلهة كيف يجيبون . وطال بهم السكوت حتى عاد رع يهتف بهم فى صوت مخنوق :

- ليمثل أمامى كل أبناء الآلهة الخبيرين بالتعاويذ الشافية والطلاسم الواقية ، ليقرءوا التعاويذ القادرة على طرد الأذى الذى لحق بجسدى وأوجعنى أشد الوجع وآلمنى أبغض الإيلام . . !

وأقبل عليه الآلهة ييكون ويولولون . وبكل ما استطاعوا من قدرة راحوا يجربون تعاويذهم لتسكين آلام الإله . غير أن القدرة التى منحوها لم تكن تستطيع أن تخفف لدغة الثعبان الذى عجن جسده واختلط بالمادة المقدسة من لعاب الإله . . !

وصرخ رع يطلب إيزيس ربة السحر ، التى تحمل ترياق الحياة ، وتطرد كلماتها الآلام ، وتوقف همساتها الموتى . . . !

ووقفت إيزيس تسأل رع :

- ما هذا الذى أصابك يا أبا الآلهة ؟ أى مخلوق وخزك ؟ وأى فرد من أبنائك انتقض عليك ؟

أجاب رع :

- لست أدري يا ابنتى بأى قدرة استطاع من وخزنى أن يسبب لى الوجع والإيلام . . . فجرى تعاويذك وانشرى سحرك واخنقى الألم الذى يكاد يقضى على . .

قالت إيزيس :

- لاعليك يا أبا الآلهة ، سأجرب تعاويذى وأدحر خصمك الملعون . . سأجبره على الخضوع والاستسلام أمام قدرة تعاويذى وكلماتى . . !

وانفض موكب الآلهة . وتركوا إيزيس ربة السحر تحاول دحر أوجاع الإله . . .

* * *

خاطبت إيزيس رع فى صوت خفيض رقيق :

- إن سحرى سيطرده السم الزعاف . ويطرد عنك كل ما أصابك من أوجاع . فهيا يا أبا الآلهة ، بح لى بسر اسمك الإلهى ، اسمك القدسى الغامض ، يمنح تعاويذى القوة ، فتزد عنك عدوك ، وتزيل عنك الغمة .

وانتنفض رع . فما خطر بباله قط أن سيأتى يوم يضطر فيه إلى البوح بسر اسمه القدسى . ودخله الريب فى إيزيس ، واستشف من خلال كلماتها مكيدة تدبر له . وراح الإله يماطل ابنته ، ويسرد متلطفا لها كل الألقاب التى يعرف بها فى السموات والأرض :

- أنت تعرفين أن اسمى « خبرى » فى الصباح ، و« رع » فى الظهر ، و« تومو » فى المساء . وتعرفين أن لى أسماء أخرى كثيرة ، وأشكالا أخرى عديدة . فأنا خالق السماء وخالق الأرض . أنا شمس الصيف وهج الظهيرة . أنا النور والظلام ، ومرسى الجبال ومجرى البحار . أنا من يتولد الضياء من فتح عينى ، ومن غمضهما يتولد الليل . أنا كل هؤلاء يا إيزيس ، فانطقى بتعاويذك وأبعدى عن جسدى ما لا أطيق .

وابتسمت إيزيس وفى رأسها منه سخریات كبار . وراحت ربة السحر تتلو التعاويذ واحدة تلو أخرى ، وفى كل مرة تتخذ واحدا من أسماء الإله ، فما صنعت كلها شيئا بآلامه ، وما أحس هو لها من براء على الإطلاق .

واستمرت إيزيس تطيل في التلاوة، والوقت يجري ويمر، والآلام تسرى وتزداد مع تسلل السم المختلط باللعب القدسي في كل عضو من أعضاء رع . . .

وعادت إيزيس تتحدث من جديد :

- أبدا لن يستطيع اسم واحد من كل تلك الأسماء أن يشفيك . إن اسمك السرى الغامض هو وحده الذى يملك القدرة على منح تعاويذى ما يشفيك . فهيا يا أبا الآلهة ، بع لى بسرك أشفك على الفور . فأنت أنت من تعلم أن السحر لا يملك شيئا إذا لم يختلط بالاسم الحقيقى لأى مصاب . ولو كان اسمك القدسى أنت . . !

وضغط الإله على فكيه ، والسم يسرى ويتشرب فى جسده . . النار اللافتحة تحرقه ، والبرد المثلج يفره ، وهو بين النار والجليد ينهار ولا يستطيع أن يفعل شيئا قط . . .

وفجأة صرخ الإله . . فقد انتصرت عليه الأوجاع ، وحلت من لسانه القدسى عقده . . ومن خلال الصرخة الهائلة لفظ رع بتلك العبارة المؤدية إلى كشف السر :

- لينتقل اسمى الحقيقى من جسدى إلى جسدك يا إيزيس . . افتحى مغاليق صدرى أيتها الابنة ينتقل سرى القدسى من أحشائى إلى أحشائك !!

وفتحت إيزيس صدر الإله . . وانتزعت من حناياه الاسم السحرى . وقرنت ربة السحر تعويذتها باسم الإله ، فاندحر الأذى ، وتوقف السم ، وانتهى الألم الملعون . . !

وهنا فقط . . نجحت إيزيس . ومنذ ذلك اليوم صارت تقبض على سر السلطان والقدرة . . السر الذى يجعلها كبيرة الآلهة ، وربة الرباب ، وصاحبة السيطرة والنفوذ على أبى الآلهة نفسه . . رع العظيم . . !!

مع زوال القوة ، ودبيب الشيخوخة ، نزل الهوان برع . وبدا الإله غير الإله ، ووضح العجز بدل المجد ، والانهيار بدل الصعود . . .

وأطل البشر من حولهم ، فإذا إلههم هرم عاجز ، شقى ساخط ، لا يستطيع أن يفعل شيئا على الإطلاق . . .

وهنا . . بدأ الانقلاب . . .

وبعد أن كان البشر يسجدون ويصلون للإله العظيم . . راحوا يسخرون ويضجون ويتغامزون . . ويهاجم بعضهم بعضا من أجل الهزؤ بأبى الآلهة . . ويقولون :

- انظروا . . لقد شاخ رع . . شاخ الذى عظامه من فضة ، ولحمه من ذهب ،
وشعره من لازورد . . !

واضطرب رع ، واستشعر المهانة والخزى ، وملاه غضب صاحبه على كل مخلوقاته
فوق ظهر الأرض .

وهتف رب الشمس فى الآلهة الذين يحيطون بموكبه كل يوم :

- ائتوني بابتسى سخمت . . . وادعوا إلى آباء الآلهة والأمهات والأبناء . نادوا « نو »
جدنا الأعظم الذى يسكن وسط السماء . ليأت الجميع إلى قصرى سرا ، بغير ضجة
تنبه الناس ، أو ترشداهم إلى الاجتماع الإلهى . . !

ومن كل أركان الكون ، حضر الآلهة . وانطلقت الجموع القدسية إلى القصر الكبير
يعقدون مؤتمرهم العائلى . وكما كانوا يفعلون من قبل ، ضرب الآلهة حلقتهم حول عرش
رع ، وعفروا جباههم بالتراب أمامه . وعندما انتهت مراسم اللقاء ، تحدث رع ، وسكت
الجميع :

- أيها الآلهة ، أجدادى وأبنائى . . ها أنتم أولاء ترون البشر ، مخلوقاتى التى أخرجتها
من فمى عندما لم تكن سماء ولا أرض ، يتهايمسون على ويأتمرون بى . لقد أصبحوا
يتعمدون احتقارى ويسخرون بهيتى ونفوذى . فما الذى أنتم بهم فاعلون ؟

وتكلم « نو » الجد الأعظم لكل الآلهة . . ذلك الذى يسكن وسط السماء :

- وما الذى تراه أيها الإله . . ؟ !

وأجاب رع :

- أيها الجد العظيم . . يامن منحتنى سر الوجود . . إنها أنت الذى يشير على بما
أفعل مع العبيد المارقين . .

ومن جديد تكلم نو :

- يا ولدى رع . يا إلهما أكبر من الإله الذى صنعك . . احكم بالعدل ، وأقم الدعوى
على المذنبين حتى يبين المارق فيعاقب ، ويظهر المذنب فيدان .

ولم يقتنع رع :

- إذا نحن انتظرنا حتى نقيم العدل ، استشعر المارقون بالخوف ، وعرفوا المصير الذى

سيأخذ بالمذنبين . . . في ذلك الوقت سيعمدون إلى الصحارى والقفار يخبثون فيها ،
ولا يعود لنا إليهم من سبيل . . !

وتشاور الآلهة ، ثم أحنوا جباههم وهم يقولون مجتمعين :

- ليعاقب البشر دون محاكمة . . ولتكن عينك الإلهية . . ابتكك العزيزة «سخمت» . .
هى الجلاذ!

وهكذا كان . . .

وانقضت « سخمت » لبؤة ممفيس ، وأشد الربات وطأة وشراسة وحبا للدماء . .
انقضت تلاحق البشر فى كل مكان ، تشخن فيهم طعنا بالخناجر والأنياب ، وتضرب
هنا وهناك . . تذبج وتقتل ، وتعب الدم عبا ، انتقاما لأبيها المقدس ممن كانوا به
يسخرون .

ومن كل أركان الأرض الملتائة ، علت صرخات البشر ذليلة خائعة تطلب الغفران .
ومن عليائه أطل رع ، فلماذا مصر كلها أنهار من دماء ، وصفوف طويلة من أجساد
الأشقياء . وأغمض الإله الرحيم عينيه ، فما تصور قط أن « سخمت » تفعل كل هذه
الأفاعيل بأفراد شعبه الذين خلقتهم يداه .

وانغثا غضب رع ، وأخذته بهم شفقة غامرة رحيمة ، وصاح فى ابنته :

- كفى يا ابنتى . . إنما أردنا معاقبتهم لا إبادتهم !

ولكن لبؤة ممفيس التى أسكرتها خمر الدم ، أبت أن تدعن لأبيها ، وصاحت فيه :

- بحق حياتك يارع إن قلبى لمغبط بالفتك والتقتيل . . فدعنى أنزل بالبشر كل
ما يستحقون من عقاب .

ولكن الفتك والتقتيل كانا شيئا بشعا مخيفا . ولم يك بد من أن يسرع رع بإنهاء رحلة
النهار ، فهبط الليل ، وسادت الظلمة ، وتوقفت شاربة الدماء عن الطواف المجتاح على
أمل أن تستأنفه فى الصباح .

وأطل رع حزينا إلى شعبه المسكين . . أبدا ما كان يريد لأبنائه من البشر تلك المجزرة
الهائلة التى أنزلتها بهم الربة المتعطشة للدماء . ولا بد مع الصبح الجديد من وضع حد
لعذاب أهل الأرض .

وهتف رع فيمن حوله من أرباب السماء أن يأتوه سراعاً برسلى حاذقين أسرع جرياً من الهواء . وعندما أتوا أمرهم بالذهاب إلى جزيرة « فيلة » وإحضار كمية هائلة من ثمار الرمان ، وثمار أخرى تجلب النوم .

وماهى إلا لحظات ، حتى كانت الثمار قد وصلت . وكان الإله قد استدعى طحان هليوبوليس وأمره بعصر الثمار ومزجها بمسحوق حب الشعير الذى أعدته الخادومات ليصنعن منه الجعة . وعندما امتزجت كل تلك الأشياء ، نتج عنها مزيج مسكر بلون كلون الدم البشرى ، يملأ ستة آلاف مكىال ، وأمر رع بنقل المكاييل إلى كل أنحاء الأرض . وصب الرسل السائل الأحمر فى كل مكان . فامتلاأت به الكهوف والحقول والأنهار.

وجاء الصباح . ونهضت « سخمت » تستأنف دورة التقتيل وعب الدماء . وأطلت الربة أمامها فإذا طوفان شامل من الدم يغريها ويدعوها لرى الظماً . وراحت ربة التقتيل تعب من السائل المسكر المخدر وهى تظنه دماً بشرياً صرفاً حتى ارتوت . وظلت تشرب وتشرب حتى هدأت ثورتها ولان قلبها ، وانطلقت سكرى شخيرة لاتفكر فى متابعة التذبيح والتقتيل . . واستلقت فى راحة لتضع حداً للمجزرة المجنونة الهائلة .

* * *

وعادت الحياة من جديد على ظهر الأرض . . .

واستمرت الأيام تمضى ، وفى أعقابها السنون ، والشيخوخة تنخر بدبيبها الثقيل فى جسد رع ، حتى يأتى زمن جديد يعود البشر فيه إلى التهامس عليه ، والسخرية به . . . ويعود إلى الإله حزنه . غير أنه فى هذه المرة لايفكر قط فى تعذيب البشر ، بل تملؤه الرغبة فى التنحى عن الملك ، والخلود إلى الراحة والهدوء .

ويعلنها رع داوية فى مجمع الآلهة :

- لم أعد أطيق البشر بعد . . ولن يكون أمامى إذا استمر بقائى بينهم إلا أن أبيدهم عن آخرهم . . !

وهتفت الآلهة فى دهشة :

- لاتتحدث عن المتاعب يا إله . . وإبق حيث أنت . . فالبشر مازالوا فى حاجة إليك .

وأجاب رع .

— لقد وهنت أعضائي ، ودب في جسدي الانحلال . . ولن أبقى حتى تهون شيخوختي أكثر مما هانت . لهذا فسأرحل إلى حيث لا يصل إلى بشر قط . . !

ونادى رع ولديه شو . . إله الجو ، ونوت . . إله السماء . .

— يا ولدي شو . . أنا تارك لك مقاليد الملك ، فأكمل مشيئتي وتول أنت الأمر . وأنت يا ابنتي نوت . . احمل أباك على ظهرك ودعيه معلقا فوق الأرض .

وحاولت نوت أن تعترض . غير أنها أذعنت للأمر فتحولت إلى بقرة ، وحملت أباها رع فوق ظهرها الكبير .

وطلع الصباح التالي على الناس ، فإذا رع العظيم قد غادر قصره . وأطل الناس أمامهم ، وإلى ما فوق رؤوسهم فإذا بقرة إلهية هائلة قائمة ومن فوق ظهرها الإله الغاضب من جديد على أهل الأرض !

وسجد الناس ، وراحوا يتوسلون إلى الإله العظيم أن يبقى بينهم . وإذ وجدوا من العبث إقناعه . . قرروا أن يظهروا له برهانا على توبتهم . . فأقسموا له أن لن يكون الغد حتى يقتلوا أمام عينيه كل الذين تهامسوا عليه وأثمروا به . . !

ورضى رع . . ونزل من فوق ظهر ابنته . . وعاد إلى قصره الكبير .

وطلع الصباح التالي على الناس ، وقد خرجوا حاملين أقواسهم وسهامهم يرمون بها خصوم الإله . ولم تستمر المذبحة طويلا . . فقد ارتفع صوت رع يخاطب الناس من جديد :

— مغفورة لكم خطاياكم يا أبنائي . . فأنتم إذ ضحيتهم بالمذنبين فإنما كفرتم عن ذنوب سواهم من الناس . . !

واكتفى الناس بمن ضحوا بهم من مذنبين . . غير أنهم اتفقوا على التضحية بعد ذلك بكل من يمين الإله . . حتى يتقوا غضبه ، ويكفروا عن إهانتته ، ويتقربوا إليه . . !

ومع كل ذلك كان رع رحيما بأبنائه من البشر . . فلم يحتمل قلبه أن يضحي بعض البشر ببعضهم تكفيرا عن ذنوب المذنبين . . فقرر أن يهديهم إلى أن يستبدلوا بالمذنبين

الثيران والطير في القربان . . على أن يتلو الكاهن الذى يتولى تقديم القربان تعاويد خاصة تحمل الحيوانات محل المذنبين .

وهكذا أبرم الإله رع تحالفه مع من بقى حيا من البشر . ثم اعتلى ظهر البقرة الإلهية ابنته العزيزة نوت . . فارتفعت به وتقوست حتى أصبحت كالقبة .

غير أن نوت لم تستطع أن تصمد طويلا . وكادت تنهار تحت ثقل رع ، فخارت قواها ، ووهنت قوائمها ، ولم تجد بدا من طلب يد العون . عندئذ قال رع :

- يا ولدى شو . . ضع نفسك تحت ابنتى نوت ، وأزرها على حملى . اجعلها تستند على ذراعيك القويتين من الجانبين . واحفظها فوق رأسك العظيم .

وأطاع شو . . وسلمت نوت من السقوط . وامتد بطنها كقبة زرقاء صارت هى نفسها فيما بعد السماء التى تغطى الكون . وراح رع يشر على صفحتها النجوم لتنير الليل . وانصرف من بعد إلى تنظيم العالم الجديد الذى اكتشفه من فوق ظهر البقرة المترامية الأطراف . . .

واستمرت الحياة تسير . !

أسطورة فرعونية حكاية الأخوين

لايكاد نوع واحد من أنواع الأساطير يخلو من قصة المرأة التي تكون سببا في صراع جبار بين أخوين . وهذه الأسطورة المصرية القديمة تعد مثلا رائعا لذلك اللون من ألوان تلك القصة . . يتزاح من بين سطورها الستار عن وسائل المرأة في غرس بذور العداء بين الإخوة ، كما يسفر عن ألوان أخرى من الغدر والخيانة والدهاء ، تتفنن فيها المرأة سواء كانت من القمة أم كانت من الحضيض ، . .

« أنوبو » و « بايتى » شقيقان ، يملكان دارا صغيرة على ضفاف النيل العظيم ، يقيمان فيها معا . وكان أنوبو الأكبر متزوجا ، فكان يتولى شؤون الإدارة والتنظيم ، في حين كان بايتى الأصغر عاملا ، يغزل الخيوط ويرعى البقر ويحراث الأرض .

وكان بايتى الصغير يعود من الحقل كل مساء ، يسوق بقراته في هدوء ، وعلى ظهره حمل من حشائش الأرض يقدمه لها خلال الليل . وكان متى دخل الدار ، يحمي أخاه وامراته ، ثم ينطلق إلى « الحظيرة » يأكل ويشرب وينام . وما تكاد الشمس تستيقظ ، حتى ينهض من نومه ليعجن الدقيق ، وينضج الخبز ، ويقدم المائدة حافلة لأخيه وامراته . وبعد أن ينتهى بايتى من تناول فئات الخبز ، يمنحه أخوه حصته ويصرفه إلى شؤون الحقل . . ويمضى الفتى فيسوق بقراته أمامه ، وينطلق إلى الحقل حيث ترعى البقرات وتسمن ، لتعود فتضع عجولا صغيرة كثيرة يستغلها « أنوبو » ويخفى ثمنها ، ثم لايعطى أخاه منها شيئا قط . . !

وذات يوم ، عندما بدأ موسم إعداد الأرض للزراع ، ذهب الأخوان معا إلى الحقل حيث يشقى الصغير ، ويقف الكبير ليشرف على العمل ، ويداه في وسطه ، يأمر وينهى ، ولا يفعل شيئا أبدا .

وعندما أتم بايتى حراث الأرض قال له أنوبو :

- لقد حان وقت الزرع . . فاذهب إلى الدار وأحضر منه كيس البذور .

وذهب بايتى الصغير إلى الدار . ودخل على امرأة أخيه وهى منهمكة فى تصفيف غدائر شعرها الطويل . وطلب الفتى من المرأة أن تعطيه كيس البلور ليعود مسرعا إلى الحقل . وأشارت المرأة إلى قاعة المخزن ، وقالت له بلا اكتراث أن يتخير الكيس الذى يريد . ودخل بايتى فانتقى كيسا كبيرا ملاء قمحا وشعيرا ، ثم رفعه على ظهره ، وسار فى طريقه إلى باب الدار ، ليسرع بالكيس إلى حيث ينتظر أخوه .

ورفعت المرأة عينها إلى الفتى . . كان رائعا قويا كواحد من الآلهة ، تطل من كل جزء من جسده فتوة الشباب وعنفوانه .

وأحست المرأة كأن فى أعصابها النار ، وفى جسدها سموم الأفاعى . وقالت له ومن عينها تنطلق دعوات كالصراخ :

- ما أثقل هذا الحمل فوق ظهرك . ومع ذلك فأنت تبدو كمن يحمل قشة . . !
واضطرب الفتى لإطراء زوجة أخيه . ولكنه سار فى طريقه كمن لم يسمع . وعادت المرأة تقول له :

- ما أجمل أن يكون للمرأة زوج نضر قوى ، مفتول العضلات ، مملوء بالعنفوان ! وما أتعس امرأة تعيش مع زوج من قش ، كما أعيش مع زوجى !
وازدادت المرأة اقترابا من الفتى الصغير ، ووضعت كفها الساخنة على ذراعه المفتول وهى تهمس :

- إنك أقوى من أخيك يا بايتى ، وأبهى منه عنفوانا وروعة . لكم تمنيت أن أكون زوجتك أنت !

وانتفض الفتى كأن قد لدغته أفعى ، ودفع عنه امرأة أخيه فى غضب وثورة ، وراح يلقي فى أذنيها أقذر النعوت وأقبح الأوصاف لتعريضها بأخيه ، وكأنه ما أحس غرضا آخر من وراء محاولات المرأة المشحونة بالإثم والعار . . .

وفتح الفتى الباب ، وانطلق إلى الحقل ، وهو يجهد أن يخفى غضبه ، حتى لا يكتشف أخوه سره .

وانهمك الفتى فى العمل ، وكأن شيئا لم يحدث قط . . وما حاول أبدا أن يفتح فمه ليقص على أخيه من أمر زوجته شيئا . . .

أما هى . . فقد أرعبها أن يعرف زوجها الأمر . وامتلاأت رغبة فى الثأر من الفتى الذى طعن أنوثتها وأذل كبرياءها . . ولو أدى الأمر إلى القضاء عليه .

وأخذت المرأة تلتطخ جسمها بالطين ، وتخمش ذراعيها وكفيها ، لتوهم زوجها حين يعود بأنها آثار معركة عامرة بالمقاومة ، عندما حاول أخوه اغتصابها ، ورفضت أن تستسلم له . . . ! !

وهبط الليل ، وسبق الأخ الأكبر أخاه إلى الدار ، في حين كان بايتى يسوق البقرات في الطريق إلى الحظيرة . وعجب أنوبو عندما وجد امرأته لا تستقبله بباب الدار تحمل المصباح . وزاد عجبه عندما وجد أنها لم تعد الماء لتسكبه على يديه وقدميه . وانطلق إلى حجرتها ، وقد أحس شيئاً غير عادى ، ففوجئ بها راقدة تبكى وتتوجع ، وكل جسدها تلتطخه آثار طين وتراب . . . والحدوش تغطى منه كل الذراعين والكفين . . !

وقالت له المرأة ، من خلال الشهقات والدموع :

- إنه أخوك يا أنوبو . . لقد حاول أن يفعلها معى عندما حضر ليأخذ البذور . كنت أجلس أصفف شعري فاقترب منى ، وألقى كيس البذور على الأرض ، وشرع يتفاخر بقوته ويسخر من ضعفك . . وعندما نهبته هاجمنى وألقانى على الأرض ، وحاول أن يسرق منى ما تملكه أنت وحدك . وقاومته بكل عنف وإصرار وأنا أقول له إن أخاك كأبيك فلا تسرق عرضه . ولكن الإثم كان لا يريد أن يغيب عن نظرات عينيه ، فأقسم أن ينالنى بالقوة . . وإذا امتنعت عليه أخذ يضربنى ويشتمنى حتى سقطت من إعياء . ثم ظل يقسم أن يقتلنى إذا بحث لك بها حدث . . ومع هذا فأنا أشكو إليك ولا أخفى عنك أمراً . . وإن كنت أعلم أننى بذلك أضع حداً لحياتى التى سيسلبها منى عندما يعرف أننى أخبرتك . . . هذا إذا لم تسبق أنت وتضع حداً لحياته هو !

وأخذ الإثم والعار برأس أنوبو . . ولم يطق تخيل تلك الصورة التى اطلع عليها من خلال كلمات امرأته . فأخرج خنجره فشحذه ، وانطلق به إلى الحظيرة متربصاً خلف الباب فى انتظار وصول أخيه .

ومضت لحظات . . ثم ظهر بايتى وهو يسوق أمامه بقراته فى الطريق إلى الحظيرة . ولم تكد أولى البقرات تدلف من الباب حتى سمعها تقول له :

- حذار ، حذار . . إن أخاك متربص لك وراء الباب وفى يده خنجر مشحوذ . . فانج بنفسك !

ودخلت البقرة الثانية . . فسمعها هى الأخرى تعيد ما قالت الأولى . وكلما دخلت بقرة جديدة سمع نفس التحذير والإنذار .

وأخذ العجب بالفتى الصغير . وانحنى بناظره يحاول استطلاع ما خلف الباب . .
فإذا قدما أخيه تتحركان في بطن . . استعدادا للهجوم . .

وفي لحظة . . أدار بايتى رأسه ، وانطلق يعدو بكل ما في جسده من قوة ، ومن خلفه
انطلق أخوه رافعا خنجره الطويل المسنون . . !

واستعان بايتى بالإله رع حورس ، وأخذ يهتف في رعب :

- أيها الإله الشمس . . يامن تنتصر للمظلوم من الظالم ، أقم الحواجز والسدود بيني
وبين أخى . . . !

واستجاب الإله لدعوات الفتى . فإذا نهر هائل يجري بينه وبين أخيه . . تمتلئ مياهه
بأفواه التماسيح . وإذا رأى الفتى ذلك توقف عن الجرى والتفت إلى أخيه الواقف يغلى
على الضفة الثانية :

- يا أخى أنوبو . . ابق مكانك حتى تطلع الشمس . . فتحكم بعدها بيني
وبينك ، ويأخذ كل واحد منا حقه . ولكنى أنبئك منذ الآن أننى سأذهب إلى وادى
الطلح . . ولن أقيم بعد ذلك في مكان تكون أنت مقبلا فيه . . !

وعندما طلع النهار ، وأشرق رع حورس ، وقف الأخوان يحتكما إليه . وقال بايتى
يخاطب أخاه :

- لماذا حكمت على بالموت قبل أن تستمع إلى دفاعى ؟ أنا لست خائنا ولا يمكن أن
أكون . لقد بعثتنى لأجلب البذور ، فراحات امرأتك تقول إننى أقوى منك وأكثر
عنفوانا . وزينت لى الإثم وهى تقول إنها كانت تتمنى أن أكون أنا زوجها . فعنفتها
ونهيته ثم انصرفت . وفى الوقت الذى رفضت فيه أن أخبرك بالأمر حفاظا عليها ،
كانت هى تختلق قصص الإثم لتقتصص منى . واستمعت أنت إلى الأفعى فخنت أخوتى
وغدرت بى ، وأردت أن تقضى على !

وسكت الفتى لحظات وهو يمسح دموعه . . ثم عاد يقول :

- وبرغم كل ما أردت أن تصنع بى يا أخى سأصفح عنك . . فعد إلى بيتك
وزوجتك ، واعتن وحدك ببقراتك . أما أنا فسأذهب إلى وادى الطلح ، ولن أقيم بعد
حيث تكون . . !

وبكى أنوبو وهو يعتذر لأخيه :

- أنا مؤمن بخطئى ، وسأعرف كيف أنتقم من المرأة الخائنة . . ولكن أنت يا أختى لا تشتط فى غضبك ، وابقِ معى نعش كأحسن مايكون الأخوة ، وانزع عن رأسك هذه الأفكار التى ملأته . . فلن تستطيع الحياة وحدك بوادى الطلح ، حيث الوحوش والشياطين .

وهز الفتى الصغير كتفيه وهو يجيب :

- لقد انتهى ماكان يربطنا منذ سللت خنجرك لتطعننى . ومع هذا ، فإن كنت لاتزال تحب أخاك ، فسيمهد لك رع حورس سبيل التوبة عندما أقع أنا فى مصيبة ، ولا يكون هناك من أحد ينقذنى سواك .

وهتف أنوبو :

- كيف أستطيع إنقاذك يابايتى ، وأنت فى وادى الطلح ، وأنا أقيم هنا ، ولا أدرى من أمرك شيئا .

قال له بايتى :

- سأضعب قلبى على إحدى زهرات الطلح بقوة السحر . فإذا حدث وقطع أعدائى ساق الشجرة فسيقع قلبى على الأرض . وعندئذ ستفور الجعة فى كأسك وتتعكر ، وستحس مرارة كالنار فى حلقك . فإذا أردت فى تلك اللحظة أن تنقذنى ، فألق بالكأس على الأرض ، وأسرع إلى وادى الطلح باحثا عن قلبى الذى سيكون قد غاص واختفى . . فإذا وجدته فضعه فى إناء ماء بارد . وعندئذ تترد إلى جسدى الحياة ، وأنفض لأنتقم بنفسى من كل من أراد لى الموت . . !

وانطلق بايتى إلى وادى الطلح وعاد أنوبو إلى بيته ، فهاجم امرأته ومزقها بنفس الخنجر الذى أرادت أن يقتل به أخاه ، وجعل الجثة الخائنة فألقى بها إلى الكلاب . . !

عاش بايتى فى وادى الطلح هادئا سعيدا ، يقضى أوقاته فى مطاردة حيوانات الصحراء ، ويعود مع الليل إلى بيت أنيق صغير أقامه فى جانب الوادى .

وبينما هو جالس ذات يوم ، مر به الآلهة التسعة الذين يدبرون شؤون مصر . وقال له الآلهة :

- ألا تؤلمك العزلة يابنى ؟ أليس من الخير لك أن تعود إلى بيتك بعد أن ثار لك أخوك من امرأته ؟

وسجد بايتى للتاسوع المقدس . والتمس من الآلهة أن يتركوه فى وادى الطلح حيث يعيش . . .

ورأى رع حورس أن يخفف عن الفتى وحشة العزلة . فأمر الإله الخلاق « خنوم » أن يخلق له امرأة تشاركه الحياة . وخلق له « خنوم » زوجة أجمل من كل نساء الأرض ، تشبه إيزيس . . .

وهبطت الزوجة لتقع بين أحضان الفتى الصغير . وملاؤه فرحة غامرة وسعادة لاتوصف . ولم يدر أن ربات الجمال السبع ماكدن يشاهدنها وهى تقع بين ذراعيه حتى تنبأن فى صوت واحد بأنها ستموت بالسيف . !

وأحب بايتى امرأته حبا لم يحبه رجلٌ لامرأة قط . وبلغ به الحب حدا جعله يغار عليها من النيل نفسه ، فمنعها من مغادرة الدار أو الاقتراب من النيل حتى لا يخطفها النهر . ومن أجل أن يؤكد لها مدى حبه وإخلاصه ، كشف لها عن سر قلبه المعلق على زهرة شجرة الطلح ، وحذرهما من قطعها حتى لا يفقد حياته ويموت . . .

وخرج بايتى للصيد ذات يوم . وكان الضجر قد استبد بامرأته لطول ما أقامت وحدها فى البيت ، فانتهزت الفرصة ، وغادرت الدار منطلقة إلى حيث شجرة الطلح التى حذرهما من الذهاب إليها ودفعها الفضول إلى رؤية القلب المعلق على الزهرة . وإذا أشبعت فضولها ، جلست على جانب النهر ، وكشفت عن ساقىها الجميلتين ، ودلتها فى الماء وهى تحركهما فى صخب ولذة وانطلاق .

واضطرب النيل وأثاره مرأى الساقين الجميلتين ، وأحس جوى إليها فدفع أمواجه تضمهما وتحاول اختطافها . ولكنها سارعت برفع ساقىها العاريتين ، وانطلقت تجرى فى خوف إلى داخل الدار .

وأسف النيل لهرب المرأة التى رغب فيها . وراح يتوسل إلى شجرة الطلح أن تدعه يخطفها ، ولكن الشجرة رفضت توسله ، وظلت على رفضها وهو على توسله ، حتى أشفقت به آخر الأمر ، فمنحته خصلة من شعر المرأة ، شم فيها عبيرها ويطفىئ بها ظمأه المجنون . . . !

وحمل النيل خصلة الشعر وراح يجرى . ولم يتبه خلال جريانه إلى معقل فرعون الذى كان يمتد من جانب الشط ، فاذا بخصلة الشعر تسقط فى حوضه ، وإذا بالطيب الساحر يتسرب منها إلى ثياب فرعون فيثير أعصابه ، ويقسم ليقتلن رئيس الغسالين إذا لم يأت به بسر الطيب . . . !

وطفق رئيس الغساليين يبحث وينقب، حتى عثر آخر الأمر على خصلة الشعر في الحوض، فحملها إلى فرعون الذى شمها، فأحس نشوة صاخبة مجنونة، وأمر بالسحرة أن يأتوا إليه للتو.

واجتمع كل سحرة المملكة عند الملك. وأخذوا يفحصون خصلة الشعر ولا يفهمون لها سرا. ولكن واحدا منهم هتف آخر الأمر:

ـ أيها الملك، هذه الخصلة انتزعت من شعر إحدى بنات الإله رع حورس.

وأقسم الملك لبيحثن عن ابنة الإله ذات العبير الساحر وأرسل رسله يجوبون كل أنحاء الأرض. وعاد بعضهم ليرفعوا تقارير فشلهم إلى الملك. أما الآخرون الذين ذهبوا إلى وادى الطلح، فلم يعد منهم سوى واحد فقط، استطاع الهرب من بايتى الذى قتل كل رسل الملك عندما حاولوا التسلل لمعرفة مكان امرأته.

وانطلق الرسول الهارب إلى الملك يخبره بمكان ابنة الإله رع حورس.

وأمر الملك فرقة من الفرسان والرماة بالذهاب إلى وادى الطلح. وأرسل مع الفرقة امرأة أوصاها بمرافقة ابنة الإله متى تم اختطافها، ومساعدتها على التأنق والتزين. وكنمت الفرقة بين الغاب حتى خرج بايتى للصيد. فهاجموا البيت الصغير واختطفوا المرأة التى خلقها «خنوم»، وانطلقوا بها إلى فرعون.

* * *

عاشت المرأة فى القصر سعيدة كملكة. واستقر بها الرأى أن تبقى هناك أبد الدهر، ولا تعود إلى وادى الطلح حيث الرجل الذى لم تخلق لسواه. وعندما بدا لها أن سيأتى اليوم الذى لابد أن يعثر عليها فيه زوجها، انطلقت إلى فرعون تكشف له سر القلب المعلق على زهرة شجرة الطلح، وكيف يفقد الرجل حياته متى قطعت الشجرة وسقط القلب..!

وانطلق رسل الملك من جديد إلى وادى الطلح. وعندما عادوا كانت الشجرة قد قطعت، وكان القلب قد اختفى تحت الأرض.

ومضى نهار كامل.. وجاء مساء..

وجلس «أنوبو» الشقيق الأكبر فى بيته يملأ كأسه، فاذا بها تتعكر وتزيد. ومن خلال زيد الجعة شهد أنوبو وجه شقيقه.. فأدرك أنه فى حاجة إليه.

ولبس أنوبو حذاءه، وحمل سلاحه، وأخذ طريقه إلى وادى الطلح . وعندما دخل بيت أخيه وجد الجثة لاتزال ساخنة فوق الفراش . وراح يبحث هنا وهناك عن القلب الضائع، ولكنه لم يستطع أن يعثر عليه .

واستمر أنوبو يبحث ويجدّ في البحث . . وراحت الأيام تنقضى وتعقبها الشهور، وهو لايزال يبحث عن قلب أخيه حتى مضت ثلاث سنوات . وأدرك في النهاية أن الأمل قد ضاع، وقرر أن يعود إلى المدينة .

وفي اليوم الذى يسبق الرحيل، نزل أنوبو يبحث عن قلب أخيه آخر مرة . فظفر ببذرة في شكل قلب، لم يكد يضعها في كأس به ماء بارد، حتى انتفخت، وظلت تنشعب بالماء وتنتفخ حتى صارت في حجم القلب . ولم يكد القلب يبلغ حجمه الطبيعي حتى تحرك الجسد الذى كان لايزال محنطاً فوق الفراش، وفتح بايتى عينيه، وعادت الحياة إليه !

* * *

انطلق الأخوان عائدين إلى منفيس . وخلال الطريق راح بايتى يقص على أخيه كيف سينتقم من المرأة التى خانتها، والملك الذى قتله . . واتفقا معا على الطريقة التى يمكن أن يدخلها القصر .

وفي الصباح، تحول بايتى إلى صورة ثور . . يحمل كل علامات التقديس . من سواد الشعر، وبياض الجبهة، وانتصاب نسر مبسوط الجناحين على الظهر وصورة جعران على اللسان، مع غزارة في شعرات خُصلة الذيل . . !

وطلب بايتى من أخيه أن يقوده في تلك الصورة إلى القصر حيث تعيش امرأته . . وقال له :

- سر بى إلى بلاط فرعون . فهناك سيحسنون وفادتك ، ويقدمون لك خير الطعام، ويثقلونك بالذهب والفضة . . وسينظر الناس إلى نظركم إلى تحفة خارقة، ويقدموننى، ويعجلون لى فى الأرض أعيادا . عندئذ عد أنت إلى بيتك، واتركنى داخل القصر حيث أنزل نقتى بكل من فيه . . .

وانطلق أنوبو يقود الثور فى الطريق إلى القصر . وأطلت الملكة فإذا ثور مقدس فيه كل علامات التقديس يقوده فلاح . فأمرت باستدعاء صاحبه .

ودخل أنوبو يقود الثور حتى القاعة التى يجلس فيها الملك والملكة ، فلم يكذ الملك يرى الثور حتى انحنى له ، ثم أمر بأكياس من الذهب والفضة تهدى للفلاح ، وأخذ الجنود الثور إلى حظيرة أنيقة ، لا يغلق بابها أبدا ، وكلف أمهر العبيد بالسهر عليه ، وتدليله ، ورعايته كل صباح ومساء .

وراحت الأيام تمضى ، وبدأ الثور ينزل وحده من الحظيرة إلى الحديقة ، ولا أحد يمنعه ، فما كان أحد فى مصر يجرؤ على اعتراض طريق ثور مقدس ، أو حرمانه من التمتع بحريته .

و ذات يوم ، دخل الثور حرم القصر . ووقف أمام نساء فرعون وأحلاهن . . . ولم تكن سوى الملكة . . . زوجته . . . !

وانتبهت امرأة فرعون إلى الثور ، ومدت كفها تربت شعره . ولم تكذ تفعل حتى سمعت من بين شفتى الثور صوتا يدعوها . . فانحنى لتنصت . . وقال الثور : انظرى . . هأنذا حى . . !

وهتفت الملكة فى فزع ورعب :

- أنت . . !؟ من تكون أنت . . ؟!

وقال الثور :

- أنا بايتى زوجك الذى خلقتك من أجلى الإله . . لقد طلبت من الملك قطع الشجرة لأموت . . ولكنى مع ذلك ما زلت حيا فى جسد ثور . . !

وغادر الثور حرم القصر . وترك زوجة فرعون أشد ماتكون فزعا ورعبا . . . ومضى ذلك اليوم . . وتبعه آخر . . .

وبينما كان فرعون يجلس إلى زوجته حول مائدة عامرة بأطيب الطعام والشراب ، جعلت هى تملأ له الكأس تلو الكأس . . حتى ثمل وانهار . . وأسلس لها القياد . . هنا قالت المرأة لفرعون :

- عدنى بحياة رع حورس ، أن تمنحنى كل ما أطلب منك . . !

وضحك الملك فى نشوة لاتعى وهو يقول :

- وحياة رع حورس . . لأمنحك ماتطلين . . !

- إذن امنحنى كبذ ذلك الثور الحبيب . . !

وفي نشوة الخمر . . وانتظار اللذة . . أمر الملك بذبح الثور . .
وانطلق الجزارون وفي أيديهم السكاكين ، وعندما غادروا الحظيرة كان كل شيء قد
انتهى . وكان جسد الثور محمولا على أعناقهم وقد فارق الحياة !
ومر الجزارون وجسد الثور معهم أمام باب فرعون . وبينما هم يمرون ، قطرت الجثة
دما أمام الباب ، لم ينتبه إليه أحد . ومر اليوم وجاء صباح ، فإذا شجرة لبخ قد ارتفعت
حيث قطر الدم . . وهى تحمل ثمارا حلوة لذيدة مقدسة . . !
وأحيط الملك علما بالمعجزة . فأقام حفلا رائعا للشجرة . . اشترك فيه كل أهل
مصر . .

ومضت أيام . . .

وهبط الملك إلى الحديقة ذات يوم وإلى جواره زوجته . وتحت شجرة اللبخ المقدسة ،
جلس الملكان يتساقيان كؤوس الحب . وإذهما في نشوتهما انتبهت الملكة إلى صوت
يقول لها :

- أيتها المرأة الخائنة . . أتفعلين ذلك وأنت تستظلين بظلى أنا زوجك بايتى . . ؟!

وصرخت المرأة وهى تمحلق فى الشجرة التى عادت تقول :

- هأنذا ماأزال حيا برغم كل أوامرك وخياناتك . لقد طلبت قطع شجرة الطلح
ليموت قلبى ، وأمرت بذبح الثور لأفقد الحياة . . ولكنى مع ذلك لا أزال حيا أتبعك فى
تلك الشجرة التى تطل عليك كل صباح ومساء . . !

ومضت أيام آخر . . .

وبينما الملكة تقضى مع الملك وقتا لا يكاد خلاله يستطيع أن يرفض لها طلبا . .
قالت له :

- عدنى بحق رع حورس . . أن تمنحنى كل ما أريد . . !

- وحياة رع حورس . . لأمنحك كل ماتريدين .

- أصدر أمرك بقطع شجرة اللبخ . . وليصنع لى من خشبها خزانة جميلة رائعة . . !

وفى اليوم التالى أمر الملك بقطع شجرة اللبخ ، ووقفت الملكة تشفى حين كان
النجارون يشقون الساق ليصنعوا لها خزانتها .

وفجأة . . وبينما هى تأمر وتنهى . . طارت إلى فمها قطعة صغيرة من الخشب
ابتلعتها بالرغم منها . . ولم تهتم لها أبدا . . .

ومضت أيام وشهور . . وجاء الملكة المخاض . . .

وولدت امرأة فرعون ولدا ذكرا . . . لم يكن سوى بايتى . . هو نفسه . . !

وفرّح الملك بالطفل الصغير . . وأعلنه وليا للعهد ووارثا للملك من بعده على كل
أرض مصر . . !

وراحت السنوات تمضى والأمير يكبر والمملك يقترب من الشيخوخة . وعندما بلغ
الفتى عتفوانه ، كان فرعون فى طريقه إلى السماء . . .

وملاّت الأفراح كل مصر وهى تحتفل بالمملك الجديد . وبينما الكهنة يضعون على
رأس فرعون تاجه . . طلبوا منه أن يتزوج أمه . . زوجة الفرعون الراحل !

وجلس فرعون الجديد على العرش . . ودعا إليه كل الكهنة ، وكل القادة ، وكل من
فى مصر من أعيان . . .

وبينما الجميع ينتظرون أن يعلن الملك زواجه بالمملكة . . انطلق صوته عميقا يحكى
كل ما كان . . . منذ خرج هاربا من دار أخيه . . حتى أجلسته الآلهة على عرش مصر .
وبين هذا وذاك عرف الجميع من تكون المرأة التى تقف أمامهم لتكون زوجة الملك
الجديد . . !

وارتفع صوت الملك يسأل كهنته وقواده عن الحكم الذى ينزلونه بالمرأة الخائنة . . وفى
صوت واحد قال الجميع :

- الموت . . !

ونفذ الحكم . . وبالسيف قطع رأس الملكة . . تماما كما تنبأت لها ربّات الجبال
السبع . .

أما بايتى . . فقد استمر يجلس على عرش مصر عشرين سنة . . طار بعدها إلى
السماء . . تاركا عرشه لأنوبو . . الأخ الذى كاد يقتله ذات يوم بسبب امرأة . . . !

أسطورة فرعونية رحلة إلى الآخرة

يرج المصريون في السحر حتى صار علما يتقنه العلماء ويتفننون فيه . وأصبح هؤلاء السحرة النفوذ الأكبر والمقام الأسمى أمام الفراعنة ، يدعونهم لتأويل أحلامهم والانتصار بهم على أعدائهم بخارق مايقدمون من معجزات .

وقد نبغ أبناء بعض الملوك في السحر حتى أقيمت لهم التماثيل . . ومن بينهم ساتنى الذى يجيء ذكره في هذه الأسطورة . والذى يكشف خلال رحلته سر يوم القيامة والحساب عند قدماء المصريين .

كان يكره نفسه . . . فبرغم العلم الخارق الذى وهبه له الإله بتاح ، والحكمة والمهارة والبراعة في السحر ، لم يكن « ساتنى » ابن الفرعون « أوزيريس » ليعرف السعادة قط . وكان عقمه هو سر تعاسته ، فما استطاعت زوجته الأميرة « ماهى » إنجاب ولد يخفف عنها شقاء الوحدة ، وما عرفت رموزه السحرية ، ولا البطقوس والتعاويد ، كيف تمنحه القدرة على إنجاب ولد . . بعد أن حرمت عليه الآلهة .

ومع هذا فما كفت « ماهى » قط عن الصلاة للإله « بتاح » رب منفيس ، والابتهاال إليه أن يجود عليها بولد . ولم يحتمل قلب الإله بتاح كل تلك الآلام التى تعتمل في قلب المرأة التى تقدم له كل يوم عشرات القرابين . وأخذته بها شفقة رقيقة حانية ، فأرسل إليها رسله تهتف في أذنها ، إذ تملكها النعاس وهى تصلى في المعبد :

- أبشرى يا ابنة فرعون . فالآلهة التى لاتنسى عبيدها المخلصين ، قد استجابوا لصلواتك !

وفى نفس اللحظة ، سمع « ساتنى » فى نومه هاتفا يهتف به :

- يا ابن فرعون ستضع امرأتك طفلا سمه « سنوزيريس » ولتهنأ مصر بالخوارق التى يأتيتها لكل الناس .

وكان الإله بتاح عند وعده . فما مضت أيام حتى كانت « ماهى » قد وضعت طفلا سمه أبوه « سنوزيريس » لم يكدر يرى النور حتى هتف باسم بتاح . . ثم سجد يصلى . . . !!

وكانت هذه أولى معجزات سنوزيريس الذى أدرك أبوه لأول وهلة أنه أمام قوة خارقة لم يكن لسحره أن يواجهها بشيء قط . بل إن سحره ماكان ليستطيع أن يجعل من الوليد محدثا يناقش الكهان كما فعل وليده وهو مازال فى المهد ، وكاتبنا يبرز المكلفين بتعليمه كما حدث مع ابنه عندما بلغ سن السادسة . . ! !

والحق ، أن « سنوزيريس » كان أكثر من معجزة . وكان - وهو فى تلك السن - يشترك مع كهنة بتاح فى قراءة كتاب الحكمة ، ويدهشهم بقدرته الخارقة على تفهم القديم من نصوصه التى وضعها الإله توت قبل ذلك بمئات السنين . . ! !

وذات يوم ، بينما كان « ساتنى » يغتسل على سطح بيته ، وإلى جواره ولده سنوزيريس ، شق السكون صوت عويل يرتفع فى الطريق ، تختلط به أهازيج موسيقى الموت . وأطل « ساتنى » فإذا مآتم رهيب ، لواحد من الأغنياء يشيع إلى مدفنه الأخير فى موكب فخم ، يزيد جلاله شجوا الألحان التى تسير معه حتى مقابر منفيس .

ومضت لحظات ، وإذا ميت آخر يعبر الطريق ، ملفوف فى خرقة ، يشيعه بضعة أفراد من ولده ، إلى خارج منفيس . . بغير موسيقى ولا احتفال ولا موكب . . حتى الدمع نفسه ، ماكلف أحدهم نفسه أن يذرفه من وراء الجثمان .

وهتف « ساتنى » وهو يطل إلى السماء :

- يا أوزيريس . . ياسيد « الأمت » العظيم القدرة فى العالم الآخر . اكتب لى دخول دار الأموات فى عظمة وجلال كهذا الغنى ، ولا تحرمنى شجوا الموسيقى وندب الناديين ، كما حرمت هذا الفقير .

ونظر إليه ولده « سنوزيريس » طويلا ثم قال :

- يا أبت ، إنى لأتمنى لك أن تموت ميتة هذا الفقير ، لاميتة ذلك الغنى . . !

وتألم « ساتنى » وهو يسمع أمنية ولده . وقال يعاتبه :

- لكم تؤلمنى يا ولدى سنوزيريس . . أهذا هو الدليل على حبك لأبيك ؟

وأجابه الصبى :

- إذا أردت . . فأنا على استعداد لأطلعك على مصير كل منهما فى الآخرة : الغنى

الذى بكاه الناس ، والفقير الذى لم يجد من يبكيه . . !

وعجب « ساتنى » وراح يسأله :

- وكيف تستطيع ذلك ياسنوزيريس . . ؟!

عندئذ ، أمسك « سنوزيريس » بيد أبيه ، وأخذ يتلو تعاويذ بدت غريبة حتى على أبيه الساحر العظيم . . ثم انطلق به يقوده إلى جبل منفيس حيث هبطا معا فجوة ضيقة بين الصخر ، ما كادا يهبطانها حتى وجدا نفسيهما في قاعة قادتهما إلى أخرى أكثر سعة ، ثم إلى ثلاثة تزيد اتساعا عن كل قاعات قصر الفرعون نفسه . وهنا شهد « ساتنى » جماعة مزدحمة من الناس . . فيها الفقير والغنى ، الوضع والرفيع ، الجميل والقيح .

وعاد « سنوزيريس » يقود أباه ويحاذ به الباب إلى قاعة رابعة ، حيث شهدا قوما مولين وعلى ظهورهم حمير تأكل . . وقوما آخرين يمدون أيديهم إلى الطعام المعلق فوق الظهور فلا يستطيعون إليه سبيلا ، إذ تقف دونهم حفر يحفرها قوم آخرون ، تتسع وتوسع وتحول بينهم وبين الوصول إلى الزاد !

وتحولوا معا ليجتازا القاعة الرابعة إلى الخامسة . وشهد « ساتنى » باب القاعة يرتكز على عين رجل راح يستغيث ويصرخ . . ومن خلفه ناس يبكون ويلحون في طلب الدخول فلا يسمح لهم أبدا . . .

وكان لابد لساتنى وولده كى يدخلوا القاعة الخامسة ، أن يطأ الرجل المنطرح تحت الباب . وكان هذا جزءا من العقاب الذى قدر له : أن يطأه كل الأموات الذين يجتازون قاعات العذاب إلى مكان السعداء . . . وكانت القاعة السادسة . . .

وشاهد « ساتنى » محكمة الموتى منعقدة ، يرأسها القاضى الأكبر أوزيريس سيد « الأمنت » . . أى الدار الآخرة . . متربعا على عرش من ذهب ، وفوق رأسه تاج الجنوب الأبيض المرصع من جانبيه بريشتى نعام . وإلى جوار أوزيريس كان يتربع الإله أنوبيس ، والإله توت ، وحوهما من شمال ويمين اثنان وأربعون قاضيا من الآلهة تكتمل بهم هيئة المحكمة .

وكان هناك فى وسط القاعة ميزان توزن فيه الحسنات والسيئات . . يستجوب أنوبيس الميت ويدون توت أجوبته . فمن رجحت حسناته السيئات قاده الآلهة المحيطون بأوزيريس إلى جنة الأموات الصالحين حيث يتمتع بالسعادة الخالدة . وأما من رجحت مساوئه حسناته ، فإنه يسلم إلى « معت » كلبة سيد الأمنت المفترسة ، المستلقية تحت قدميه ، مستعدة دائما لتمزيق كل محكوم عليه بالعقاب .

وتفرّس « ساتنى » فى إلهة العقاب . . فإذا فمها فاغر كأتون ، ومخالبها حادة كسكين ، ورأسها مدبب كتمساح ، وجسمها بشع كتنين . . . !

وبينما « ساتنى » يتأمل إلهة العقاب إذا به يلمح رجلا نبيل الطلعة ، يرتدى ثوبا من كتان فأخر ، يقف إلى جوار أوزيريس . وسأل « ساتنى » ولده عمن يكون هذا الرجل فأجاب :

- هذا هو الفقير الذى رأيته مكفنا بخرقه بالية ومحمولا بلا موكب إلى خارج منفيس . إنه هو نفسه الذى تمنيت يا أبى ألا تموت ميتته . لقد حل أمام محكمة الموتى ، فرجحت حسناته سيئاته . إنه تعذب كثيرا فى الأرض ليسعد طويلا فى السماء . ولكى تتم سعادته خلع أوزيريس عنه كفنه الممزق ، وألبسه كفن الغنى الذى رأيته مشيعا فى حفاوة إلى مقبرة منفيس . هذا الغنى نفسه هو الذى وطئته قدماك عندما ولجت القاعة ، وكان محور الباب مرتكزا فى عينه اليمنى يفرها كلما فتح أو أغلق . . فقد حوكم الغنى فرجحت سيئاته حسناته ، وحكم عليه بالعقاب الصارم . وهكذا ترى يا أبت أننى قد تمنيت لك فى الأرض ميتة الفقير لاميتة الغنى . . لأننى كنت أعلم مصير كل منهما فى الآخرة . . .

وقال « ساتنى » يسأل ولده :

- لقد رأيت يا بنى فى « الأمنت » ما أدهشنى ، فهل تستطيع أن تخبرنى عن هؤلاء الذين رأيناهم مولين وعلى ظهورهم تأكل الحمير . ؟ وعن أولئك الذين لا يملكون سبيلا إلى الزاد بسبب الحفر التى تزداد وتتسع تحت أقدامهم . ؟

أجاب سنوزيريس :

- أجل يا أبت . الأولون هم أبناء هذه الأرض الذين لعنتهم الآلهة . يعملون ليل نهار ليضمنوا بقاءهم . فتنحول نساؤهم إلى حمير نعمة . تنهب أموالهم وتأكل على ظهورهم . أما الذين يمدون أيديهم عبثا إلى الطعام ، فهم أولئك الذين استأثروا بخيرات الأرض وما شبعوا ، فعوقبوا بالحرمان جزاء حرمانهم الآخرين . . !

وما كاد سنوزيريس ينتهى من شرح ماعمى على أبيه ، حتى أخذ بيده ليعود به إلى الأرض من جديد .

... وظل سنوزيريس يقدم الخوارق كل يوم إلى أهل الأرض . . !

و ذات يوم بينما كان فرعون جالسا على عرشه في منفيس ، بين مستشاريه وقواده وكبار موظفيه ، دخل الحاجب يعلن وجود مشعوذ حبشى بالباب ، يبغى المشول بين يدي فرعون ، ويزعم أنه يحمل رسالة مختومة . وعندما أذن الملك ، دخل القاعة رجل حبشى سلم ثم قال :

- أنا قادم من بلادى أيها الملك ، لأسأل هل في استطاعة أحدكم أن يقرأ القصة المدونة في الكتاب الذى أحمله دون أن يفضه ؟ ! لو أن أحدكم استطاع فسأعود إلى بلادى . . بلاد الزوج لأقول إن علماء مصر هم خير علماء الأرض . أما إن عجزتم وعجز كتابكم وعلماءكم عن ذلك فأنا عائد إلى بلادى لأعلن أن مصر بلد متأخر لا يعيش فيه سوى الجهال والأغبياء . . ! وأحس الملك ، والقادة ، والجميع ، كأن الأرض تميد بهم ، وهتفوا جميعا :

- وحق بتاح العظيم . . كيف يمكن لعالم أو كاتب مهما برع في تفهم الرسوم الهيروغليفية ، والنصوص الغامضة ، أن يقرأ قصة في كتاب دون أن يفضه ؟ !

غير أن فرعون كان يخشى أن توصف بلاده بالجهل والتأخر ، فأرسل إلى ولده «ساتنى» كبير السحرة والحكماء يستدعيه . وحضر الابن وسجد لأبيه الذى قال له :

- أسمع يا ولدى ما قال المشعوذ الحبشى ؟ إنه يتحدى كل علماء مصر وكتابها أن يقرأوا قصة في الكتاب الذى يحمله دون أن يفضه ؟

وأجاب ساتنى :

- يا صاحب الجلالة . . ما من أحد يملك القدرة على أن يقرأ كتابا دون أن يفضه . ومع ذلك فأمهلنى عشرة أيام أتدبر خلالها كيف أمنع الزوج من أن يتهموا بلادنا العزيزة بالتأخر والجهل . . !

ووافق الجميع على الانتظار . وأعدت للمشعوذ الحبشى غرفة ينزل بها حتى يعقد الاجتماع المنشود . . ويرد فيه ساتنى على التحدى الغريب . . !

* * *

انطلق ساتنى إلى بيته وفى القلب منه غيظ مجنون . . كانت الحيرة تأخذ به ، وخوف الفشل يرعبه ، واستلقى على فراشه يبغى النوم ، ولكن هيهات للنوم أن يزوره أبدا .

ودخل سنوزيريس على أبيه ، فوجده يتقلب كمن يرقد فوق حجر . وسأل الابن أباه :
 - ماذا بك يا أبت ؟ بح لى بسر أملك وأنا كفيل بأن أبدد أوجاعك وآلامك . . !
 وأجاب ساتنى :

- دعنى ياسنوزيريس . . إن مابى ليتعدى قدرة الصغار على تخفيف الآلام والأوجاع . . حتى لو كانوا يملكون كل أصول السحر . .
 ولكن سنوزيريس لم يزل بأبيه يلح ويحلف ، حتى اضطر ساتنى آخر الأمر أن يقص عليه قصة المشعوذ الحبشى ، وتحديه لكل أهل مصر . . حتى فرعون . . !
 ولم يكد سنوزيريس يسمع القصة حتى برقت عيناه ببريق غريب ، ثم انفجر ضاحكا فى صخب كبير أثار عجب ساتنى فراح يقول له :
 - ما الذى يضحكك كل هذا الضحك يا ولدى ؟ أو تسخر منى . . ؟!
 قال سنوزيريس :

- إنما أضحك لأن الهموم التى تهدّ قواك لم يسببها سوى ذلك الأمر التافه الضئيل .
 انهض يا أبت ، ولك منى العهد أن أقرأ قصة الحبشى كاملة ، دون أن أفص كتابه . . !
 وسرى عن ساتنى . . وإن ظل يتتابه بعض الشك . .
 وانطلق ساتنى إلى الفرعون أوزيريس ، فقص عليه الأمر ، ورجاه أن يدعو أهل القصر كلهم إلى الاجتماع . . ويأمر بإحضار المشعوذ الحبشى . .
 واكتمل الجمع . ووقف الحبشى وسط القاعة يتحدى . . وفى يده الكتاب مغلقا مدفونا بين طيات ثيابه .

ووقف سنوزيريس يرد التحدى :

- ملعون أنت أيها الحبشى . لقد أغضبت آمون الإله الأكبر ، وبتاح رب منفيس .
 وجرؤت على القدوم إلى مصر . حديقة أوزيريس ، وبلاد رع العظيم . . ووقفت تتحدى بقولك . . سأعود إلى بلادى . . بلاد الزنوج وأعلن أن علماء مصر كلهم جهلاء . ألا فلينصب عليك غضب آمون . . وهأنذا أمام سيدك وسيدنا فرعون العظيم . . أتلو كل حرف من قصة الكتاب الذى تخفيه تحت ثيابك . . وإذا نجحت فى مهمتى فإياك أن تنكر على ذلك . . .

وانحنى الحبشى أمام سنوزيريس ، وقد أحس شيئا من الرهبة وقال :
 -إذا نجحت فى مهمتك فلك منى العهد أن أعترف بنجاحك أمام الجميع . . .
 وساد القاعة صمت غريب . . الفرعون والأمراء والكهنة والقادة . . وأفراد الشعب
 كلهم ، فى انتظار كلمة النصر المعلقة على شفتى سنوزيريس الصغير.
 وبدأ سنوزيريس يتلو قصة المشعوذ فقال :

هى قصة مجهولة جرت حوادثها فى عهد فرعون « سيا - آمون » . فى ذلك العهد كان
 ملوك الحبشة أعداء لمصر ، وكانوا يتحينون الفرص للنيل منهم بمختلف الوسائل
 والأساليب . وقد اجتمع مرة ثلاثة من سحرة الأحباش الماهرين ، وأخذوا يبحثون
 الوسيلة إلى إهانة مصر وإذلال شعبها .
 قال الأول :

- إن باستطاعتى أن أرمى مصر بسحر يغرقها فى الظلمات الدامسة ثلاثة أيام وثلاث
 ليال ، دون أن يتسلل إليها خيط واحد من النور . . !
 وقال الثانى :

- وأنا باستطاعتى أن أرمى مصر بسحر يجذب كل مافيه من حقول لسنوات
 ثلاث . . !
 وقال الثالث :

- أما أنا فباستطاعتى أن أرمى مصر بسحر ينقل ملكها إلى الحبشة حيث يجلد علنا
 خمسمائة جلدة . ثم يعود إلى بلاطه فى أقل من ست ساعات . . !
 وصدق ملك الأحباش للاقتراح الثالث . . فقد استهوته فكرة جلد فرعون مصر .
 وسأل الساحر عن اسمه فأجاب :
 - أنا « نازى » ابن السيدة « زنجاو » .
 قال ملك الأحباش :

- نفذ اقتراحك الخارق يانا زى . . وأنا أعدك بحق آلهتى أن أصونك من انتقام
 فرعون ، وأغدق عليك أئمن الهدايا .
 عندئذ صنع نازى محفة من شمع محمولة على أكتاف أربعة حمالين . ثم تلا تعاويذ
 جعلت الحياة تدب فى الحمالين الأربعة ، وخاطبهم قائلاً :

- اذهبوا في الحال إلى مصر واستحضروا ملكها على المحفة أمام ملكنا العظيم . وبعد أن يجلد خمسمائة جلدة ، عليكم أن تعيدوه إلى بلاطه في أقل من ست ساعات .

وأجاب الحمالون الأربعة :

- سمعا وطاعة يامولانا .

وطار الحمالون الأربعة إلى مصر بقوة السحر . وعندما بلغوا القصر ، راحوا يتلون تعاويذ خدرت كل حرس البلاط . ثم حملوا الفرعون « سيا - آمون » في المحفة ونقلوه إلى قصر ملك الحبشة حيث جلد خمسمائة جلدة . . . ثم عادوا به إلى بلاطه قبل أن تمضي الساعات الست بكثير . !

وفي الصباح . . أفاق فرعون محطما منهوكا . وأحس كأن في جسده النار .

ودعا الملك إليه رجال بلاطه وقال لهم :

- ما الذي حدث لي في الليل . . ؟ لقد حملت في محفة إلى خارج مصر . !

وبهت أفراد الحاشية ، وتبادلوا النظرات ، وقد ظنوا أن الخبل قد أصاب الملك .

وأدرك الفرعون ما يدور بخلدهم ، فكشف عن ظهره الذي ألهبته السياط وقال لهم :

- وحق بتاح الكبير ، لقد نقلت ليلا إلى قصر ملك الحبشة حيث جلدت خمسمائة جلدة ، ثم أعدت إلى بلاطي في أقل من ست ساعات . !

واقترب كل رجال البلاط من الملك يتفحصون آثار السياط . فما ثمالكوا أن أغمضوا أعينهم لفرط القسوة والبشاعة التي نزلت بجسد الملك .

وكان بين رجال البلاط ساحر اسمه « بانيشى » ماكاد يرى آثار الجلد حتى صاح :

- إنه سحر الزنوج يا صاحب الجلالة هو الذى فعل بك هذا . ولكن . . وحقك

يامولاي . . وحق آمون ورع وبتاح لأنزلن بهم عقابا ماتصوره واحد منهم قط جزاء ما فعلوا وأثموا . . .

واستعان بانيشى بتعاويذه وطلاسمه . وصلى لتوت رب السحر فمنحه سحرا عظيما القدرة دهن به فرعون ليقه من عدوان الزنوج . وعندما جاء الليل التالى سلط نازى سحره ليعيد الكرة مع فرعون ، ولكن عبثا . أما بانيشى فقد سلط سحره الخارق على ملك الزنوج فنقله ليلا إلى مصر حيث جلد أمام الفرعون وكل سكان مصر بضعة آلاف

جلدة . وكرر بانيشى سحره ثلاثة أيام متوالية ، حتى ثار ملك الأحباش فدعا إليه نازى وقال له متوعدا :

- إنك أنت سبب المصائب التى حلت بى . . . عليك أن تنقذنى من سحرة مصر ، وإلا فلن يكون رأسك فوق عنقك متى أصبح الغد . . !
وأجاب نازى :

- سمعا وطاعة يا مولاي . سأذهب بنفسى إلى مصر لأنازل خصمى الساحر المصرى فى عقر داره . . !

وانطلق نازى الحبشى إلى مصر . وبينما كان فرعون مجتمعاً بمستشاريه وقواده انتصب نازى وسط القاعة ، وراح يصرخ بأعلى صوته :

- أنا نازى ساحر الزوج . . أتحدى فى مجلس فرعون كل سحرة مصر . . وعلى الأخص ذلك الساحر الذى خطف ملكى ونقله إلى مصر بالرغم منى .
ونفض بانيشى ساحر مصر وأجاب :

- أنا لك يانازى . . أنا لك يامن جرؤت على أن تنقل فرعون مصر سيدك وسيد الأرض كلها إلى الحبشة حيث ضرب بالسياط . أنا لك يامن جرؤت مرة أخرى أن تأتى إلى مصر وتتحداى فى عقر دارى . وحق أنومو سيد هليوبوليس ، لقد قادتلك آلهة مصر إلى فى الوقت المناسب ، وسأنزلن بك العقاب الذى تستحق . فابدأ أيها المتحدى بسحرك . . ولنر لمن تكون الغلبة ومن يفوز بالنصر . . ؟

ولم يكذب بانيشى يتم كلامه ، حتى تلا الحبشى تعاويذه . وفجأة شبت النار فى مجلس فرعون الذى راح يصرخ ومن حوله رجال البلاط .

- أنقذنا يا بانيشى . . أنقذنا . . !

وتلا بانيشى إحدى تعاويذه الواقية . فهبت من الجنوب ريح عاتية مالبثت أن أخمدت النار .

وعاد الحبشى يتلو تعويذة أخرى . فانتشر فى القاعة ضباب كثيف أخفى كل فرد عن أعين الآخرين . ولكن بانيشى رد عليه بتعويذة أخرى ، فإذا الريح تهب فجأة فتزيل الضباب المتلبد عن القاعة . .

ثم كانت التعويذة الثالثة التى تلاها نازى . فإذا بقبو ضخيم يقوم حول المجلس ،

في عزل من فيه عن كل أرض مصر. وما كاد القبر يطبق على فرعون ورجاله حتى صرخوا صرخة رعب وفزع. وتلا بانيشى تعاويذه، فاذا زورق مسحور ومعاول تهدم القبو، وتنقل حجارتها لتلقى بها في بحيرة مورييس .

عندئذ استسلم الساحر الحبشى، وحاول أن يهرب متخفياً. لكن بانيشى لم يلبث أن كشفه في هيئة أوزة ملقاة على ظهرها . . وإلى جوارها صياد مستعد للقضاء عليها .

وخلع الساحر الحبشى كبرياءه، وراح يقبل الأرض ويطلب الغفران .

- عفوك ياسيدى . . أنا أعترف بجرمي وألتمس منك الغفران . امنحنى مركبا استقله إلى بلادى فلا أعود إلى مثل ما فعلت قط .

وأجابه بانيشى :

- قسما بكل آلهة مصر . لن تفلت من قبضتى قبل أن تتعهد أمام الجميع بعدم العودة إلى مصر أبدا . .

وأقسم الساحر الحبشى :

- وحق جميع الآلهة . . لن أعود إلى مصر قبل أن تمضى ألف وخمسمائة سنة . . !

وعندئذ، أطلقه بانيشى من ربة السحر . . . ومنحه مركبا أعاده إلى بلاد الزوج . .

* * *

هنا توقف سنوزيريس عن التلاوة . . فقد انتهت القصة . .

وسجد المشعوذ الحبشى، وعفر جبينه في التراب وقال :

- لقد نجحت في مهمتك . . وتلوت القصة بكل حرف فيها .

ولم يكذ يتهى من اعترافه حتى حاول الهرب والنجاة . لكن سنوزيريس تلا تعاويذه، فتوقف الحبشى وتسمرت قدماه، وما استطاع الحركة أبدا .

وتكلم سنوزيريس مخاطبا فرعون :

- إن هذا الساجد تحت قدمى أيها الفرعون العظيم . . ليس سوى نازى الحبشى نفسه . . لقد انتهت الألف وخمسمائة سنة التى كان قد أقسم ألا يطأ خلالها أرض مصر، وعاد ليتقم من مصر والمصريين . أما أنا . . يا من تعرفوننى باسم سنوزيريس . .

فلست سوى بانيشى . . وقد علمت بينا أنا فى العالم الآخر أن هذا الحبشى سيسلط
سحره على مصر. فسألت أوزيريس أن يعيدنى إلى الأرض لأصده عن النيل وعن كرامة
بلادى . . وهأنذا قد فعلت . . !

وعندما انتهى بانيشى المتقمص فى جسد سنوزيريس من كلامه ، تلا تعويذة
غامضة ، فاذا نازى الحبشى يتحول إلى رماد . . !

وبينما الجميع ينظرون فى دهشة إلى بقايا الحبشى . . إذا بانيشى هو الآخر يتلاشى من
أمامهم فجأة . . كأنها قد ابتلعت الأرض . . !

وخيم على المجلس سكون رهيب . . قطعه بكاء طويل فى أقصى القاعة . . وأطل
الفرعون . . وأهل مصر جميعا . . فإذا « سأتى » قد انتحى ركن القاعة ، وراح يبكى
ولده الذى اختفى وتلاشى . . وإلى جواره وقفت « ماهى » زوجته تعزیه وتحفف عنه
بلواه . .

وسكت الجميع . . فما كان أحد ليستطيع أن يتكلم بعد . . !

أسطورة فرعونية الملك خوفو .. والسحرة

كان للسحر في مصر القديمة أثر كبير في حياة الناس . حتى لقد كانت أعمال السحر تستهوى الملوك والأمراء فيتخذون منها مجالا للهو والتسلية .

غير أن أصحاب عبادة الشمس الذين جاءوا بعد أسرة خوفو أرادوا السيطرة على العرش ، كانوا يعتبرون السحر لونا من ألوان الكفر . فلما أرادوا السيطرة على عرش مصر ، راحوا ينسبون إلى خوفو وأسرته الإلحاد والميل إلى السحر والسحرة . . وراحوا يطمنون في عقيدة أسلافه وأبنائه ، ويمهدون لظهور دينهم من خلال هذه الأسطورة التي وضموها ليؤكدوا بها حق ملوكهم في العرش ، عن طريق تأليههم ونسبتهم لرع . . رب الشمس العظيم .

أحس بضيق من كل شيء حوله . وهفا إلى بضع لحظات من المرح تسليه وتخفف عنه بعض ما يحمل فوق صدره . فأرسل خوفو إلى أبنائه الثلاثة يستدعيهم ليقصوا عليه بعض مآدرسوه من أنباء سحرة طيبة ، ويسردوا على سمعه بعض ما عرفوه من خفيف الملح وطريف الفكاهات . .

ونفض خفزع « أكبر أبناء فرعون » وبدأ يروي لأبيه قصته :

هذه القصة وقعت أحداثها في منف ، خلال أيام ملكها الفرعون نبكا . وكان من عادة الملك كلما جاء إلى معبد الإله بتاح بمدينة منف ، أن يزور الكاهن الساحر «أوباد» . . يسمران ويتبادلان الحديث حتى يحين وقت العودة .

و ذات يوم ، بينما الملك وحاشيته في زيارة الكاهن ، إذ وقع بصر امرأته على فتى من الحاشية جميل رقيق . واقتربت المرأة منه ، وراحت في غفلة من الجميع تناجيه ، وتطلب منه أن يعود متى انتصف الليل ، يقضيان معا بعض ساعات العمر . .

وكانت امرأة الكاهن جميلة رائعة . فما استطاع الفتى رفضا لعرضها الشيق ، وما كان أسرع ، عندما انتصف الليل ، في الانطلاق إلى حيث حددت له مكان الانتظار . وأخذت المرأة بيده ، وسارت به إلى حيث كوخ جميل في بستان القصر ، قضيا فيه بعض

الوقت ، ثم اتفقا على اللقاء نهار كل يوم فى المكان ذاته ، بينما يكون الكاهن قائما على شؤون معبده لايستطيع أن يبرحه .

وكما حدث فى ذلك اليوم ، حدث مثله فى كل يوم جاء بعد ذلك . . فيما يكاد النهار يجيئ ، وينطلق الكاهن إلى المعبد ، حتى يكون الفتى فى الكوخ حيث تكون امرأة الكاهن فى انتظاره ، فيضمها إلى صدره ، ويحيطها بذراعيه ، ويثبها كل فاجر وخسيس من ألوان الغرام . وتستمر بكل منهما النشوة المجنونة حتى تغيب الشمس . . وعندئذ يقصد الفتى إلى بحيرة فى البستان يغتسل فيها ، ثم ينصرف من بعد ، لتعود نفس القصة مع مطلع اليوم الجديد . . ا

وانتبه حارس البستان إلى مايقع فى بيت سيده كل يوم . ومضت أيام كان يخشى خلالها أن يكشف له الأمر . غير أن تلك الخشية كان لابد أن تزول مع كثرة ماكان يمر من أيام . فانطلق الحارس إلى سيده يقص عليه القصة كلها ، ويطلب منه أن يعفيه من العمل الذى كرهه وأبغضه .

وثار غضب الكاهن لخيانة امرأته ، وامتلاً قلبه حقدا وغيظا ، واستبدت به رغبة جارفة فى الانتقام .

وفتح الكاهن صندوقا من الأبنوس أخرج منه كتاب التعاويذ . وبعد أن قرأ فيه قليلا أغلقه ، ثم أخذ قطعة من الشمع ، جعل منها دمية فى شكل تمساح صغير لايزيد طوله عن سبعة أصابع . . وراح يتلو عليه من تعاويذ السحر مايعزيه بكل من ينزل إلى البحيرة ، ليجذبه حتى القاع . . ا

وسلم الكاهن الدمية إلى البستاني وقال له :

- خذ هذا التمساح ، واقدف به فى البحيرة متى نزل الشاب ليغتسل فى الماء . . ا

وكان الغد . وجاء الفتى يختلى بامرأة الكاهن فى بستان القصر . . تماما كما كان يحدث كل يوم وراح العاشقان يصخبان ويضحكان ويشربان الخمر حتى إذا غابت الشمس نهض الفتى إلى البحيرة يغتسل . . وما كاد يقفز فى الماء حتى تبعه البستاني فجأة بتمساح الشمع . .

وفى لحظة . . تحول التمساح الصغير إلى تمساح هائل طوله سبعة أذرع ، هاجم الفتى وقضم ساقه ، ثم جذبه فى قوة معه إلى قاع الماء . . ا

فى ذلك الوقت كان الكاهن « أوباو » قد ذهب إلى قصر فرعون ليقضى بعض شؤون

دينه . واستمر عمله فى المدينة أياما سبعة ، لم يكذب ينتهى منها ويعود إلى منف ، حتى تبعه الملك ليزور معبد بتاح . . .

وقال الكاهن لفرعون :

ـ ألم تر إلى المعجزة التى وقعت فى عهدك ؟

قال الملك :

ـ فما هى . . ؟

قال أوباو :

ـ تعال معى تر بنفسك وتسمع بأذنيك . . ا

وانطلق الملك مع الكاهن حتى بلغا ضفاف البحيرة . ونادى الكاهن على التمساح ، فخرج من الماء يجز الفتى بأسنانه ، ثم ألقى بجثته أمام الملك . .

قال فرعون :

ـ إن التمساح لرهيب . . ا

وهنا انحنى أوباو ، وأخذ التمساح بين يديه ، فإذا به يعود سيرته الأولى . . دمية من الشمع لايزيد طولها على أصابع سبعة . . ثم راح الكاهن يقص على فرعون ماكان من أمر الفتى والزوجة الخائنة .

وهز الملك رأسه الذى امتلأ رضا . . ثم قال لدمية الشمع :

ـ أيها التمساح . . خذ مالك . . ا

فانتفضت الدمية لتصير تمساحا هائلا من جديد ، أمسك بجثة الفتى الخائن ، وقفز بها إلى الماء . . ولم يره أحد بعد ذلك قط . . !

وانتهت قصة خفرع ، بينما العجب يأخذ بالملك خوfo الذى ترحم على روح سلفه بألف رغيف ، ومائة جرة من شراب ، وقطعة من لحم ، وصاع واحد من البخور . . !

* * *

وجاء دور الأمير « باوف رع » ليقصّ القصة الثانية على فرعون . قال الأمير :

أحداث هذه القصة وقعت أيام جدى الملك « سنفرو » .

وكان الملك فى ذلك اليوم محزون النفس مكتئب القلب . وعشا حاول رجال القصر

أن يهتدوا إلى ما يذهب عنه الحزن أو يزيل عن نفسه الضجر. وإذا بلغ الأمر بالملك ذلك المبلغ، دعا إليه كاتبه « جاجا إم عنخ » وقال له :

- أيا ابن أخى . . لقد طلبت كل أفراد حاشيتى اجتلابا للسرور والتفكه بما يروح عن النفس، فعجزوا كلهم عن تلبية طلبى . أفلا تستطيع أنت سبيلا إلى تسليتى ؟
أجاب الكاتب :

- بلى يامولاي . . فما عليك إلا أن تخف إلى بحيرة البستان، وتأمر بإعداد أجمل الزوارق لأجل نساء حرمك . فإنك إذا رأيتهن يجدفن ذهابا وجيئة ابتهج قلبك وارتاح فكرك وسرى عتك . .

وسر الملك لاقتراح الكاتب . فانتقى من أميرات الحرم عشرين أميرة، ممن تميزن برشاقة القدود وطول الشعور، وألقى عليهن ثيابا شبكية رقيقة النسج لطيفة اللون تشف عما تحتها، وأعطاهن مجاديف من خشب الأبنوس الموشى بالذهب . .

وراحت الأميرات تجدفن، وأخذ الزورق يسبح . وتسلفت إلى نفس فرعون البهجة تسعى إليه من خلال الماء والخضرة وجمال الوجوه . . ومالبت الجو من حوله أن امتلا بالصفو والخبور.

غير أن ذلك الفرح ما كان ليستمّر طويلا . فبينما الأميرات يجدفن ويغنين، إذ بمقبض أحد المجاديف يصطدم بشعر كبراهن، فيسقط من شعرها في الماء طلسم ثمين على شكل سمكة . .

وأمسكت الأميرة، كما أمسكت الأميرات حولها، عن التجديف والغناء . وتلفت الملك يسأل عن سر سكوتهن، فعلم بما وقع لكبيرة الأميرات .

وابتسم فرعون يهدئها ويهون عليها الأمر، وقال لها إنه سيأمر بما يعوضها عما فقد . غير أن الأميرة أمعنت في الرفض وهى تبكى، وأصرت على استرجاع جواهرها الثمينة المفقودة .

وتحير الملك . وأخذ به ضيق كبير . .

والتفت الملك إلى رجال حرسه، وأمر باستدعاء كاتبه الأمير « جاجا إم عنخ » وقال الملك للكاتب :

- يا جاجا إم عنخ . . لقد أخذت بنصيحتك وفعلت ما اقترحت . وما كادت البهجة تعود إلى نفسى، حتى وقع طلسم إحدى الأميرات في الماء فتوقفت عن الغناء

والتجديف ، وتوقفت معها كل الأميرات . وبرغم كل ما حاولت من تهوين الأمر ، أقسمت الأميرة ألا تستأنف عملها حتى تسترد جواهرتها هى ذاتها ، لا شبيهتها ولاسواها . فدبر لنا الأمر كما دبرت من قبل تلك النزهة !

وفتح الكاتب كتابه السحري ، وأخذ يتلو بعض التعاويذ . فما هى إلا لحظة حتى ارتفع نصف الماء وانطوى على النصف الآخر كما تطوى قطعة نسيج . وأطل الكاتب فى الماء فإذا الجوهرة الثمينة مستقرة فى القاع ، فمد يده وتناولها ، وأعادها إلى الأميرة . ثم تلا تعويذة أخرى عاد لها ماء البحيرة كما كان . . وأستأنف الملك مرحة وبهجته مع الأميرات الصغيرات . . !

وانتهت قصة الأمير . وسر خوفو من تلك المعجزة التى أتاها الكاتب الساحر فى عهد أبيه الملك سنفرو . فأمر بتقديم ألف رغيف ومائة جرة من شراب وذبائح وصاعين من البخور لروح الملك . . وتقديم قرص حلوى وجرة شراب وقطعة لحم وصاع خمر لروح «جاجا إم عنخ» .

* * *

وهنا نهض الأمير « حور ددف » يقص على أبيه الملك خوفو قصة ثالثة . قال الأمير :
- لقد سمعت يا مولاي قصص الأعاجيب القديمة التى لاسبيل إلى التأكد من صحتها . أما أنا ، فسأحضر بين يدي جلالتك ساحرا معاصرا لاتعرفه ، فى استطاعته أن يقدم معجزاته بين يديك .

قال خوفو :

- أوافق أنت مما تقول يا حور ددف ؟

أجاب الأمير :

- أجل يامولاي . فهناك قروى رفيق الحال يدعى « ديدى » يسكن قرية « ديد سنفرو » جنوبى منفيس . إن هذا الرجل ساحر مسكين ، تجاوز عمره المائة بعشرة أعوام . ولكنه برغم شيخوخته يستطيع أن يأكل من الطعام كل يوم خمسمائة رغيف ، وفخذ ثور ، ويستطيع أن يشرب وحده مائة جرة من الجعة . ومن عجائب سحره ياصاحب الجلالة أنه يعيد الرأس المقطوع إلى مكانه ، ويخضع الأسد الكاسر فيتبعه طائعا دون أن يحره بزمام ، ويعرف فوق كل ذلك عدد الصناديق الموجودة فى ناووس هيكل « توت » وعدد الكتب السحرية الموجودة فى كل صندوق . . !

وعندما سمع الملك ذلك قال لولده :

- يابنى لقد طالما بحثت عن صناديق الكتب التى تحدثت عنها فلم أجدها . وإن فى نيتى متى وجدتتها أن أنسخ الكتب وأضع نسخها فى هرمى . فأسرع بإحضار هذا الشيخ الجليل لعلنا نستفيد بعلمه ومقدرته .

وامتثالا لأمر فرعون ، نهض حور ددف واستقل زورقا ملكيا توجه به إلى « ديد سنفرو » حيث يسكن الساحر العجوز . وإذ رسا الزورق ترجل الأمير ، ورفع الحمالون على محفة من خشب الأبنوس الموشى بالذهب ، حتى بلغ بيت الساحر . وكان ديدى فى تلك اللحظة يستلقى على سرير صغير عند عتبة بيته ، وحوله عبدان أحدهما يحك رأسه والآخر قدميه . . !

وحيا الأمير الساحر وقال له :

- إن ملاحك أيها الشيخ لتدل على أن التقدم فى العمر يضاعف سعادتك وبحول بينك وبين هموم الحياة . إن غيرك من الناس يفرقون من الشيخوخة لأنها فى نظرهم نهاية الرحيل والتأهب للعودة إلى الأرض . أما أنت فمصيرك أكثر سعادة لإن حكمتك أوسع وأرحب . ولهذا فقد أتيت إليك من قبل أبى فرعون خوفا أدعوك لزيارته . . وهناك . . فى رحاب الملك ، ستأكل وتشرب أشهى ما يقدم لضيوف القصر من طعام وشراب ، وستقضى بقية عمرك على أسعد ما تكون الحياة .

أجاب الساحر ديدى :

- لبيك يا حور ددف ، أيها الأمير الحبيب . ليهنأ بك أبوك ويقدمك على كل الشيخ والحكيم . إن عملك يابنى لينفذ إلى كل الأشياء الخفية ، وإن طلبك ليلبى يا ابن فرعون العظيم . . !

ومد حور ددف يده فأقام الشيخ من سريره . وقاده إلى الميناء حيث أُعد لامراته وأولاده زورق خاص ، بينما استقل الشيخ مع الأمير زورقه الملكى .

وبلغ الركب قصر فرعون . وخف الملك لاستقبال الساحر الشيخ فى البهو الكبير وهو يقول :

- كيف يمكن أن يعيش مثلك فى عهدى دون أن أسمع به أو أراه ؟

أجاب الشيخ :

- إن من يدعى يلبى الدعوة . ولقد دعوتنى ياسيد المصريين فإذا أنا بين يديك .

قال الملك :

- أصبح أنك تستطيع إعادة الرأس المقطوع إلى مكانه؟

أجاب الساحر:

- أجل يا مولاي

هتف الملك :

- إذن ، احضروا إلى هنا سجيناً محكوماً عليه بالإعدام ، نجرب على رأسه تلك القدرة!

فقاطعه الشيخ الساحر قائلاً :

- عفوك يا مولاي . . . إنى لأترفع عن إجراء مثل هذه التجربة على الرجال وكل مقدس من الحيوان .

وخجل فرعون ، ثم أمر بإحضار أوزة قطع رأسها ووضعها في طرف البهو ، ووضع جسمها في الطرف الآخر . وراح ديدى يهمهم ببعض التعاويذ فإذا بالجسم يقفز صوب الرأس ، والرأس يقفز صوب الجسم ، وما لبث الاثنان أن التحما ، وعادت الأوزة حية تصبح . . !

واستحضر الملك بجمعة ، فأصابها ما أصاب الأوزة . ثم استحضر فحل بقر فكانت النتيجة واحدة . ولوحظ أن لديدى قدرة عجيبة على إخضاع الفحل وقيادته بغير زمام .

وهنا قال الملك :

- أصبح أنك تعرف عدد صناديق كتب السحر في ناووس هيكل توت ؟!

أجاب الساحر:

- عفوا يا مولاي . . إذا كنت لا أعرف عددها فأنا على الأقل أعرف مقرها .

وسأل فرعون :

- وأين مقرها يا ديدى ؟

أجاب ديدى :

- إنها موضوعة في صناديق من الصفيح في غرفة السجلات ببهو معبد هليوبوليس .

قال فرعون :

- إذن أحضر لي الصناديق .

أجاب الساحر:

- عفوا ياسيدي . . لست أنا الذى أحضرها . بل يحضرها بكر الأبناء الثلاثة الذين

تلدهم « رود ددت » .

واستغرب فرعون وسأله :

- ومن تكون رود ددت ؟

قال الساحر :

- إنها زوج أحد كهنة الإله رع ، يسمى « رع أوسر » وقد نبأها رع بأنها سوف تلد أبناء ثلاثة ، يملكون الأرض قاطبة ، ويصير كبيرهم ملكا وعظيم كهان الشمس في هليوبوليس .

عندئذ خفق قلب فرعون هلعا وملاؤه الغم . فقد بدا له كأن أسرته تحتضر وتموت . غير أن الساحر تابع كلامه وقال :

- ليطمئن بالك يا مولاي . فولدك سيكون ملكا من بعدك ، ومن بعد ولدك سيملك حفيدك . ولكن بعد حفيدك سيملك كبير أبناء رود ددت .

وملا الملك الحزن فدخل إلى القصر . وأمر بأن يقيم الشيخ في كنف حور ددف ، وأن يعطى كل يوم ألف رغيف ومائة جرة جعة ، وثورا ومائة حزمة من البصل . . !

* * *

والحق أن رود ددت كانت تقيم في مكانها بدار زوجها كاهن « رع » ، وكانت الأيام تمر بها رتيبة ثقيلة حتى أتى اليوم الموعد وجاءها المخاض .

في ذلك اليوم دعا رع إله الشمس ابنتيه الإلهتين إيزيس ونفتيس ، والإلهة « مسخونت » حارسة المهود وواهبه الأسماء ، والإلهة « حقات » المولدة ، وزوجها الإلهة « خنوم » مصور الأجنة في الأرحام .

وقال رع لوفد الآلهة :

- كونوا إلى جانب رود ددت في ساعة العسر . فإن أولادها الذين تلدهم سيكونون ملوك هذه الأرض وسيبنون المعابد والمقاصير ، ويمثلون هياكل الآلهة بالضحايا والقربان . . !

ومضت الآلهة متنكرة بأمر رع ، فاتخذت الإناث هيئة المغنيات والراقصات ، وقام الإله خنوم مقام الخادم الذي يتبعهن .

وعندما بلغن بيت رود ددت ، وقفت الراقصات بالباب وبدأن يرقصن ويعزفن ويضربن على الدفوف . وخرج الكاهن يطلب منهن أن يمسكن ، لأن زوجه في ساعة

عسر. فعرضت الراقصات على الكاهن معونتتهن بعد أن أنبأته بحذقهن في معرفة مايعين الوالدة ومايلزم لها ساعة الوضع .

وفرّح الرجل ، وقاد الإلهات ليساعدن المرأة ، فإذا هي تتمخض عن ثلاثة ذكور لهم مظاهر الملوك ، ويحملون زينة الملك وشاراته ، وعلى أعضائهم نقشت ألقابهم بحروف من الذهب ، وأطلقت عليهم إيزيس أسماء الملوك أو سر كاف ، وساحورع ، وكاكاي .

وتأهبت الإلهات للانصراف ، وذهبن يبشرن الكاهن بما وضعت زوجها . فابتهجت نفسه واعتذر شاكرا وهو يقدم لمن بعض الشعر . فقبلن منه الهدية ، وحملها الإله خنوم ، وغادر الجميع دار الكاهن .

وبينما الإلهات في الطريق ، إذ قالت إيزيس لرفيقاتها :

— علام كانت زيارتنا لرود ددت؟ لقد عدنا دون أن نمنحها أعجوبة تكون في المستقبل برهانا قاطعا لأولادها على أن الإله الأكبر رع هو الذي يرعاهم؟ هيا بنا نعود لنمنحها المعجزة!

ووافقت الإلهات على ما اقترحت إيزيس . فصنعن ثلاثة أكاليل ملكية لايتوج بمثلها سوى الفراعنة ملوك الأرض كلها ، ثم غرسنها بين حبوب الشعر .

وأثارت الإلهات العواصف فثارت ، واستمطرن السماء فأمطرت ، ليجدن ما يبرر عودتهن إلى بيت الكاهن قائلات :

— إن المطر يهطل بشدة ، حتى ليتعذر نقل هذه الحبوب الثنى وهبتنا ، إذ ستبللها المياه وتؤدي إلى عفنها لا محالة . فدعها الآن في قبر مغلق ريثما نعود بعد حين من رحلتنا إلى الجنوب .

وغادرت الإلهات بيت الكاهن . وانطلقن إلى السماء . .

أما الوالدة ، فقد خرجت من غرفتها بعد أربعة عشر يوما ، ونهضت لأعمال بيتها بعد أن علمت من جاريتها أن كل شيء في الدار على خير حال . . لاشيء تغير . . ولا مثونة نقصت . . سوى ما أهدها زوجها لأولئك المغنيات من شعر أودعته قبر الدار حتى يعدن إلى أخذه بعد حين .

ومضت أيام ، ثم جاء يوم احتاجت امرأة الكاهن فيه إلى شعر . وطلبت رود ددت من الجارية أن تأتيها ببعض ما أودعته الراقصات لديهم على أن تعيد مقدار ما تأخذ إذا ماعاد زوجها .

وذهبت الجارية إلى القبر وفتحت بابه . . ففوجئت من الداخل بموسيقى وغناء ، وهتافات شجية كمثل هتافات الشعوب للموكها . وانطلقت الجارية تقص الأمر على مولاتها . ودخلت رود ددت القبر فلم تستطع أول الأمر أن تكتشف مصدر الغناء والهتاف . واستمرت تبحث ، وتضع أذننها على الأكياس حيث الجيوب المعدة للمغنيات ، وعندئذ أدركت أن الأصوات تنبعث من داخلها .

وعمدت المرأة إلى صندوق خشبي وضعت فيه أكياس الشعير ، وأحكمت إغلاقه وختمته بخاتمها ، ثم لفته بقطعة جلد ووضعت في قبر الأواني الفارغة . . ثم أوصدت الباب . . !

وعاد الكاهن في المساء فأخبرته بما فعلت ، وقصت عليه كيف أخفت الشعير محافظة على أبنائها . . فهي ترى أن تلك الأصوات إنما هي بشير خير ، قد يجشاه الملك إذا عرف أمره . . وربما قتل بسببه أبنائها . .

وذاث يوم ، أغضبت الجارية سيدتها فضربتها . وسخطت الجارية وهي تغادر الدار حاقدة ، وأصرت على الكيد لرود ددت بعد حين ، بإفشاء سر الشعير الموسيقى الذي يبشر بالملوك الثلاثة ، حتى يصل أمره إلى فرعون . .

وسارت الجارية في الطريق ترغى وتزبد . وإذ هي كذلك لقيها أخ لها يغزل الكتان . وعندما سألها إلى أين تذهب ، أخبرته بما قرره . وأغضب تصرفها أخاها ، فتناول حزمة من جذوع الكتان وراح يضربها وينهرها ويشخنها بالجلد الفظيع . .

وهربت الجارية من أخيها وراحت تجرى . وعندما وجدت نفسها بقرب النهر نزلت إلى الماء تريد أن تبرد أوجاعها وآلامها . وإذ هي تسبح خرج من الماء تمساح هائل فتك بها وابتلعها .

ومضت الجارية الخائنة إلى غير رجعة . .

وانطلق أخوها إلى رود ددت يبشرها بهلاك أخته جزاء ما أضمرت لها من كيد . . !

وفرحت المرأة . . وظلت تعيش في فرحتها حتى صار أبنائها من بعد ولد خوفو وحفيده . . ملوكا على أرض مصر ، وكهانا باسم رع حورس . . إله الشمس . . وسيد هليوبوليس . .

أسطورة إفريقية مزرعة الشيطان

تتميز أساطير الزنوج بأخبار الجن والجينارو . . حتى لتتخذ منهم أبطالا حقيقيين يعيشون خيرا مما يعيش الإنسان نفسه . . بل ويؤونه في اختراع الحيل ووسائل المكر والدهاء . ومن كل أسطورة يخرج الزنجى دائما بحكمة جديدة رائعة ، تبدو من خلال صور الكفاح بين الإنس والجن لتملك الأرض العامرة بالخيرات والكنوز . .

هناك بعيدا . . قرب قرية « امساللا » حيث تجرى مياه النيجر الزرقاء ، تمتد أرض بور شاسعة تحيط بها الغابات من كل الجهات . .

في هذه الأرض ، كان يقيم شيطان لثيم قزم ، اسمه « الجينارو » . . يثير ذكره الرعب في القلوب ، ويجعل كل من يسير مخترقا « امساللا » في طريقه إلى المدينة يسرع الخطى في اضطراب مجنون . . وكأن من خلفه الموت . . !

وذات يوم . . بينما كان الفلاح سابونيوما يمر بالطريق ، أطل فإذا الأرض جميلة رائعة . . يثير مرآها الحسد لموقعها من الماء الذى كان يمكن أن يجعل منها حديقة كالجنة . . لولا خوف الناس من صاحبها . . الجينارو . . !

ومنذ تلك اللحظة لم يستطع سابونيوما إبعاد منظر الأرض الشاسعة البور من رأسه . . وقد غاظه أن تظل بلا رعاية . . في الوقت الذى يستطيع هو فيه أن يتعهدها ويزرعها . .

وبلغ الضيق بسابونيوما حدا جعله يصير آخر الأمر على الذهاب إلى أرض الشيطان وزراعتها . وانطلقت امرأته إلى سحرة القرية تنبئهم بما استقر عليه رأى زوجها . فأحاطوا جميعا به يمنعون عن الذهاب ، ويؤكدون له أن هذه الأرض ما بقيت بورا إلا لأنها ملك الشيطان . . الذى لا يسمح للإنسى قط بالاعتداء عليها .

وما أكثر ما حاول السحرة إثارة الرعب في قلب سابونيوما . وما أكثر ما ساقوا من قصص أفراد حاولوا اختراق الأرض الجرداء . . فوثبت بهم أسراب الشياطين الحمراء

ذات القرون ، وألقت بهم خارج حدودها بعد أن شوت أجسادهم أحياء بالنار.
وبرغم كل ذلك . . ظل سابونيوما مصرا على حرث أرض الشيطان . .

وفي الصباح . . انطلق الفلاح المغامر تاركاً داره ، وعلى كتفه فأسه ، مخترقاً شوارع
امسالاً في الطريق إلى الأرض التي أكد له السحرة أنها ملعونة منذ القدم . . ولكنه قبل
أن يذهب إليها كان قد أكد لامرأته أنه قد اقتنع بنصائح السحرة ، وأنه لن يذهب إلى
الأرض الملعونة . . بل سينطلق إلى المدينة في بعض الشؤون . .

ووقف سابونيوما على حدود أرض الشيطان ، وملاؤه الرهبة . غير أنه لم يهتم للعرشة
التي أخذت به . . وأسرع فوضع قدمه داخل الأرض وهو يقول :

- أبداً لن أتوقف عن العمل بسبب تلك الأقاصيص السخيفة . . ومع هذا فهأنذا
قد اخترقت الأرض ولا أرى ظلاً لشيطان . . ألا ما أحققها من خرافات . . !

وبضربة واحدة من فأسه شق سابونيوما الأرض . . وعينه تدوران في كل مكان حوله
خشية أن يظهر الشيطان . ومع كل ضربة فأس كان سابونيوما يتوقف بضغ لحظات . .
غير أن شيئاً لم يحدث قط . . وما كان هناك ما يدل على وجود أحد في ذلك المكان
الواسع الكبير . .

واطمأن سابونيوما . وبلغت به الثقة حداً راح معه يصفر ويغنى . . بينما الفأس ينزل
ضرباته الجديدة تشق الأرض وتعددها لإلقاء البذور.

وإذ غابت الشمس ، واختفت وراء الأفق ، جلس سابونيوما تحت ظل شجرة برية
فوق حجر كبير يشرف على الحقل كله . . وراح يتأمل في سرور وقد بدا له أنه قد أصبح
صاحبه الوحيد . .

وفجأة انتبه إلى صوت رقيق ينطلق غير بعيد منه ويقول :

- مرحى ياسابونيوما مرحى . . يا أذكى رجال القرية . . يامن سخرت بكل خرافات
السحرة وكنت وحدك على صواب . إنهم يقولون عني إنني شيطان فهل يدل صوتي
الضعيف الرقيق على أنني كذلك ؟ .

وراح سابونيوما يطل حوله في فزع كبير . فما وجد أحداً قط ، ولا استطاع أن يجدد
المكان الذي ينطلق منه الصوت .

وعاد يسمع من جديد :

- لكم يؤسفني أنني لا أستطيع أن أكون مرئياً لك . . إذن لرأيت أنني صغير جداً . .

أكاد لا أبلغ قدر ركبتيك طولاً . . ولوجدت أن رأسى خالٍ من قرون الشياطين . إن جسدى شفاف ياسابونيوما . . ولكنك تستطيع أن تحدد مكانى إذا نظرت إلى ذلك الغصن القريب ، فستراه يتمايل تحت وطأتى كأنها يداعبه النسيم . إننى أجلس فوقه الآن ، وأتخذ منه أرجوحة صغيرة . . فهل ترانى بعد ذلك ماردا عملاقا كما يتصورون؟

وكان الروع قد بدأ يزول من قلب سابونيوما . . خاصة عندما أطل إلى الغصن الصغير فإذا به يتمايل فى رقة توحى بأن ما فوقه ليس شيئا مخيف . وزاده اطمئنانا أن صوت الكائن الخفى كان ضئيلا ضعيفا يؤكد خروجه من جسم ضئيل ضعيف .

وهنا انطلق صوت سابونيوما يسأل فى غير خوف :

- ومن أنت إذن ؟

أجابه الصوت :

- أنا الجينارو . . صاحب الحقل الذى بدأت حرائته منذ ساعات . لقد رأيتك تشتغل طوال اليوم بقوة ونشاط حتى لقد ثارت بى الرغبة فى مساعدتك ، وزادت بى الرغبة عندما وجدتك شجاعا تزدري تهديد السحرة وتسخر من خرافاتهم . . فشعرت أنك نعم الصديق ، وقررت أن أصنع لك من هذه الأرض البور حقلا جميلا مثمرا ، تستطيع من ورائه أن تكون أغنى الأثرياء . . !

وقال سابونيوما :

- وكيف تستطيع مساعدتى فى زرع هذه الأرض ، وأنت كما تقول صغير ضئيل . . لا تملك من القوة ما يجعلك تحمل الفأس لتضرب وتحرق ذلك الطين الكثير؟

أجابه الجينارو:

- اطمئن أيها الصديق ، فما كنت لأستعمل فؤوسك وأدواتك الثقيلة قط . ولكنى سأدعو أصدقائى الكثيرين الذين يلعبون الآن فى الغابات ، فيأتون سراعا ، ويستخدمون فى حرث الأرض تلك الحجارة الكثيرة المسطحة الملقاة هنا وهناك . . !

وفتح سابونيوما عينيه دهشة ، بينما أطلق الجينارو نداء غريبا حادا يشبه صفير الريح ، لم يكد ينطلق حتى اهتزت الأرض البور من تحته وأمامه . . وإذا الحجارة ترتفع وتنخفض وحدها تشق الطين وتحرقه فى براعة وإتقان . . !

وبدا لسابونيوما كأنها يسمع أصواتا ضئيلة مبهمة لعلها لهشات الفعلة الصغار وهم يعملون . وصاح الفلاح حائرا:

- أين أنت يا جينارو؟ إن مشهد الأرض وهى تتحرك ليذهلنى ويدهشنى ويجعلنى أتمنى أن أراك .

وأجابه الجينارو :

- هأنذا واقف إلى جوارك انضح عرقا ، كما ينضح كل من حولى الآن من الأصدقاء الأعزاء . ولكننا مع ذلك سنظل نعمل طوال الليل ، حتى إذا ما بزغ الصباح ، رأيت الأرض محروثة معدة . . ولعلك حينذاك تصفق طربا لأنك لم تخش الشيطان الذى هدذك به الأغوار والجهلاء من سحرة قرينك . . !

أجاب سابونيوما فى سرور :

- أجل . . أجل يا صديقى العزيز . . لكم أرقص طربا إذ أراك تمد لى يد العون وتحث الأرض بكل هذا النشاط وتلك القدرة . ولكن خبرنى . . لماذا تركتها بورا وأنت تحسن وأصدقاءك مثل هذا العمل العجيب . . ؟

أجابه الجينارو :

- نحن لانتحتاج إلى الثمار والخضرة كما تحتاجون إليها أيها الإنس . فقوام حياتنا الهواء الذى جعل أجسادنا شفاقة كما ترى . ونحن مع هذا لانحب العمل ، بل اشتغلت أنا وصحبى من أجل أن نسرك أنت وحدك . وإننا لنعاهدك أن نستمر فى مساعدتك فى كل المناسبات . . وما عليك سوى أن تبدأ بما تريد ، نجد الجميع يكررون ما تفعل ويقلدونك . . وإذا العمل كله ينتهى فى لحظات قصار . . !

فانتصب سابونيوما قائلا :

- شكرا جزيلا يا صديقى الجينارو . وإنى لأقسم أن أستمّر صديقا لك مدى الحياة .

أجاب الجينارو :

- ضع إذن يدك فى يدى ، ولنقسم معا على الوفاء . . !
وشعر سابونيوما بما يشبه اليد تصافحه وتهز كفه . وأحس رعشة . . غير أنه امتلا فرحا وهو يجد نفسه فى الطريق السريع إلى ثراء كبير . .
وانطلق سابونيوما إلى بيته ليعود مع الصباح . وعندما عاد كان الحقل كله قد تم حرثه . وسمع صوت الجينارو يحدثه :

- هل أنت مسرور الآن يا سابونيوما؟ ها نحن قد أتممنا الحرث ، ولو كنت قلت لنا ماذا نفعل بعد ذلك ، أو لو أنك بدأت بما تريد أن تفعل لحدونا حدوك ، ولوجدت العمل كله قد تم فى الحال على الشكل الذى تريد .

وازداد سابونيوما فرحا وإيمانا بالأصدقاء الذين يصنعون له كل شيء . ولم يكذ يشرع في جمع الحشائش التى ملأت الأرض ، ويكدها ليحرقها ، حتى تكاثرت الأكداس وتجمعت الحشائش وحدها من كل مكان في بضع لحظات . . . واشتعلت النيران فيها قوية متأججة . . !

وقال سابونيوما :

— لم يعد أمامنا الآن سوى تمهيد الأرض واستئصال الأعشاب لنلقى بعدها بذور الزرع .

وانحنى سابونيوما يستأصل العشب . وإذا ببقية الأعشاب تقتلع من كل مكان وتلقى في خارج الحقل الكبير .

وامتلا قلب سابونيوما فرحا . إنه لا يكاد يكلف نفسه سوى بدء العمل حتى يقلده الجميع ، فينتهى في لحظات .

وعاد سابونيوما إلى بيته وقد أصر على إخفاء السر حتى عن امرأته . وشهدت المرأة فرحته فسألته ، غير أن الرجل لم يجر جوابا قط ، ولم يذكر لها من أمر الحقل شيئا أبدا . . . وإن كان قد طمأنها إلى أنه سيأتيها ثراء كبير . . !

وعندما جاء الصبح ، عاد سابونيوما إلى الأرض وقد حمل فوق كتفه كيس ذرة . وإذا مديده ليشر البذور ، انطلقت الحبات كأنها ملايين الأكف تحملها وتشرها في كل ثلثة في الأرض المحروثة كالرذاذ .

وفي أقل من طرفة عين ، كان الكيس قد فرغ من الذرة . . وكانت الأرض قد امتلأت بالبذور .

وملأت الفرحة قلب سابونيوما ، وصفق للزراع الصغار . وفي الحال اقتدى به الجيناو وأصدقاؤه ، ودوى تصفيقهم في كل مكان من الحقل الفسيح . . !

وإذا عاد سابونيوما إلى بيته ذلك المساء ، أطلقت إليه امرأته وقد ازداد عجبها للفرح الذى يكاد ينطلق من عينيه . وراحت المرأة تغريه بالحديث وتسأله عما هناك . . غير أنه ظل صامتا لا يريد أن يجيب .

وانقضت عشرة أيام . .

وقال سابونيوما لامرأته في الصباح . .

— تعالى معى الآن لأريك شيئا يقنعك أننى كنت على حق حين بشرتك بالشراء الكبير . .

وانطلقت المرأة مع زوجها حتى توقفا عند حقل الجينارو. وكانت البذور قد بدأت تنبغ من الأرض زرعاً صغيراً ناشراً أوراقه الجميلة الخضراء . .

وهتفت المرأة :

- ما هذا يا سابونيوم؟

أجابها :

- هو عملي وعمل أصدقائي .

قالت له :

- أى أصدقاء تعنى؟

وراح سابونيوم يقص على امرأته كل الأمر . وعندما بدا له كأنها لم تقتنع ، دعا إليه الجينارو ، وطلب منه أن يطمئننها بصوته الصافي الرقيق .

وصرخت المرأة وهى تسد أذنيها عن سماع صوت الشيطان الخفى . وانطلقت تجرى فى رعب حتى بلغت القرية وهى لا تزال تصرخ وتسد أذنيها . وعندما أحاط بها الجيران يسألون عن سر رعبها ، راحت تقص عليهم الأمر وتحكى كيف أصبح زوجها صديقاً للشياطين . . !

وعاد الرجل إلى القرية . فلم يكذ يدخلها حتى وجد الناس يزورون عنه ويتبعون ويلقون عليه نظرات كلها الرعب والحذر ، ولم يهتم سابونيوم لأزدراء الناس . . بل إنه ما اهتم حتى بما تبديه زوجته ، وراح ينطلق مع صباح كل يوم إلى الحقل يرعى الزرع ويعد قنوات الري . . وينجز مع أصدقائه فى ساعة واحدة ما لم يكن من الممكن إنجازه فى أقل من أسابيع . .

وتتبع القرويون فى وجل يمتزج بالحسد . . نمو الزرع فى الحقل الكبير . .

وفجأة سقط سابونيوم فى داره طريح الحمى . فراح يصرخ ويبكى ، وقد أدرك أن الطيور ستتنقض على الحقل ، بينما الدرة تقترب من وقت الحصاد ، فلا تجد من يبعدها .

وفى خلال حزنه ونحيبه ، كان سابونيوم يقول :

- وا أسفاه . . ستتنقض الطيور على الزرع إذا لم أذد عنه بنفسى . . فيالشقوتى وبلواى !

وكانت امرأته تصغى إليه وهو يتحبب فتمتلى ألماً . غير أنها لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً ، ولا تريد أن تفكر قط فى حقل الشياطين .

غير أن الألم والحزن ازدادا بها مع طول مابكى وتألم ، فوجدت نفسها تنهض إلى زوجها وتقول له :

- كف عن البكاء الآن . . سأذهب بنفسى إلى الحقل وأبعد الطيور عن زرعك حتى تشفى . . !

وسر سابونيوما وقال لها :

- إنك لن تلقى كبير عناء هناك . فحين يراك الجينارو وأصدقائه ترجمين الطيور بالحجارة والطوب . . سيقلدونك هم أيضا ويقومون بالعمل خير قيام . أما أنا فلن أتركك وحدك . . بل سألحق بك حالما تزول عني الحمى . . !

وانطلقت المرأة إلى حقل الجينارو . فوجدت الطيور قد راحت تنقض على الزرع حتى لتكاد تقضى عليه .

وانحنت امرأة سابونيوما فتناولت قبضة من الحصى قذفت بها الطيور . . فولت الأدبار . .

وسمعت المرأة صوتا يحدثها :

- اطمئنى أيتها المرأة . . فسوف نساعدك ونقذف الطيور بالحصى كما تفعلين . . !

وارتعشت المرأة وهى تستمع إلى صوت الشيطان . وحين بدأت تتراجع لتجربى ، لمحت أسرابا أخرى من الطيور تنقض على الزرع فتوقفت ، وانحنت من جديد تتناول قبضة من الحصى لتقذف بها الطيور .

ولم تكد المرأة تفعل حتى وجدت الحصى يرتفع من كل مكان ، وتقذفه أياد خفية على الطيور المنقضة فتنتطلق بعيدا هاربة . .

وظلت غارات الطيور تتوالى . . ويتوالى معها قذف الأحجار والحصى لإبعادها عن الحقل . .

وراحت المرأة تتطلع إلى ذلك المشهد الغريب . . وقد ملأها الاطمئنان . وكلما لمحت سرب طير آخر انحنت تلتقط الحصى وتلقيه . . فتتبعها الأيدي الخفية في نشاط كبير عجيب . .

وانقضت ساعتان ، كانت الطيور خلالها قد توقفت عن الإغارة على الحقل . . وأحست المرأة عطشا وجوعا جعلها تفكر في قطع إحدى سيقان الدرة تمتص لبابها وتستعيد بعض قواها . .

ومدت المرأة يدها فكسرت ساقا، وقربته من شفيتها . .
 ولم تكذب تفعل، حتى تكسرت كل أعواد الذرة التى تملأ الحقل، وكان منجلا جبارا
 قد قطعها بضربة قوية واحدة .
 وصرخت المرأة وهى ترى الحقل كله قد تحول إلى أكوام من أعواد الذرة المقطوعة .
 بينما كان سابونيومما فى طريقه إلى الحقل بعد أن زالت الحمى عنه .
 ووقف سابونيومما يطل فى ذهول إلى زرع الذى تحول إلى أكوام من الحطب
 الأخضر . . وصرخ فى امرأته :
 - ما الذى حدث أيتها المرأة ؟
 وركعت المرأة أمام زوجها وهى تبكى وتحيب :
 - لقد صنعت كل ما بوسعى لأحمى الذرة من الطيور . ولكنى لا أدري كيف سقطت
 السيقان كلها من تلقاء نفسها . . إنه لاشك من عمل الشيطان .
 وزجر سابونيومما صارخا :
 - بل أنت هو الشيطان أيتها الملعونة . . أهكذا تبدين فى يوم واحد كل الثروة التى
 بذلت من أجلها كل جهدى وعرقى . . ؟ أيتها المرأة الشقية . . ماذا فعلت لتجلبى
 على هذا الخراب ؟
 وراح سابونيومما يضرب رأسه وكفيه ويكاد يجن . . ثم انقض على امرأته وصرخ :
 - أيتها الشقية . . كيف حدث هذا؟ تكلمى وإلا طردتك فى الحال من البيت ومن
 القرية . .
 وأجابت المرأة فى غضب :
 - تطردنى . . ؟ أهكذا يكون جزائى بعد طول ماعشت معك؟ ومع طول
 ماخدمتك؟ أطرردنى بسبب ساق من الذرة الحقية؟ ولكن لا . . إننى سأوفر عليك
 هذا العناء، فأعود إلى أهلى اليوم . . وسأجعل أبى يعيد لك البقرات التى أخذها مهرا
 منك . . فهى تلقى عنده على الأقل راحة وغذاء إثر عملها . . لاشتائم . . وإنها
 لتعامل لديه بأفضل مما عوملت به عندك !
 وصرخ سابونيومما :
 - أتشكين سوء المعاملة أيتها المرأة الملعونة؟ أنتظرين منى الشكر والثناء على النكبة
 التى لحقت بى . . ؟ خذى هذه الصفعة شكرا لك أيتها اللعينة . . !

وفى ثورة الغضب انقض كف سابونيوما فى صفعة قوية هائلة على خد المرأة التى راحت تبكى وتصرخ وتصيح . .

وفى تلك اللحظة ، سمع سابونيوما صوت الجينارو يقول :

- تشجع يا صديقى . . فنحن هنا لنساعدك دائما فى أى عمل تقوم به . . لا تكلف نفسك عناء ضرب امرأتك لأننا سنقلدك ونقوم عنك بهذه المهمة . إن واحدا منا لن يتوانى عن عمله . . ألا فاسمع صياحها . . هيا اضربوها وساعدوا صديقنا أيها الأصدقاء . . !!

وراح جسد المرأة يدور مع كل الجهات ، وصفعات قوية تنقض على وجهها من أيد خفية لاتيين . . ثم انطرحت على الأرض تصرخ وهى تدفع عن نفسها وإبل الصفعات الرهيبة الهائلة . .

ومرت بسابونيوما فترة من الدهول . . انحنى بعدها على امرأته يعينها على النهوض ، ويدفعها بشدة خارج الحقل . وما إن تجاوزت المرأة حدود الحقل حتى كفت الصفعات وتوقفت . وقال لها سابونيوما :

- أيتها المرأة . . لقد كان التأديب أشد قسوة مما أردت ، فلا تضرى لى حقدا وبغضا .

ولكن المرأة صاحت به :

- لن أغفر لك أبدا . . ألا ما كان أشد حمقى حين تבעتك من قبل ! ولكنك وقد فعلت بى ما فعلت من أجل ساق من الذرة . . لن ترانى بعد اليوم .

وانطلقت المرأة تجرى فى طريق القرية . . وقد وقف سابونيوما يفكر فيما قالت ؟ لقد قالت إن كل ذلك من أجل عود ذرة . . فكيف إذا تحطمت أعواد الذرة كلها ؟ وانتبه على صوت الجينارو إذ يقول له :

- إنها لعلى صواب . . فهى لم تقطع سوى ساق واحدة من الذرة .

فتمتم سابونيوما الذى بدأت الحقيقة تتكشف أمامه .

- لكن . . هذه السيقان الأخرى . . لماذا كسرت . . ؟

أجاب الجينارو بعجب :

- لقد قمنا نحن بذلك . . وأؤكد لك أن هذا العمل لم يستغرق وقتا طويلا ؟

وصرخ سابونيوما :

- ماذا ؟ أنت . . وأصدقاؤك ؟

أجاب الجينارو:

- نعم . . وإننا لمستعدون لتقديم كل خدمة لك وتنفيذ كل ما اتفقنا عليه من تقليدك ومتابعتك في كل ما تبدأ به . . لقد بدأت زوجتك بقطع ساق أذرة فقلدناها . وبذلنا كل ما بوسعنا لإنهاء العمل في لحظات . . وكان هذا شأننا أيضا حينما أدركننا ضرورة ضرب امرأتك . . !!

وصاح سابونيوما:

- الويل لي . . إننى لأشقى كل الرجال في امسال . . ! لقد صدق السحرة والشيخ حين قالوا إن هذا الحقل ملعون . . وملاعين هم الذين يقتربون منه . . .

وقال له الجينارو:

- ولكن ما الذى فعلناه فأثار غضبك؟

أجاب سابونيوما:

- لقد طردت امرأتى فجلبت على نفسى غضب كل ذوبيا . آه منك أيها الماكر الشرير جينارو الشيطان . ليتنى أستطيع أن أقبض عليك لحما ودم . . إذن لعلمتك كيف تساعد الناس عندما لا يكون ثمة داع للمساعدة . الويل لي يا جينارو . . والويل لك . . !

واستمر سابونيوما يصرخ ويكاد يبكى ويغمى عليه لشدة الغيظ . . وراح يضرب رأسه بيديه ويقتلع شعره . . ولم يكد يفعل حتى صرخ صرخة هائلة تنم عن ألم شديد هائل . . بينما كان رأسه قد أخذ يخلو من الشعر الذى راح يقتلع في سرعة وجفاء . .

وارتفع صوت الجينارو:

- أسرعوا أيها الأصدقاء . . اقتلعوا ما طاب لكم ولا تبقوا على شيء أبدا . لقد أقسمنا أن نخدمه ونساعده في كل ما يفعل لننتهى بسرعة كبيرة مما يبدأ هو فيه . . أسرعوا يا أصدقائي فقد نسيت شتائم سابونيوما ولا يمكن أن أنكث وعدا قطعتة على نفسى . . هيا ساعده معى على ضرب رأسه واقتلاع مابقى من شعره الغزير . . !

وراح سابونيوما يصرخ ويجرى . . حتى تجاوز حدود الأرض . . وعندئذ ملأت الجو ضحكات وقهقهات عالية قوية رنانة . . تجاوزت معها صرخات كل الشياطين . .

وحتى اليوم . . لا يزال الناس في قرية امسال، يشيرون في سخرية إلى منزل « الأقرع الملعون » . . أما أرض الجينارو . . فما تزال جرداء شاسعة، تغطيها أعواد حطب قديم . . !

أسطورة إفريقية المجزرة

حيوان البر والماء هم الأبطال دائما في أساطير الزنوج . . على ألسنتها وبأعمالها تنطلق حكم يتفق من ورائها كل الناس .

والغاية تضع القوى والضعيف دائما وجها لوجه . . سواء كان هذا خلال صيد أو بحث عن لقمة العيش . . . والضعيف الذى لا يعرف كيف ينتصر على القوى تشغل رأسه في كل وقت وسيلة البحث عن مخرب من مأزقه . . ليتخلص من سيطرة القوى وجبروته . . ومن هنا خرجت هذه الأسطورة .

هناك . . في الساقية قرب الطاحونة . . . حيث الصخور الكبيرة تجعل الماء يجرى كالمخنوق في عنق زجاجة . . وضعت سمكة عملاقة عشاها ، واستقرت تحت صخرة ضخمة تقرب بعينيها اللامعتين مرور السمك الصغير، فتتلقفه بين فكيها ، وتبتلعه في أقل من طرفة عين . . !

ولعل النجاة كانت تبدو هينة للأسماك الصغيرة، إذا هى امتنعت عن المرور من الجدول إلى الساقية ، فتتفادى بذلك أن تكون طعاما للمجزرة . . إلا أن الأمر لم يكن سهلا كما يبدو ، ففي الطرف الآخر من الجدول ، حيث منعطف شديد الضيق ، أقامت سمكة ماردة متوحشة ، في عش صنعته من البوص والخيزران ، تروح وتغدو بين النهار والليل ، تطوح في أعماقها كل مايمر بالمكان من صغار السمك . . والهوام . . وتطفو أحيانا على سطح الماء فاغرة فمها ، فيظهر الموت بين فكيها الشرهين . . !

وهكذا لم يعد من الممكن للأسماك الصغيرة عبور الجدول إلى الساقية . . ولا الهبوط منه إلى التربة . . فهنا وهناك يتربص الموت . . والخوف يملأ كل نفوس الأسماك في الجدول الصغير . . خوف أشد قسوة من الموت نفسه . . !

وبدأ الغذاء يقل في المنطقة المحصورة من الجدول ، فالأسماك تتوالد وتزداد ، والطعام يقل ويفرغ ، والبطون تحوى وتثور ، والعيون تتحول من طول الجوع جامدة كالزجاج . . ! وكان لابد من الاستسلام للموت . . !

وتجمعت الأسماك تتشاور وتتساءل . . أى أنواع الموت أهون شرا . . وإلى أى ناحية من نواحي الجدول يكون اتجاهها . . ؟!

قالت أقدم الأسماك العارفة بأسرار الساقية :

— خير لى أن أموت جوعا فى الجدول ، من أن أسلم نفسى طعما فى فم أى من الوحشين الهائلين !

واتجهت الأسماك إلى « الحنكليس » . . أدق الأسماك جسدا وأبرعها انسلا لا وأخفها حركة . . .

وسألته الأسماك :

— ما الذى نستطيع أن نفعل ياسيدنا الحنكليس ؟

— ليس هناك أمل ياسادة . . فالغذاء يتناقص ويختفى . . والوحشان لا يكتفیان بأكل مايمر من الأسماك ، بل يبتلعان أيضا كل ما يحمل الماء من أنواع الغذاء والهوام والحشرات التى نقتات بها .

قالت الأسماك :

— ولكن ما الذى يجب أن نفعله ؟

أجاب الحنكليس :

— إنه ليدولى أن التضحية بعدد منا خير لنا من التضحية بالجميع . والرأى عندى أن نفكر فى الرحيل الشامل مجتمعين فنجتاز أحد الجانبين . . وعندما يفاجا الوحش بجموعنا الهائلة فلن يستطيع مها فاعل أن يفترسنا جميعا . . بل سيبتلع البعض بينما يسرع الباقون فى طريق الهرب . . .

وتبادلت الأسماك كلها النظرات . . . وارتفعت همهمة الرفض . . !

وعاد الحنكليس يقول :

— إذا لم توافقوا على تلك الخطة فليس أمامنا إلا البقاء كما نحن . . فإذا لم نموت جوعا ، فأنا أعلم أن كلا الوحشين يتربص للآخر . . فعلاقة الطاحونة ووحش الخيزران يتباريان هولا ونها ، وكل منهما يضمم للآخر الشر ، ويريد أن يتتهدز الفرصة ليخدعه ، ويقترب من مكانه ويفترسه . وعندما يحدث ذلك سيكتسح الوحش أمامه كل من ظل على قيد الحياة ، ويبتلعنا من أجل أن يمتلئ قوة تمنحه القدرة على مغالبة منافسه !

وقالت الأسماك :

- إذا بقينا كما نحن يوما آخر فسنختنق . . . وغدا يفقس البيض الذى وضعناه ،
وتخرج فراخنا فلأى أين تذهب ؟ وكيف تستطيع أن تحصل على الغذاء ؟ إنها ستموت كما
نموت نحن أيضا قبل أن تبدأ المعركة بين الوحشين . وإنا إذن لمن الهالكين . . !
وسكت الجميع . . وراح الحنكليس يفكر . . وفجأة برقت عيناه وهتف :
- استمعوا لى . . لقد خطرت ببالى فكرة تنجينا من المأزق دون أن نفقد كثيرا من
الضحايا .

واجتمعت الأسماك من جديد والتفت حول زعيم الجدول وهتفت :
- ماهى الفكرة ؟ دلنا على الوسيلة .

قال الزعيم :

- إن خطورتها ستصيب واحدا منا فقط . . هو الذى يقبل أن يكون له فخر القيام
بها ، والتضحية بنفسه قربانا للآخرين .
وسكت الجميع . . فلم يكن هناك أحد يريد أن يسلم نفسه للموت . . من أجل
شرف التضحية .

وخرج صوت رفيع من بين الأسماك :

- إنك أنت وحدك يازعيم تملك أن تنال هذا المجد . فأنت قائدنا وزعيمنا . . ومن
العدل - إذا كان فى المخاطر مجد - أن يكون المجد لك . . !
وصاحت الأسماك كلها :

- أجل . . أجل . . المجد لك يازعيم . . المجد لك . . !

وامتعض الحنكليس وقد أدرك أن زعامته ستكونه حياته . . لكنه عاد يفكر من
جديد ، وذكر أنه أسرع الجميع سباحة وأبرعهم انسلالا . . وهو لطول عهده بالجدول
يعرف جيدا كل حفرة وزواياه . وأى الأماكن فيه أكثر حظا للنجاة وأيها أكثر تعرضا
للخطر . .

وأطل أمامه إلى الأسماك الصغيرة ، فوجدها لاتزال ترتعد فزعا ورعبا ، فأشفق
عليها ، وملأت حى الزعامة رأسه ، وقرر أن ينهض بالأعباء التى ألقتها على كاهله تلك
الزعامة .

وتكلم الحنكليلس فى صوت عميق :

- لنبدأ إذن .

واستعدت الأسماك جميعا لتأدية الدور الذى تؤمر به . وبدأ القائد يلقي أوامره :

- عليكم جميعا أن تزدحموا بشدة على الضفتين . . وعلى من يستطيع منكم القفز إلى الشط خارج الماء فليفعل عند أول إشارة أصدرها . . حتى نفسح ممرا واسعا وسط الجدول الصغير . . ابدءوا الآن . . وليحذر أى فرد منكم مخالفة أوامرى . . فنجاتكم جميعا رهن بالطاعة العمياء . . !

وانطلق الزعيم فى لحظة سابحا فى اتجاه الطاحونة ، وملاً القلق والرعب قلوب كل الأسماك فصاحت به :

- إلى أين تذهب يازعيم ؟ هل تريد أن تستدعى عملاقة الطاحونة للمبارزة . . ؟!

أجاب الزعيم :

- نعم . . !

قالت الأسماك :

- حذار يازعيم . . فماذا عسانا نفعل إذا فقدناك ؟!

ولم يجب الحنكليلس ، بل ظل فى انطلاقه مسرعا فى اتجاه عملاقة الطاحونة . وعندما بلغ المكان صاح بها :

- أيتها السمكة الجبارة . . يا أميرة الماء وسيدة الطاحونة ورببة الساقية . . إنى أحمل إليك تحديا من سلطان الخيزران . . !

وانتفضت السمكة العملاقة ، وانطلقت من عينيها شرارات الغضب ، وخرجت من تحت الصخرة تطل فى غيظ إلى الرسول الذى يحمل إليها تحدى سلطان الخيزران . وقالت له :

- من هذا الذى يجرؤ على أن يتحدانى ؟ وما الذى تعنيه بذلك ؟ ومن أنت ؟ تكلم فإن بطنى لحاو ، وإن بى لرغبة فى ازدراد ذلك الجرى . . وحامل رسالته . . ! !

وتظاهر الحنكليلس بالهدوء بينما هو يرتعد ، ويرقب فى حذر كل حركات العملاقة المتوحشة . وقال :

- أنا لا أمتنع عن التقدم إليك بنفسى لازدرادى . . غير أنى لا أنصحك أن تفعل . . فقد يكون لك شأن مع من هو أشد منك سلطانا وأعظم قدرا وأكثر

جبروتا . . إنه سلطان الخيزران الذى أرسلنى إليك سفيرا ولن يغفر لك الإهانة التى توجهينها إليه فى شخص رسوله الضعيف . . !

وازداد الغضب بعملاقة الطاحونة وانفجرت تقول :

- اخرس أيها الوقح . . اتقول لن يغفر لى؟ من هو هذا الذى يملك أن يغفر أو لا يغفر!؟ وهل أنا بحاجة إلى أن أستدر غفران ذلك الطاغية المزعوم؟ ذلك الدعى الذى تسميه سلطان الخيزران . . يا للسخرة . . سلطان الخيزران . . ! أظن نفسه سلطانا بينا أنا الملكة هنا . . وسيدة كل الأساك!؟

قال الحنكليل يستزيد إثارتها :

- معاذ الله . . ! كيف تكوينين ملكة المكان وسيدة الأساك كلها، وهو يؤكد أنه وحده صاحب السلطان المطلق على الجدول والساقية والخيزران جميعا . . !؟ لقد طالما سمعت منه أنك إذ تتمتعين بأن تكونى سيدة التيار حيث تقيمين، فما ذلك إلا لأنه هو صاحب السلطان . . قد منحك حتى الآن بعض الحرية . . وهو يملك أن يسحبها منك متى أرادا

وصرخت ملكة الطاحونة :

- القصاص القصاص . . ! إن هذا الزهو الذى يملأ صاحبك ليوجب منى أن أربيه وأرد له الصواب وأنزل به أشد العقاب . . !

وأجاب الحنكليل وهو يتحفز للهروب :

- العقاب . . !؟ إن العقاب سينزل بك وحدك . فقد رأيته قبل حضورى إلى هنا يستعد للقدوم إليك ليؤدبك تأديبا شديدا لينزل بك العقاب الدامى كما يقول . . لقد سمعته يهتف وهو يستعد للقضاء عليك بأنه سيتخلص منك ليستطيع الحكم وحده فى هذه المملكة بموجب الحق الذى أعطاه إياه « ويندى » . . والذى منحته إياه قوته وأهله وشرف سلالته وأجداده . . !

وقهقهت ملكة الطاحونة فى سخرية صاحبة وهى تقول :

- إذن فسأنظره . . وسرى إذا كان الأمر كما زعمت وزعم صاحبك الأفاق . . ! إنى لأنتظره هنا فى شجاعة ولهفة واشتياق . . !

وبينما كانت ملكة الطاحونة تستعد للمعركة، كان الحنكليل قد انطلق كالسهم إلى الجهة المقابلة حيث يقيم وحش الخيزران . وصاح به وهو لا يزال يجرى متجها إليه :

- استعد يامسكين . فإن مولاتك قادمة لتنزل بك العقاب جزاء انتقاصك سلطانها ومحاولتك انتزاع قطعة من مملكتها والسيطرة على ذلك الجزء من جدوها . . ا

وبرقت عينا الوحش ، وضغط على فكيه بشكل مخيف وهو يقول :

- مولاتي ! وهل لى سيد هنا؟

أجاب الحنكليس :

- ملكة الساقية والجدول وصاحبة القصر المجاور للطاحونة . . لقد ملأها الغضب عندما عرفت أنك قد وضعت يدك على أطراف مملكتها ، وقررت أن تبرهن لك أنها السيد الأوحدهنا . . وقالت إنها ستقتلك إذا حاولت أن تزهو وعمدت إلى المقاومة . . ا

صرخ الوحش فى صخب :

- فلتأت مملكتك المزعومة . . فأنا لا أخشى أحدا . ولولا أنى أكلت منذ لحظات لابتلعتك لأريك وأرى سيدتك ماهى قيمة التهديدات التى ترسلها إلى والأوامر التى تلقيها على . . ا

قال الحنكليس :

- مسكين أنت . . إنى لأنصحك أن تنقذ نفسك وتبتعد عن المكان أو تختبئ فى الأعماق لعلك بذلك تشيها عن غضبها ورغبتها فى القضاء عليك . . ا

ووثب الوحش غاضبا يصرخ :

- أختبئ . . أختبئ . . أختبئ . . أجل سأختبئ . . ولكن فى الجحر الذى تقيم فيه مملكتك المزعومة لتعلم أن الموت جزاء من يدعى الملك سوى . . ا

وقبل أن يبدأ الوحش اختراقه للماء ، كان الحنكليس قد أسرع إلى أفراد شعبه من السمك الصغير وأصدر أوامره فى سرعة بالابتعاد عن الطريق والاختباء فى الزوايا وبين الأعشاب ، والاستلقاء على جانب الجدول لمن استطاع . . .

واقترب وحش الخيزران ، بينما اقتربت ملكة الطاحونة . . . ونشبت المعركة دامية عنيفة وسط الجدول الذى أخلته الأسماك فى لحظات لتفسح الميدان للصراع الجبار . . .

وظل الحصان يسبحان وينفخان فى الماء ، ويضربان بذنبيهما العريضين ويمراوح زعانفهما . والعيون منهما تندلع شررا ونارا ، وكل منهما فاغر شذقه ليبتلع غريمه إذا استطاع . . .

وبين الضرب والعض تطايرت القروش وتمزقت الزعانف واصطبغت مياه الجدول بالدم . . .

وأطل الحنكليلس يتابع المعركة . . لقد صدق سلطان الخيزران إذ كان أقوى من ملكة الطاحونة . . فقد حاول الوحش أن يبتلعها آخر الأمر . . ودخل أغلب جسدها العملاق في حلقومه . . وإن لم يستطع ازدراده . . !

وفتح الحنكليلس عينيه في دهشة وتبعته كل الأسماك . . .

لقد هدأت المعركة فجأة . . وكان وحش الخيزران يلهث ويثب وثبات تضعف وتختلج شيئاً فشيئاً . . بينما جسد عملاقة الساقية يهدم ويسكن إذ رأسها كله في حلقوم الوحش . . .

وفي لحظة . . سكن كل شيء . . وطففت على سطح الماء كتلة سوداء يدفعها التيار . . .

لقد مات الغالب مخنوقاً بجثة المغلوب . . . !

أسطورة إفريقية الفرس العجوز

في أعماق أفريقيا . . كان الزنوج يحيون حياة بدائية تتفق مع بيئة الغابات والأحراش التي تحيط بهم من كل جانب . ومن هنا فاضت أساطيرهم بأخبار الجن والسحرة والمشعوذين . . واتخذوا من الحيوانات والوحوش أبطالاً حقيقيين لأغلب ما اخترعوا من أساطير . .

ولعل هذه الأسطورة التي جمعت بين السحرة والجن والشياطين . . كما جمعت بين ملوك الإنس وملوك الغاب . . تعد أبرز أساطير الزنوج وأصدقها في تصوير الحياة التي كانوا يعيشونها . .

ضاق ملك الثعابين ذات يوم بحياة الغابة . . وأخذت به رغبة طاغية في الزواج من إحدى بنات البشر . وكان يستطيع الذهاب إلى المدينة والزواج من أى فتاة يريد . . غير أنه كان يعتبر نفسه ملك الغابة كلها . . فأبى إلا أن يبحث عن أجمل الفتيات وأنضرنهن . . وإذا سأل عن العروس التي تتفق ورغبته . . عرف أن خير الفتيات هي الأميرة « فتيا » . . كبرى بنات ملك الغرب وأقربهن إلى قلبه الكبير . .

وقرر ملك الثعابين أن يستعمل القوة السحرية التي منحها له الإله « ويندى » للوصول إلى بغيته . واختفى تحت ظلال شجرة معينة يعرفها في الغاب ، وتلا الصيغة السحرية وهو يتتلع إحدى ورققات الشجرة ، فاستحال في الحال إلى أمير شاب جميل ، يرتدى أفخر الثياب ، وبالقرب منه جواد رائع وسيم . شىء واحد كان يستطيع أن يكشف حقيقة الأمير الشاب لأى امرئ له بعض الإلمام بالسحر . هو ذلك البريق العجيب الذى يشع من عيني الأمير الشاب . . فقد احتفظ بنظرات الثعبان . . كما احتفظ بأعمق غرائزه . .

وانطلق الأمير الشاب إلى القصر وهو يحدث نفسه بأن جماله ووسامته جديران بأن يسلبا عقل الأميرة حتى ولو كانت جامدة القلب عسيرة المنال . . .

غير أن « فتيا » لم تكن عسيرة المنال قط . . فطالما تمت أن تتزوج حتى تترك بلاط أبيها الذى يعامل بناته كأنهن سجينات بين حوائط القصر الذى لا يدخله شاب قط . ولذلك فإنها لم تكذب ترى الأمير حتى غمرتها السعادة ، وأحست كأن أحلامها قد بلغت

منتهاها . ولقد عرف الأمير كيف يستميل قلوب أهل القصر جميعا . . حتى الملك الذى
اشتهر بجفائه وغلظته . . عرف الأمير كيف يتكلم معه برزانة وجدّ . . جذباه إليه
وحبائه فيه . . فى حين كان مع الأميرة نفسها ، يرقص ويغنى ويهزل ، ويصنع كل
ما يستهوى قلوب الفتيات . . !

ورحبت « فتيا » بالزفاف إلى الأمير . وما اهتمت قط باعتراضات أمها التى أخذت
تحاول أن تقنعها بالتزوى فى قبول الزواج من أمير مجهول لايعرف أحد عن مملكته أى
شئ . . فقد كانت وسائل الإقناع التى أخذ يصبها فى أذنيها تطغى دائما على كل ما
تسوقه أمها من حجج . . . حتى تم الاحتفال بالزواج .

وبينا الأميرة تستعد للانطلاق مع زوجها إلى مملكته البعيدة . . دعته أمها إليها
وقبلتها . . ثم قالت لها :

- لكم تمنيت يا ابنتى ذلك اليوم . . غير أنى أعجب للأمير الذى يرفض أن يكون
بصحبتك أى فتاة من وصيفاتك أو ضابط من حراسك المخلصين . إنه يرفض أن
يصحبك أحد قط . . حتى الحلى والذهب والمال ، والقطعان الكثيرة التى أصبحت لك
يوم زفافك . . كل هذه الأشياء لايريد الأمير أن يأخذها ويقول إنك لن تكونى فى
حاجة إليها أبدا . .

وكان الملك قد جاء فى تلك اللحظة . . فأخذ يهدىء من روع زوجته وهو يقول :

- ليس للأمير حاجة بكل هذه الأشياء . . ففى مملكته أكثر مما نستطيع إعطاءها
وأفضل . . .

بيد أن الشك بدأ يتسرب إلى قلب فتيا . . واستبد بها قلق مجهول فأخذت تراجع
عقلها وعواطفها ، وتتمنى لو تستطيع أن تنكث العهد .

وبينا الدوامة تدور فى أعماقها ، دخل الأمير فى ضجة لم تترك لها مجالا للتفكير . . إذ
اندفع إليها فحملها بين ذراعيه ، وأبعدها فى سرعة غريبة عن أمها التى أسرعت
خلفها . . وأخذت تتوسل إلى الأمير أن يسمح لعروسه بأن تأخذ معها أى شئ يذكرها
بأهلها وبلادها . وعرض الملك أن يعطيها أحد جياده ليكون مطيتها فى السفر ، ويكون
مطية لها فى نزهاتها وصيدها عندما تبلغ بلاد زوجها الحبيب .

ولم يجد الأمير وسيلة لرفض الهدية . . وانطلقت الأميرة إلى الحظيرة تتخير جوادا من
بين الجياد الخمسين التى تعمرها .

كانت الجياد كلها جميلة رائعة . . وإذ حيرها الاختيار قررت أن تجرى قرعة بينها

جميعا . . فأمسكت بمخللة الذرة وأخذت تحركها يمينا ويسارا ، وقد قررت أن تختار أول من يتقدم من جياد الحظيرة . . .

ولم تكذ الأميرة تحرك المخلاة حتى انطلقت إليها فرس عجوز . . هى أم كل الجياد الخمسين . . . !

وهزت الأميرة كتفيها وقررت أن تعيد القرعة . . غير أن أمها اعترضتها وهى تقول :
- كلا يابتي . . إن الإله « ويندى » ليكره الإعادة . . وعليك أن تقبلنى ما قسم لك به . . .

قالت فتيا :

- ولكننا قبيحة المنظر تصطك ركبناها عند كل خطوة تخطوها . . وحتى فمها تنقصه الأسنان . . فلا تصلح أبدا أن تكون مطية ملكية . . .

قالت الأم :

- لا تغترى بالظواهر . وتأكدى أن القدر يحسن الاختيار . !

وأذعنت الأميرة . . وقبلت الفرس العجوز . . .

وكان وقت السفر قد حان . . واقتيدت الفرس بعد أن وضع عليها سرج من القطيفة الموشاة بالذهب ، واقترب الأمير ليساعد عروسه على الركوب .

وهنا . . فى تلك اللحظة بالذات . . أجفلت الفرس ونفرت نفورا شديدا كادت الأميرة معه أن تسقط على الأرض . . !

وملأ التشاؤم كل أهل القصر . . وأحس الأمير قلقا خفيا جعله يطلب استبدال الفرس . . غير أن الملكة التى كانت تكره التغيير ، أقنعتة بأن الفرس ظلت حيصة فى الحظيرة زمنا طويلا . . مما جعلها تجمع عند خروجها أول مرة بعد كل ذلك الزمن الطويل . . .

وركبت الأميرة فرسها . . وامتطى الأمير جواده ، وانطلقا معا فى سرعة مرعبة . . . كإعصار يتوارى فى غياهب المجهول . . .

وظل الأمير وعروسه ينهبان الأرض طيلة اليوم . . حتى بلغا آخر الأمر حدود الغاب الكبير الذى يبدو من مملكة الجنوب خطا قائما فى الأفق لاحد له . وطلب الأمير من عروسه أن تنتظره حتى يعود . . ثم انطلق بين الأشجار لينفرد بنفسه ويتلو الصيغة السحرية ، ويعود سيرته الأولى . . ثعبانا هائلا كالفيل . . !

وشعرت «فتيا» فجأة بالفرس ترتعش تحتها . فربتت بكفها فى حنو على رقبته وهى تقول وكأنها تخاطبها :

- ماذا دهالك أيتها الفرس العزيزة . . ؟ إنك تنضحين عرقا باردا غزيرا . فهل يكون طول الطريق قد أعياك وأجهدك ؟ ومع ذلك فما أسعدنى باصطحابك . . فقد بذلت من الجهد خلال ذلك الطريق الطويل مالم أكن أتصور أن تبدليه . . ولقد غرتنى الظواهر من قبل حتى ظننتك تعجزين عن المسير . ! ألا ما كان أصدق أمى وهى تطلب منى ألا أغتر بالظواهر . . !

وفوجئت الأميرة بالفرس العجوز تجهيها فى صوت رقيق حزين :

- إن هذا مع الأسف ما صنعتته وتصنيعته الآن إذ تسيرين مع ذلك الأمير . ! لقد خدعك بمظهره فلم تعرفى أيتها المسكينة أنك تزوجت وحشا ضاريا . إنه ثعبان ضخم . . تنين هائل . . استطاع بمهارته السحرية أن يتحول بشرا ليخدعك فتتزوجيه !

وندت عن الأميرة صرخة هائلة يملؤها الرعب . . وهتفت :

- ثعبان . . تنين . . ماذا تقولين . . ؟ !

وهزت الفرس رأسها وهى تقول :

- أجل يا ابتى . . لقد وقعت فى شرك مجرم محتال لن يرحمك أبدا . . !

وهتفت الفتاة :

- كيف السبيل الآن إلى الفرار والعودة إلى أهلى . . رحماك أيتها الفرس الصالحة . . أعيدنى إلى قصر أبى بأسرع مما يبرق البرق قبل أن يعود التنين فيجرى بى إلى أعماق الغاب . . .

وانطلق من بين شفتى الفرس صوت ساخر :

- وكيف أستطيع أن أسرع بك وقد قلت عنى من قبل إننى قبيحة المنظر تصطك ركبته حتى لأعجز عن الجرى . . ؟ !

وبكت الأميرة وهى تتوسل وتستعطف وتقول :

- لا . لا تلومينى أيتها الفرس العزيزة .

وأشفقت الفرس العجوز على الأميرة الباكية . . واستعدت للهروب بها بعيدا عن موطن التنين . . غير أنها قبل أن تمضى طلبت من الأميرة أن تقبض بشدة على عُرْفها

فلا تتركه أبدا . . ونبهتها ألا تلتكز جنبها بالمهراز حتى ولو كان التنين بسبيل أن يلحق بها ، لأنها لو فعلت فستطير بها في الهواء إلى حيث المجهول . . !

وصرخت « فتيا » تستحثها :

ـ أسرعى إذن . . أسرعى . . إنه قادم . . هاهو ذا يقترب منا . . ألا تسمعين . . ؟ !

وكان الثعبان الهائل قد خرج في تلك اللحظة من بين شجرات الغاب يتلوى ويفح ويبسط حلقاته الجبارة على الأرض . وأسرعت الفرس تسابق الريح وحوافرها لا تكاد تمس الأرض . غير أن الثعبان كان أسرع من الفرس في اجتياز الحقول . . وكان لسانه يمتد في فحيح كالرعد . . وعيناه ترسلان الشرر وتومضان في غضب عنيف مجنون . . .

وصاحت « فتيا » وقد أذهلها الرعب :

ـ سيدركنا . . إنه يقترب منا . . !

ولم يكن لدى الفرس من الوقت ماتضيعة في تشجيع الأميرة الصغيرة . . بل أخذت تزيد من سرعتها وتجتاز من الطريق في ساعة ما يستغرق عدو يوم كامل . . وظلت منطلقة في سرعتها المذهلة حتى بدت لها من بعيد مملكة الغرب وراء نطاق من الظلال . وعرفت الأميرة أنه لم يعد أمامها للوصول أكثر من ساعة أو بعض ساعة . . .

وفجأة . . شعرت الأميرة بلفحة ساخنة كالنار فوق رأسها . . فقد كان التنين الهائل يتقدم في سرعة ويهبط فوق رأسها ليختطفها . وأحنت الأميرة المسكينة رأسها وهى تصرخ في رعب وفزع . وفي خلال الرعب نسيت نصيحة الفرس . . ولكرتها بالمهراز في جنبها بقسوة وعنق . . .

وأحدث صرير المهراز في جلد الفرس دويا يشبه قصف الرعد .

وفي لحظة . . كانت الفرس ترتفع في الهواء . . وتخترق السحب ، وكأنها تسبح في لجج من الأمواج .

وأغمى على « فتيا » . . فلم تحس الصدمة الهائلة التى اصطدمتها الفرس بالسما . . ولا بالهبوط السريع الذى هبطته نحو الأرض . . !

غير أنها عندما أفاقت . . وأطلت حولها . . لم تجد غير حقول خضراء واسعة تحيط بها من كل جانب ، لانتشبه من قريب أو بعيد بمملكة أبيها الحبيبة . ونظرت أمامها . . ولكن شيئا من سطوح العاصمة لم يبد لها قط . . فما كان هناك شيء مألوف يحيط بها على الإطلاق . . كل شيء بارد غريب . . غارق في المجهول . . .

وأحنت الأميرة رأسها تستنجد بفرسها العجوز . غير أن الفرس كانت هي الأخرى
قد انغرست بقوائمها الأربعة في الأرض لعنف الصدمة . . وكانت عيناها تنفشان
شررا . . ١

وخاطبتها الفرس وهي تقول في قسوة :

- لماذا فعلت ذلك . ١١ أما أنذرتك ألا تلكريني بالمهاز مها بلغ بك الأمر . ؟

وبكت الأميرة ، ولم تعرف كيف تجيب . . . واستمر بكاءها صاخبا هادرا حتى رق
لها قلب الفرس . . . واختفى من عينيها الشرر المجنون . . .

وأطلت الفرس في حزن إلى الأميرة الباكية وهي تقول :

- كفى عن البكاء الآن يا ابنتي . . فهو لن يجديك نفعا قط . . وأولى بك أن تنهض
فتنظري ما يحيط بنا . . لندرك أين نحن . . وكيف يمكن أن نعالج أمرنا . . .

وتنفست « فتيا » الصعداء . . وترجلت من فوق ظهر الفرس ، وراحت تخطو في
حذر وهي تطل أمامها . . ثم توقفت فجأة وقد رأت في مواجهتها بضعة أكواخ ضئيلة
قصيرة لانوافذ لها على الإطلاق .

وأخذت « فتيا » تجيل عينيها ، وتدير بصرها في كل مكان . . فأخذ بها العجب ألا
ترى أحدا من السكان . وازداد عجبها وارتعشت عندما سك أذنيها فجأة صوت رقيق
ضئيل يسأل :

- من هذا الذي هناك . . ١١

وأجابت « فتيا » في رجفتها . . وهي تحاول معرفة مصدر الصوت :

- أنا أميرة تائهة في ذلك المجهول بعيدا عن بلدي وأهلي . . أطلب مأوى وغذاء لي
ولرفيقتي العجوز .

وسمعت الصوت يقول :

- ومن هي رفيقتك تلك ؟

أجابت فتيا :

- هي فرسي . . أرادت أن تنقذني من بلاء أحاط بي . . فحملتني إلى هذا المكان .

قال الصوت :

- كان أولى بها ألا تأتي بك إلى هنا . . فحاكم هذا البلد ملك يخشى النساء

ويكرههن . . ويأمر بقتل كل أجنبية تطأ أرضه . . وأنت بمجيئك هنا إنما تتعرضين لموت محقق رهيب . . .

وصرخت الأميرة شاحبة :

- موت . . موت . . أين يمكن إذن أن اختبئ . . أواه . . ماذا جئت أبتغى في هذا المكان . . ؟

وفي هذه اللحظة سمعت صهيل الفرس ، فانتبهت وسمعتها تسألها عمن تحدثها فقالت :

- لست أدري . . إننى أسمع صوتا ولا أرى أحدا . . تعالى أيتها الفرس نخرج من تلك الأدغال المخيفة هاربين من المصير المجهول .
وأجابتها الفرس :

- إننى لا أستطيع حراكا كما تعلمين . . لقد غرقت في الأرض بقوى السحر، ولن أستطيع الآن التخلص منه . إن لكزة مهمالك أثارت في جسدى قوة مجهولة وساقتنى إلى حيث لا أدري . . وكل ما أعرفه هو أنه يجب لكى يفك أسارى وأبرح هذه الأرض . . .
فقاطعتها الأميرة قائلة :

- قولى ماذا يجب أن أفعل لأمنع أذى السحر الذى شل حركتك . . لقد أحسنت إلى فيما مضى ، فلسوف أبذل حياتى لأعيد إليك حريتك .
وقالت الفرس في ببطء :

- لكى أفلت من السحر . . يجب ان تقتلى أمك . . !!
وشحب وجه « فتيا » . . ومضت بالاثنتين فترة من السكون المخيف قطعها الصوت الخافت الضئيل وهو يقول من جديد :

- لا تبكى أيتها الفتاة . . فنحن نستطيع أن نساعدك . . !
وتلفتت « فتيا » والفرس إلى مصدر الصوت . . لم يكن هناك شىء قط . . غير أن الفرس صاحت بعد لحظات :

- آه . . قد رأيتك . . إنك لست كبيرا . . هل أنت زعيم قومك . . ؟
- أجل .

- إذن فأنت تستطيع مساعدتى في حماية هذه الفتاة؟ فأنا الآن عاجزة عن الحركة بفعل السحر ولا أقوى على إرشادها إلى حيث الأمان . .

وأجاب الصوت :

- لقد فرغت من العمل بعد أن بنيت بيتى . . وسأرعى الفتاة وأتعهدا وأظل معها
فى كل خطواتها وأجيتك بأخبارها . . غير أن أول ما يجب أن تفعله هو أن تصبح
ذكرا . . !

وصاحت الفتاة وهى تحاول جاهدة العثور على محدثها :

- ذكر . . !؟ كيف يمكن أن يحدث هذا؟

قال الصوت :

- سأحضر لك ثوب فتى صنعناه من أجلك منذ رأيناك تهبطين هذا المكان . إننى
هنا وإخوتى بناءون ماهرون . . فالديدان والعناكب والنمل تشتغل ماوسعها ، والشوب
على وشك الإنجاز . .

وما كاد المجهول ينتهى من كلامه حتى لمحت « فتيا » ثوبا من الأطلس الفاخر
يتقدم على الأرض فى بطء كبير . . وحملت الأميرة غير مصدقة فبدا لها كأن الأرض
تتحرك من تحت الشوب ، غير أن الأرض فى الحقيقة لم تكن تمشى . . بل كان هناك
جيش كثيف من النمل يحمل الشوب ويقرب به من الفتاة حتى استقر أمامها . .

وانحنى « فتيا » فارتدت الشوب . وبدت فيه شابا وسيما رائعا بارع القسمات .

وقالت الأميرة :

- كم أنا عاجزة عن شكركم جميعا أيها الديدان والعناكب والنمل . . ولكنى
لأستطيع الذهاب وصديقتى الفرس حبيسة هنا لاتعرف كيف تتحرك . . ولا تجد
مايقىها المطر والريح . .

وعاد الصوت يحدثها :

- لاتزعجى . . فسيعمل أصدقاؤنا على إقامة بيت حول صديقتك الفرس . . هيا
إلى العمل يا إخوتى . . !

وفى لحظات ، كانت الأرض تنشق وتفتتح وترتفع منها جنبات تحيط بالفرس حتى
أصبح حولها حائط دائرى متين .

وهتفت « فتيا » وهى تصفق فى مرح :

- عرفت من أنت . . أنت نملة كبيرة . . !

قالت النملة وهى تجثم على قدم الفتاة :

- أصبت . . وبها أننا قد اطمأننا إلى ملجأ الفرس . . فينبغى أن تمثل أمام الملك فى زى رجل ، لعلك تجدين وسيلة للعودة إلى الوطن .

وعانقت « فتيا » صديقتها الفرس . . وتعلقت النملة بحذاء الفتاة ، وانطلقتا معا فى الطريق إلى قصر الملك . . .

ولم يكن الطريق سهلا . ولعل ما زاد من صعوبته لدى « فتيا » أن هياكل عظمية كثيرة كانت مبعثرة هنا وهناك ، تحكى كيف بذلت النساء الأجنبية حياتهن مقابل سفرهن المشئوم .

وبلغت « فتيا » القصر . وأحاط بها الحراس وراحوا يرهقونها بالأسئلة . . بيد أن النملة هيات لفتيا الأجوبة المناسبة لأسئلتهم فى كل مرة ، فكانت تلقيها إليهم فى براعة وثقة واتزان . . .

وقادوها - وهى فى ثوب الأمير - لتقف بين يدى الملك . . .

وكان الملك رجلا ضخما كعملاق . . صاحب الصوت ، قاسى القلب ، قال لها وهو يضع يده فوق كتفها :

- من حسن طالعك أيها الفتى الغريب أنك لست امرأة . . فأهلا بك فى مملكتى . . ولكن . . ما الذى جاء بك هنا ؟!

وبدأت الأميرة ، وقد أكسبت صوتها خشونة الرجال ، تلفق قصة طويلة حول الصيد ، وضلال الطريق . ولكن الملك لم يكده يعرف أن « الأمير » يتقن الصيد ، حتى ملأته الفرحة . . فقد كان يبحث عبثا عن رفيق لرحلات صيده . . فوجده فى ذلك الشاب الغريب . . وقرر أن يجعل إقامته فى بيت لا يفصله عن البلاط الملكى سوى باب قصير .

وكان البيت الذى أعد « للفتى » قريبا جدا من جناح الحريم ، حيث تعيش نسوة الملك وبناته فى حراسة « صوما » العجوز . . عمة الملك . .

وفى الحق ، أن « صوما » كانت أجدر النساء بمنصب الحارس . . فقد كانت بالغة القبح والدماة . . لاتعرف من الحياة كلها سوى الفضول والحقد على الجميع . . .

وحذر ضباط الحرس ضيفهم الشاب من مخاصمة « صوما » . . حتى لاتسبب له المتاعب . وأحست النملة قلقا من هذا الجوار المخيف ، فنصحت « فتيا » بإغلاق

الباب الذى يطل على جناح الحريم جيدا ، حتى تذهب هى إلى الفرس وتسألها النصيح .

وعندما ذهب النملة كان الإعياء قد أخذ بفتيتها التى لم تكذب تستلقى على الفراش حتى نامت . . . ونسيت الباب مفتوحا . . .

ومضى الليل حتى انتصف . وفتح الباب فى بطء وهدوء . . . وبدأ فيه وجه العجوز « صوما » التى جاءت لتلصص على الشاب الصغير ، بعد أن غاظها اهتمام الملك به ، وقراره بأن يجعله رفيق صيده . . . وشىء آخر دفعها إلى الحضور . فقد أثار شكها صوت الفتى الرقيق . . . والخشونة التى تبدو غريبة مصطنعة . . . !

وانحنت « صوما » تحديق فى وجه « الفتى » مليا . . . كان الوجه جميلا بأهدابه الطويلة ولونه الأسمر . يثير الشك . وعادت « صوما » تتأمل الوجه جيدا . آه . . . إنه ليس شابا . . . بل امرأة فتانة تستتر فى ثوب شاب . . . !

وأعجبها الاكتشاف ، وقررت أن تلعب بالفتاة وتبعث ، حتى تكشف أمرها فى الوقت الذى يحلو لها . . .

وعادت النملة فى الوقت الذى كانت « صوما » تغادر فيه المكان . وأدركت أن العجوز قد اكتشفت السر . فازدادت قلقا ، واضطربت وأيقظت الأميرة لتقص عليها ما كان من أمر العجوز . . . وتنصحها بأن تنهض حالما يطلع النهار ، وتجتهد فى اكتساب صداقة الملك قبل أن تدير العجوز « صوما » رأسه . !

وانطلقت « فتية » إلى الملك فما تركته لحظة . وافتتن الملك بأحاديث « الفتى » ، وأخذته معه إلى الصيد حيث كاد الأمر أن يفتضح مرات . . . إذ لم تستطع احتمال الجهد الشاق ، والجرى وراء الغزلان . . .

ومع ذلك . . . فقد انقضى اليوم الأول بسلام . . .

وجاء يوم آخر . . . وكانت « صوما » قد انطلقت إلى الملك خلال الليل ، وراحت تقول له إن الفتى ضعيف شديد الحاجة إلى التقوية . . . ونصحته أن يزيد من أعبائه ، وأن يعوده على الأعمال الشاقة ، ليصبح رجلا قويا رائعا . وشىء آخر اقنعت الملك بأن يفعله . . . هو أن يأمر الشاب بالاستحمام الكثير فى النهر . . . والتدرب على المصارعة مع أتراكه من الشبان . . . ؟ !

وقد احتملت الفتاة كل المتاعب . . . وإن كادت تفتضح مرات خلال المصارعة ، والاستحمام فى النهر . . .

ومضى ذلك اليوم أيضا . . .

غير أن الفتاة لم تدر أنها كادت تنكشف تماما آخر اليوم . فعندما استأذنت الملك في الانصراف . افترت شفتا العجوز « صوما » عن ابتسامة ساخرة وهى تهتف بالملك ألا يأذن للفتى . . وكاد السر أن ينطلق من بين شفتيها . . لولا أنها عادت فكتمت الأمر قبل أن يغادر فمها . . لتبقيه إلى فرصة أخرى خطرت ببالها . . .

وأسرعت « فتية » عندما أذن لها الملك ، ودخلت غرفتها وأغلقت من خلفها الباب . ولم تكذب تستند إليه في راحة ورضا حتى وجدت العجوز تتوسط الغرفة . . .

وغمرها رعب هائل . . . وبدأت العجوز تتكلم . . .

قالت صوما :

- لقد جئت لأهنتك . . فقد استطعت أن اقنع الملك بمصاهرتك . . واتفقنا على أن يزوجك كبرى بناته . . وأن يجعل لك ولاية العهد . . !

وهبت الأميرة وغمغمت في ذهول :

- ولكنى . . .

وقاطعتها العجوز بابتسامة ساخرة كأنها الشيطان وقالت :

- أراك لا تشكرنى أيها الأمير العزيز . . بل تنظر إلى وكأننى رسول الشيطان . . أهكذا تقابل من يحمل إليك خبر المصاهرة التى تعتبر هدية رائعة لمثلك . . ؟ لقد أردت أن أخدمك . . لأننى أشعر نحوك بحب الأم . . وعليك أن تعتبرنى أمك حقا . . أيها الأمير . . ولاتنادنى إلا بيا أمى . . !

وانهارت فتية . . وأخذت العجوز الشيطانة تعدها بأن الغد سيكون أعظم أيام « الأمير الشاب » . . !

وما إن تركت « صوما » الأميرة . . . حتى انكببت هذه تبكى وقد فقدت كل قدرة على التفكير والإدراك . . .

وسمعت الفتاة صوت النملة تحدثها :

- لا تنزعجى . . فلا يزال أمامنا الوقت الذى تضيقه « صوما » في كتمان السر من أجل أن تجعل المفاجأة أكثر وقعا لدى الملك إرضاء لنفسها الشريرة . نامى الآن في هدوء . . . وثقى بى وبأصدقائى الذين يعملون من أجلك . . !

وجاء الغد يحمل أمرا من الملك « للأمير » بالمشول بين يديه . . وعندما وقف « الأمير » أمام الملك . . مد الملك يده إليه يباركه . . وينبئه باختياره وليا للعهد . . . وزوجا لكبرى بنات الملك . . . !

واضطربت فتيا . . غير أنها تماسكت وهى تحاول أن تخرج من بين شفيتها ما يعبر عن شكرها للملك . . أما هو فقد عزا ارتباكها إلى شدة الفرح . . . إذ « سيكون الأمير وليا للعهد » . . !

واقتربت العجوز صوما . . وأخذت بيد « الأمير » تقوده إلى حيث العروس . . وأطلت « فتيا » أمامها . . لقد كانت العروس قزما حذباء لا تختلف في شيء قط عن عمته العجوز . . حتى في سواد النفس . . !

وقتمت « فتيا » وهى تتراجع أمام « المخطوبة الرائعة » :

- ولكن . . ولكنى لأزال حدثا بعد . . !

وهتفت صوما :

- ستدرك أيها الأمير العزيز فن الزواج . . عندما يتم الزواج . . !

وانطلقت العجوز في قهقهة قوية صاحبة . وأخذت العروس تضحك هى الأخرى في سرور وفرح . فبدا « لفتيا » كأنها ضحكات الشياطين تخرج من فوهة الجحيم . . !

وفجأة . . صرخت العروس « روميرا » وسقطت على الأرض . . وبادر إليها الأطباء والسحرة لإنقاذها ، لكن بغير طائل ، فقد ماتت روميرا . . خنوقة . . !

وقال بعض من كان في القاعة إنهم رأوا نملة تخرج من فمها . . ووقعت على الأرض منسلة إلى حيث لا يدرون . . . غير أن الباقين نظروا إلى ذلك التعليل على أنه خرافة . . في حين قال الأطباء إن الأميرة روميرا ماتت من شدة الفرح . . !

وزفرت « فتيا » زفرة النجاة . . !

غير أن « صوما » انطلقت إلى الملك عندما لمحت بريق الفرح في عيني « الأمير » وهمست إليه :

- أيها الملك . . يا ابن أخى . . إن هذه إرادة الإله « ويندى » فلاتحزن . ولا ينسينك حزن الساعة عزمك على أن يكون صديقك الأمير وليا لعهدك . . فلتنتهز هذه الفرصة ونحتفل بزواجه من ابنتك الثانية « روهارا » . . .

وأحست « فتيا » كأنه الطوفان . . وبدت كمحكوم عليه بالموت يسمع قرار إعدامه . وانتهت خلال رعبها إلى صوت النملة تهمس إليها أن تتسلل قرب الباب . . فراحت تحرك خطواتها إلى الخلف في ببطء لا يكاد يستطيع ملاحظته أحد . . .

وسكتت « صوما » فجأة . . ورفعت سبابتها تأمر بالصمت ، وراحت تصغى إلى ضجة خفية أحدثتها أصوات كأنها مناشير دقيقة تقرض شيئاً غير معروف . . .

واستمرت « فتيا » تتراجع ناحية الباب في ببطء غير أنها اضطرت إلى التوقف عندما صرخ الملك وهو ينهض من مكانه ويهتف :

- إنه صوت إعصار . !

وقال آخر من الحاضرين :

- إنه الإله « ويندى » يريد شق الأرض . . !

وهتف ثالث :

- إنه « ويندى » يقتلع جميع الغابات من الناحية المقابلة للبحر العظيم .

وفجأة . . صرخت صوما :

- أوقفوا الشيطانة . . أوقفوها . . .

وأخذت تجرى وهى تمد يدها المعقوفة لتمسك بفتيا التى كانت فى تلك اللحظة تخطو الخطوة الأخيرة لاجتياز باب القاعة . . .

وفى تلك اللحظة نفسها . . صرخ الملك فى رعب . . كما صرخ كل الحاضرين فى القاعة . . فقد كانت القاعة كلها تنهار بالجميع . .

وبرغم ذلك . . وثبت « فتيا » إلى الخارج وراحت تجرى فى قوة وعنف . . والنملة تهديها إلى أسرع الطرق وأشدّها قصراً . . وتجتاز بها الحفر والتلال والقنوات . . وعندما ظنت « فتيا » أنها قد نجحت فى الهروب ، وكادت تقف لاهثة . . سمعت من ورائها صوتاً ساخراً يضحك ويقهقه . . لقد كانت صوما . . التى اجتازت الباب فى نفس اللحظة التى اجتازته فيها فتيا . . وقبل أن ينهار البلاط كله على من فيه ، إذ كانت النمل قد قرضت عمدة القاعة فى الوقت المناسب لبتاح للأميرة الهروب . . .

لم تهتم « صوما » بانهيار القاعة على من فيها . . إذ كان كل همها أن تنتقم من الفتاة الجميلة . . التى خدعت الجميع بمظهر الرجال . . .

واستمرت « صوما » تجرى خلفها وتصيح :

- لا تسرع يابنى فتدق عنقك . . لماذا تهرب منى أيها الشقى . . إننى أحبك كثيرا . .
ولو كنت أنا فتاة أيها الأمير الجميل لما زوجتك « روميرا » ولا « روهارا » . بل لأخذتك
لنفسى . . ألا تريد أن تسمع . . ؟ ألا تريد أن تشكرنى أيها الفتى الجميل . . ؟
توقف يابنى . . توقف . .

وكانت « فتيا » قد فقدت كل ما بها من قوة . . وبدأت تنهار . . ولم تعد تستطيع أن
تجربى بعد . . غير أن النملة راحت تشجعها وتثير فيها القوة وتهتف في أذننها أنه لم يعد
سوى خطوات لتصل إلى الفرس وتركبها وتطير . .

وعادت فتيا تستجمع ما بقى بها من قوة لتجربى . . . حتى بلغت آخر الأمر مرتبط
الفرس . . فقفزت فوقها . . وأمسكت بعزفها . . واستوت على سرجها في أمل . . .
وخوف . . !

ومع ذلك فقد كانت « صوما » العجوز لاتزال تركض وراءها ويدها المعقوفتان
مبسوطتان إلى الأمام . . . وصاحت بصوت حاد :

- أيتها الشياطين . . قفوها . . قفوا هذا الولد القاسى الهارب من أمه . . .
فقال « فتيا » وهى تهذى ذعرا :

- أمى . . أمى . . أمى . . أوه . . اقتليها أيتها النمل . . اقتلى أمى !

ولم تكذب « فتيا » تنتهى من كلماتها المدعورة . . حتى لمحت جسد العجوز يتساقط
وينهار على الأرض . . ومن حوله ملايين النمل تقرضها وتنهشها . . !
وبدأ الجسد يتلاشى شيئا فشيئا . . حتى اختفى . . !

وفى تلك اللحظة نفسها . . وجدت الفرس قوائمها ترتفع عن الأرض . . وبدأت
تطير . . في الهواء . . !

ولم يدر أحد كم من الزمن ظلت تطير . .

غير أن الناس - فى مملكة الغرب - ظلوا يتحدثون عن فتيا . . ابنة الملك . . التى
رفعها الإله « ويندى » إلى السماء وتزوجها . . ثم أعادها بعد أيام على ظهر فرس
عجوز . . ليجعل منها زوجة الإله على ظهر الأرض . . ؟ !

أسطورة إفريقية الـكـذاب

تصور أساطير الزنوج دائما ألوانا من المكر والدهاء والبراعة في التخلص من المآزق . . جبلتهم عليها مجاهل الغابات والأحراش التي تدفعهم إلى ابتكار السبل لاجتياز ما يواجههم خلال حياتهم من صعاب وعقبات . . ومع ذلك فلا تكاد أسطورة واحدة تخلو من القيم الأخلاقية التي تميز أسلوب الحياة كما يراه البيض من أسلوب الحياة الذي يراه السود . .

كان كل ماتركه وراءه عندما مات . . زوجته وابنه . . وحصانه الصغير . غير أن الحصان كان له شأن يفوق ما للزوجة والابن . . فهو يأكل ، وهما يجوعان . . وهو يسمن ، وهما يهزلان . ولم يكن أحد على ظهر الأرض مسئولاً عن الحالين . . فالعشب والأوراق والحشائش لا تشتري ولا تكلف سوى المضغ ، في حين أن الخبز يشترى ويباع . . والفقر يتحكم دائما في طريقة التعامل به في الحاليتين . . .

وقالت الأم لابنها الهزيل سامبا ذات يوم وهي تتأمل حصانها السمين :
- وماذا بعد يا ولدي؟ ما الذي يحل بنا إذا فقدنا ذلك الشيء العزيز . . ؟ بل ما الذي نجنيه من ورائه وهو لا يزال حدثا صغيرا بعد . . ؟!

وهز الفتى كتفيه وهو يفكر ثم قال :

- سينفعنا نفعاً كبيراً يا أمي . . وسيقدم لنا أجل الخدمات . . !

وهتفت الأم الجائعة :

- كيف يستطيع أن يخدمنا وهو عاجز عن أن يجر حتى عربة . . ؟!

قال الفتى :

- عندما يقول سامبا . . فكلامه صدق . وليس عليك الآن إلا أن تعطيني قطعة الذهب التي وصلتك من والديك لتصنعى منها قرطا . . أنا لن أبيعها بل سأعيدها إليك كما هي تماما . . . ولكنها ستكون قبل ذلك وسيأتي للحصول على الغنى والمال .
ووضعت الأم في يد ولدها قطعة الذهب . . وهي تستحلفه أن يحافظ عليها ويهتم بها . . فهي كل ثروتهما في ذلك العالم الكبير . . .

ونهض « سامبا » فوضع قطعة الذهب في جيبه . . وقاد حصانه إلى مكان في مدخل المدينة اعتاد الملك أن يجتازه خلال رحلة صيده كل يوم . وهناك ، ربط « سامبا » الحصان إلى وتد ، وراح يمسح جسده في اهتمام ، ويدلكه في عناية ، ويعمل المشط باحترام في عرقه وذنبه وركبتيه . . !

وخلال ذلك كله كانت نظراته لا ترتد عن الطريق قط . . حتى إذا ما ظهر موكب صيد الملك من بعيد ، ابتسم « سامبا » وهو يعتدل ، وراح يضاعف اهتمامه بالحصان ويصقل حوافره ، ويعامله كأحسن ما يعامل خير الجياد .

واقرب الملك وأطل نحوه . وعندما شهد ذلك الاهتمام توقف عنده وهو يقول :
- إن حصانك يلقي عناية عجيبة . . !

وأجاب « سامبا » وهو يصعد بصره في فرس الملك وكأنه يستصغر شأنه :
- إنه لأهل لذلك يا مولاي . . فان له لميزة تجعلني أرفض أن استبدل به خزائن الملك والعرش معا . . !

وحملق الملك في عجب إلى الفتى وقال :

- ماهى تلك الميزة العجيبة يا بنى ؟ !

- إن روثه من ذهب يا مولاي . . ! !

وغضب الملك وقد رآه يسخر منه . . غير أن الفتى أشار إلى كومة من الروث كان قد وضع فيها قطعة الذهب التي أخذها من أمه . . وقال :

- انظر بنفسك يا مولاي . . فهذا من روثه الآن . . ولا أظن الروث يخلو من الذهب وإن كان ذلك يتصل إلى حد كبير بالطعام الذى تناوله .

وأمر الملك عبيده بالبحث عن الذهب في روث الحصان . فلم تكد تمضى لحظة حتى مد أحد العبيد يده إلى الملك وبين أصابعه قطعة صغيرة من الذهب . .

قال سامبا مبتهجا :

- انظر أيها الملك . . ها هو ذا الذهب في روث حصانى . . !

وكان الملك قد تناول قطعة الذهب فتأملها ، ثم أخذ يعرضها على رجال بلاطه وقد آمن بصدق الفتى وقال له :

- أجل . . إنك لصادق . . وإنه لذهب خالص براق . . فبكم تبيعنى ذلك الحصان أيها الفتى . . ؟ !

وأحنى الفتى رأسه خاشعة وهو يقول :

- لا أستطيع أن أبيع أحدا أيها الملك . . فهو عزيز على . . ولكن . . ولكنى لا أستطيع أيضا أن أعصى أمرك يا مولاي . . فأنا أرضى ثمننا له عشرة ثيران وخمس بقرات . . . !

ولم يساوم الملك . . فقد كان كل همه أن يحصل على الحصان الذى يخرج من بطنه كنز الذهب .

وعندما عاد « سامبا » إلى بيته فى المساء ، كان يسوق أمامه خمس بقرات وعشرة ثيران . أما الملك . . فقد أمر بالحصان الثمين فأرسل إلى أجمل حظائره ، وقدم له خير الطعام ، وراح ينتظر فى شوق ولهفة قدوم الصباح . . .

ومع مطلع الشمس نهض الملك ليشهد بنفسه الذهب الذى فى روث الحصان . . ولكن العبيد لم يجدوا شيئا فى الروث على الإطلاق .

ولم يشك الملك فى الأمر . . فقد خطر له أن تغيير طعام الحصان جعل أمعاءه عاجزة عن الإتيان بالثمرة المرجوة إلا بعد أن تعتاده . . وقرر أن ينتظر أياما آخر . . . غير أن الأيام مرت ، ومن خلفها الأسابيع . . وروث المهر لا يتغير . . ولا يخرج منه الذهب . . !

واستبد الغضب بالملك . . وأمر بالقبض على « سامبا » وإحضاره بين يديه .

وأحس « سامبا » الخطر . . وقبل أن يمضى مع الجنود ، ذبح ثورا وأخذ دمه فوضعه فى كيس صغير من الجلد ، دفعه إلى أمه ، وطلب منها أن تعلقه على صدرها تحت الثياب . . وهمس فى أذنها بما تقوله وتفعله عندما تذهب معه وتمثل بين يدي الملك . . ! ووقف الفتى يرتعد والملك يصب عليه جام غضبه ، ويصفه بأنه كاذب شرير . .

واشتركت الأم فى لوم ولدها . . . وهى تقول :

- صدقت أيها الملك . . إن ولدى كاذب شرير لا يحترم أحدا . وهو جدير بأن يلقي فى سجن مظلم ، أو يسلم إلى الجلاد حتى يعرف أقدار الناس . . !

وصاح « سامبا » متظاهرا بالغضب :

- أهكذا تدافعين عن ابنك أيتها الأم الملعونة . !؟ إن لسانك لأحق بأن يقطع ويحرس حتى لا تطلبى لولدك الموت . .

وبكت الأم وهي تقول :

- أنا يقطع لساني أيها الولد . . . ؟ لقد فقت أباك الذى لم يستطع أن يلزمنى الصمت ويخرسنى . وتريد أنت أن تقطع لساني وتخرسنى . . . ؟ أواه أيها الملك . . . أرايت مدى الشر الذى تمتلىء به نفسه ؟

وضرب « سامبا » رأسه بيديه وكأنه عجز عن أن يملك نفسه وصرخ :
- اسكتى أيتها الشريرة . . . اتجربين على اتهام ابنك ومهاجمته . . . ؟ ألا فلتحل عليك اللعنة . . . !

قالت الأم وهي ترفع قبضتها مهددة :

- وعليك أولا ياسامبا . ليكن ملعونا ذلك اليوم الذى خرجت فيه من بطنى ورأيت النور . ليكن ملعونا ذلك اليوم الذى أرضعتك فيه ولم أخلص العالم من شرك . . . ألا ليتنى ما ولدتك وما أرضعتك . . . إذن لما شتمتنى وصرخت فى وجهى وطلبت أن تحل على اللعنة . . . !

وبدا على « سامبا » كأنه قد فقد زمام نفسه . . . وصرخ وهو ينقض على أمه شاهرا خنجره !

- فلتذهبى إلى جهنم يا مجرمة . . . !

وقبل أن يتمكن أحد من الاقتراب ، كان الفتى قد غرس خنجره فى صدر أمه . . . !
وانبثق الدم قانيا من صدر الأم . . . أو على الأصح من الكيس المملوء بالدم . . .
والذى شقه الفتى فى براعة وهو يبدو كأنه قد طعن أمه .

ولقد كانت الأم هى الأخرى بارعة . . . فقد أتقنت تمثيل الدور ، واستلقت على الأرض كجثة هامدة . . . والدم يغمر ثيابها ويسيل كأنه ينبثق من شريان . . . !
وصاح الملك فى غضب وذعر :

- سأقتلك أيها القاتل الشقى . . . يامن طفح كيل إجرامك حتى قتلت أمك . إن انتقامى سيحل بك مرتين . . . مرة للجرم الذى صنعت معى . . . ومرة للجرم الذى صنعت مع أمك . . . !

وأغمض « سامبا » عينيه ، ثم فتحهما وهو يبرز رأسه فى عنف وكأنه يوقظها من كابوس . وأطل أمامه وكأنه ينكر الجثة الملقاة تحت قدميه . . . ثم حلق فى الخنجر الذى لايزال يلوث يديه . . . ثم بدا كأنه قد أدرك أنه قتل أمه وهو غافل عن نفسه . . . وراح يبكى . . . !

وفجأة ، سكت سامبا . . ثم نظر إلى الملك في هدوء وقال :

- لا عليك أيها الملك . . ويجب ألا يحزنك الأمر . . ولتكف نفسك عناء الانتقام . .
فأنا أستطيع أن أجعل الجريمة كأنها ما وقعت قط . . إذ إننى أعرف سر إحياء الموتى . .
أصدر الأمر إلى حرسك أيها الملك أن يبعدوا أيديهم عنى . . ودعونى أعمل فى هدوء
وفق هواى . . وسترى أن هذه الجثة الهامدة أمامك سترتد إليها الحياة فى لحظات . . !

وفتح الملك عينيه فى ذهول . . فى حين راح الفتى يصرخ فى رجال البلاط :

- مالكم واجمون . . ؟! ائتونى بإناء ماء صاف . . وسترون كيف أعيد إليها
الحياة . . !

وأوما الملك إلى الحرس فأتوا إليه بإناء ماء . وحقق سامبا فى الإناء كأنه يتأكد من
صفائه ، ثم انتزع من تحت كفه ذيل الثور الذى ذبحه منذ ساعات ، وغمسه فى الماء
ثلاث مرات . . ثم نضح صدر الميتة ورأسها وقدميها . وهنا فقط تحرك الجسد الميت ،
وفتحت المرأة عينيهما وكأنها تفيق من نوم عميق . .

وأحاط الجميع بالمرأة ، وراحوا يتحسسونها بأيديهم ليستوثقوا من أنها حية حقا .
ودهش الملك وقال لسامبا :

- أعطنى ذيل الثور الذى تحبى به الموتى . . فأعفو عنك !

ولكن سامبا أجاب الملك :

- لا أستطيع التخلى عنه يا مولاي . . وما أغلى ثمنه ! ومع ذلك فأنا أخشى لو تخليت
لك عنه مقابل ثمن غال ، أن يفقد قيمته بين يديك كما فقد روث الحصان قيمته عندما
بعتك لإياه . . !

قال له الملك :

- لا شأن لك بذلك . . بعنى الذيل أعطك الثمن الذى تريد ، ولو كان قطيعا من
أربعائة ثور ومائتى بقرة . . !

وأحنى « سامبا » رأسه وقال فى استسلام :

- ليكن ماتريد يا مولاي . . إن ثمنه لا يقل عما عرضته . . فأصدر أمرك إلى عبيدك
بتسليمى القطيع أعطك الذيل العجيب . . !
وقمت الصفقة . . .

وبينما كان « سامبا » يسوق القطيع ومعه أمه إلى بيتها ، كان الملك قد بدأ يجرب سحر الذيل في إحياء الموتى .

أمر الملك أحد الضباط بالاقتراب منه ، ثم طعنه بسيفه في صدره تماماً كما طعن « سامبا » صدر أمه . وطلب إزاء به ماء صاف فأحضر إليه ، وغمس ذيل الثور في الماء ثلاث مرات ، ثم نضح به صدر الميت ورأسه وقدميه . . .

ولكن الحياة لم تعد إلى الجثة قط . .

وأمر الملك بطائفة من الأسرى يعيد عليها التجربة ، ولكن الأسرى المساكين لم يعودوا أبداً إلى الحياة . .

وجن جنون الملك . . وعرف أن « سامبا » قد سخر منه . . !

وأصدر أوامره بأن يساق الفتى الكذاب إليه ، بعد أن ينقض عليه الحرس ويضعوه في جلد ثور يحيطونه عليه بشدة . .

وعندما عاد الحراس إلى الملك وهم يحملون جلد الثور ، وبدخله الفتى يصرخ ، رفضه الملك برجله في جنبه وهو يقول :

— والآن لا عفو عنك أبداً . . وستعرف عندما تلقى في البحر أن الكذب لن يغنيك . . وعندما تتعلم وسيلة أخرى في العالم الآخر وتقتنها ، فعد إلينا لتعلمها منك !

وأمر الملك عبيده أن يحملوا الكيس ويلقوا به في البحر وهم في طريقهم إلى العمل .

وحمل العبيد الكيس الثقيل ومضوا ينفذون أمر الملك . . وبينما هم في الطريق ، والحمل ثقيل ، والشمس محرقة ، والجو لافح ، توقف أحد العبيد يمسح العرق ، واقترح على زملائه أن يضعوا الحمل الثقيل ويمضوا إلى العمل ، ثم يعودوا إليه وقد خفت الحرارة قبل الغروب ، فيلقوا به في البحر . .

وكان الجهد والحر قد أقنعا زملاءه قبل أن يحاول هو إقناعهم . . فوضعوا الكيس على حافة الطريق ومضوا إلى الحقل البعيد . . !

أما سامبا . . فبعد أن كاد يختنق داخل الكيس ، امتلأ من جديد أملاً في أن يعيش . فقد كان لا يزال أمامه وقت طويل يمتد حتى الغروب . . !

وراح « سامبا » يتسمع لعل أحدا يمر . . غير أن الوقت راح يمضي . . . ولا أحد يمر بالطريق قط . . !

وأخذت الشمس تميل نحو الغروب ، ولا أحد يقترب . . والأمل في قلب « سامبا » يتحول إلى يأس مرير .

وفجأة ، أصاخ « سامبا » السمع . . لقد كان هناك من يسير في الطريق ، بطيء الخطو يتمتم في تناقل .

ولقد كان على حق . فقد كان هناك عجوز زاهد يسير في الطريق يتمتم بصلواته ويتلوها في ببطء .

وبدأ « سامبا » يقوم بدوره . . وكان الدور يقضى أن يتصنع أصواتا كثيرة مختلفة . . تتشاجر وتتعارك .

وسكّت الأصوات سمع الشيخ فوقف ينصت . . ولا يدرى من أين تصدر الأصوات المتعاركة المتباينة .

- تعال معنا . . كيف تريد أن تهرب ؟

- لا . . لا آتى معكم . . اتركونى . .

- كيف لا تريد أن تذهب معنا . . إننا لانستطيع أن نذهب إلى الجنة بدونك . . ا

- ولكنى لا أريد أن أذهب معكم . . إن أمامى أعمالا كثيرة فوق الأرض يجب أن انتهى من إنجازها .

- أترفض أيها الأحمق الذهاب إلى الجنة حيث تنتظر السعادة الأبدية ؟ من أجل أعمال ضئيلة حقيرة يستطيع غيرك إنجازها .

- لا أريد السعادة . . ولكن أريد أن أظل على الأرض .

- اتبعنا أيها الجاهل ولا تضطربنا إلى إسعادك بالقوة . . إن الجنة تنتظر والأبواب مفتوحة لاستقبالك . .

- لآستطيع أن أذهب معكم ، فثيرانى في حاجة لرعايتى .

- أيها المسكين . . أترفض الجنة من أجل بضعة ثيران حقيرة . . ؟ فكر يا بنى وسندعك لحظات . . ثم نعود إليك وقد استقر رأيك . . !

وكان الشيخ الزاهد يستمع إلى المناقشة في استغراب وذهول ، ويعجب من الرجل الذى يرفض الذهاب إلى الجنة مع من يريدون أخذه إليها . . واقترب من الكيس الذى يصدر منه الصوت وسأل :

- من هناك . . ؟

سمع الصوت يجيبه :

- أنا سامبا الفلاح . . يريد الملائكة أن يأخذوني بالقوة إلى الجنة . . ويجبروني على أن أترك ثيراني المسكينة التي لا أستطيع أن أتركها وحيدة . .
قال الزاهد :

- لا تذهب في عنادك إلى هذا المدى يابنى . . فتغضب الملائكة وتأبى أن تعود إليك وتأخذك إلى الجنة .

ولكن الصوت عاد يقول له :

- لا همنى عادت الملائكة أو لم تعد . فليذهب معها أى إنسان آخر . . أما أنا فلا أريد الذهاب إلى الجنة الآن أبدا . .

وهز الزاهد رأسه وهو يقول :

- وحق السماء لولا أننى مكلف بأن أحمل ذلك الصندوق المملوء بالذهب هدية من قريتي إلى كبير الزهاد في المدينة . . لذهبت بدلا منك .
قال له الصوت :

- أيها الزاهد الصالح ، إذا كان عبء الصندوق وحده هو الذى يمنعك ، فأنا أحمله عنك وأسلمه إلى صاحبه بنفسى وأنا في طريقى إلى قريتي . . وأنا كفيف بعد ذلك بأن استرضى الملائكة لتعود إلى بعد أن أتم واجبى نحو ثيراني وبقراتى العزيزات . . !
وفرح الزاهد وهو يقول :

- مادمت تطوعت يابنى بحمل الصندوق وإرساله إلى صاحبه ، فلا بأس عندى من أن أحمل محلك وأذهب بدلا منك في الرحلة الجميلة إلى الجنة . ولكن كيف الوصول إلى المكان الذى أنت فيه . . ؟

قال له سامبا :

- إن الأمر سهل . . يكفى أن تقطع بسكينك الخيط الذى يضم أطراف جلد الثور . . ولكن حذار من أن تغمد شفرة السكين أكثر من اللازم فتجرح أحد الملائكة . . !

ومد الزاهد سكينه وأخذ يقطع بها الخيط في عناية وحذر ، ووثب « سامبا » من داخل جلد الثور في فرح كبير وهو يقول للشيوخ :

— والآن ادخل أنت في الكيس ولأخيطة أنا عليك . وانتظر حتى تعود الملائكة
تحمملك . ولكن عليك أن تشهر السكين في يدك . ومتى شعرت بالبرودة تتسرب إليك ،
فشق الكيس تجد نفسك في داخل الجنة . . !

وشكر الزاهد « سامبا » لتنازله له عن رحلة الجنة . . وسلمه صندوق الذهب ، ثم
دخل في جلد الثور حيث خاطه « سامبا » عليه ، ثم مضى في طريقه فرحا يقفز
ويرقص .

أما الزاهد فقد ظل ينتظر حضور الملائكة لحمله . وفي قلبه خوف من أن يكتشفوا
أمره ويعرفوا أنه ليس الشخص الذى كانوا يحملون . وانقضت ساعة سمع بعدها
همهمة وكلاما ، فراح يستعد للحظة التى قد يكتشفونه فيها ، ولكن الفرحه ملأته عندما
شعر أن الكيس يرتفع به . . فقد أدرك أن الملائكة لم يكشفوه . . وأنه الآن في طريقه إلى
الجنة . . !

وشعر الزاهد أن الطريق الذى يسير فيه الملائكة طويل . . فأشفق عليهم . وعندما
توقفوا عرف أنه قد وصل إلى المكان المعهود . . وبدأ الكيس يهتز من جديد إلى أمام وإلى
خلف عدة مرات . . ثم شعر الزاهد بأنه يطير . . .

وأحس صدمة قوية . . شعر بعدها بالبرودة . . . وتذكر الزاهد نصيحة سامبا ،
فمد السكين وشق به الكيس ليهبط إلى الجنة . . .

وما كاد يفعل ، حتى وجد نفسه محاطا بالماء من كل جانب . . فراح يسبح
ويسبح . . ولولا أنه ظل يسبح بقوة نحو الشاطئ لبلغ فعلا أبواب السماء . ! !

في ذلك الوقت كان « سامبا » قد بلغ المدينة . . وصندوق الذهب لا يزال في يده .
واختبأ الفتى خلف شجرة حتى مر به عبيد الملك عائددين من العمل . . وعندئذ ظهر
سامبا ، وسار في طريقه ببطء ليبلغ القصر بعد عودة العبيد بوقت يكون كافيا ليلغوا
الملك خلال به بنجاح مهمتهم . . !

وبينما كان الملك مستلقيا على عرشه مغتبطا بنجاحه في الانتقام من الفتى الكذاب
بإلقاءه في البحر . . فوجىء به هو نفسه يقف فوق رأسه . . .

وصرخ الملك في ذعر . . وامتأ القصر بالعبيد والحراس . . بل بكل أهل المدينة بعد
أن بلغهم نبأ ذلك العائد من الموت . . وبين أهل المدينة كانت أمه تقف في ذهول ،
وتحاول الاقتراب منه .

وصرخ « سامبا » يمنع أمه وقال لها :

- ابتعدى يا أماه . . لاتلمسينى . . فجسدى تغطيه ذرات الكواكب التى كنت أسير بينها منذ قليل . إن كل من يلمسنى يشتعل كالنار قبل أن تنقضى ساعات . ولابد أن يمضى بعض الوقت قبل أن تسقط ذرات الكواكب الملتصقة بى . . .

والتفت الملك إلى العبيد وصرخ فيهم في غيظ :

- أيها العبيد المجرمون . . الموت لكم جميعا نظير كذبكم على وادعائكم أنكم ألقيتموه في البحر . .

وسجد العبيد أمام الملك وهم يقسمون أنهم قد ألقوه في البحر .

وتكلم سامبا مخاطبا الملك في هدوء :

-إنهم صادقون يامولاي . . وأنا عائد الآن من العالم الآخر طوع أمرك . . أنسيت أنك طلبت منى أن أعود عندما أتعلم شيئا جديدا هناك لأعلمك إياه . .

وبهت الجميع وسكتوا . . خاصة عندما كشف لهم « سامبا » غطاء صندوق الذهب . . وراح يقول :

- عندما ولجت باب السماء ، أحاطت بى ملائكة طويلة الشعر ترتدى أشعة الشمس ، وتبرز من ظهورها أجنحة تلمع كأجنحة الفراشات . وراحت الملائكة تنشد لى الأناشيد وتقدم كل واحدة منها لى هدية . . فهذه تقدم لى ماسا ، وأخرى تقدم ياقوتا ، وثالثة تقدم ذهباً وفضة وقلائد وأساور . . ولكنى رفضتها جميعا ، إلا ذلك الصندوق المملوء بالذهب ، حتى لا أثقل كاهلى بحملها جميعا عندما أعود إلى الملك سريعا كما طلب منى ، لأخبره بوسيلة الوصول إلى الغنى والثروة . إن ما تعلمته هو أن الغنى فى السماء أسهل منه على ظهر الأرض . . وكم أسفت إذ لم تكن معى عربية أستطيع أن أحمل فيها كل تلك الهدايا الكريمة التى قدمت لى . . غير أنى سأعود مرة أخرى ، وسأخذ معى كيسا كبيرا أضع فيه كل الهدايا التى قدمها لى الملائكة ووضعوها عند باب اللجنة حتى أعود . . !

وقال له الملك وهو لا يزال مذهولا :

- ولكن كيف لم تمت . . وكل امرئ أغرقناه من قبل مات ولم يعد . . ؟!

وأجاب سامبا مبتسما :

.. ذلك لأنك وضعتنى فى جلد ثور .. والثور مقدس كما تعلم فهو يمنع الموت أن يخطفنا .. والدليل على ذلك هو أننى لا أزال حيا بين يديك .. !

وفجأة ، اندفع من أقصى القاعة أحد ضباط الحرس ، وسجد أمام الملك فى سرعة وهو يتوسل :

.. مولاي .. أرجو أن تضعنى فى جلد ثور لأذهب إلى الجنة وأعود بالثروات المتروكة على بابها .. فأنا أخشى أن يأخذها « سامبا » إذا ذهب ، ثم يخطفها بعيدا عنا .. !

وفى الحال .. أخذ الضباط الآخرون يتقدمون من الملك وهم يتوسلون :

.. ونحن أيضا .. ونحن أيضا أيها الملك ..

وهتف فيهم الملك فى قسوة وعنفة :

.. أتريدون الذهاب لتثروا ، وأظل أنا فقيرا .. ؟! إن هذا لن يكون ، فلنسلخ من الثيران ما يكفينا جميعا ، ولنذهب كلنا إلى الجنة ، ونعُدَّ بهدايا الملائكة .. !

وصفق الجميع للملك ..

وفى ذلك اليوم .. ذبح أكثر من ألف ثور .. كان كل ضابط يسعى لأن يضع نفسه داخل الجلد المقدس .. ويلقى فى البحر .. ليذهب إلى الجنة .. !!

وذعر « سامبا » عندما وجد أن كذبه ستؤدى إلى غرق عدد كبير .. فحاول منعهم وأخذ يصرخ فيهم أنه كان يكذب .. غير أن الجميع لم يصدقوه ، وظنوا أنه يريد أن يمنعهم لينفرد هو بالذهاب إلى الجنة والحصول على الكنوز وحده ..

ودخل الملك فى جلد ثور .. كما دخل كل ضباط البلاط فى جلود الثيران التى ذبحوها .. ووضعت الأكياس المتكدسة على العربات واتجهت إلى البحر.

وراح « سامبا » يجرى بين العربات ويتوسل إلى كل من دخلوا الأكياس أن يصدقوه .. غير أن الملك من داخل كيسه ، أصدر أمره إليه بالابتعاد وهو يصرخ :

.. اسكت أيها الكذاب .. هانتذا تكذب الآن أيضا لتمنعنا من الحصول على الثروة .. اقتلوه أيها العبيد إذا اقترب منا مرة أخرى .. وسأعرف أنا كيف أريه وأرد صوابه عندما أعود .. !

وأوقف العبيد سامبا .. واستمرت العربات فى الطريق إلى البحر ..

وهز سامبا كتفيه . . وانتظر بعيدا حتى ألقيت كل الأكياس في البحر. ثم أوما إلى كل الشعب أن يتبعوه . .

وعاد الجميع إلى المدينة . . وفي خلال الأيام التي تلت ذلك ، كان « سامبا » قد أقنع الناس أن بالجنة من الحور والمسرات ما أطمع الملك وضباطه بالبقاء هناك . . وأنهم لن يعودوا مرة أخرى أبدا . . !

واقنع الناس . . وبايعوا سامبا الكذاب ليجلس على العرش . .

ويروى التاريخ أنه لم يعرف منذ ذلك الوقت أصدق منه ملكا قط . . !

أسطورة آشورية سميراميس

اختلف المؤرخون في حقيقة سميراميس، فقال بعضهم إن وجودها خرافة . ويؤكد آخرون أن الأهمال التي تنسب إليها متداخلة في تاريخ الآشوريين والبابليين الذين عاشوا على نهرى دجلة والفرات . . أما المنقبون عن الآثار فيرون أن سميراميس إلهة أسطورية شرقية . . هي عندهم كفينوس عند الرومان . . وأن اسمها، ومعناه حمامة، إنها أطلق عليها لأن الحمام احتضنتها عند مولدها وغذتها . وهم يرونها رمز الحب والسعادة، وفرح الرجال، والظفر في الحرب . . كما يعتبرونها وسيطا أسمى بين مبدأ الخير والشر على ظهر الأرض . . !

انسابت سيول طاغية ذات يوم على منابع نهر الفرات في جبال أرمينيا، ففاض النهر، وتدفقت مياهه، وخرجت الأسماك تستلقى وتمتد على أديم الأرض . . .

وبين تلك الأسماك، كانت هناك سمكتان كبيرتان شهدتا بيضة كبيرة طافية على وجه الماء، فسبحتا إليها، ودفعتاها أمامهما إلى الضفة . . . وإذا حمامة بيضاء تهبط من السماء وتحتضن البيضة، ثم ظلت تحميها حتى تراجع ماء الفيضان عائدا إلى مجرى النهر . .

واستمرت الحمامة تحتضن البيضة حتى فقست . ومن داخل البيضة خرجت الربة «ديركيتو» بوجه امرأة . . وجسم سمكة . . !

وأعجب الإله الأعظم بالربة الصغيرة، بعد أن كبرت وملأت الآفاق بعدلها وفضلها وحكمتها، وتمثل إعجاب الإله في وعد قدمه إليها بأن تطلب منه أى شيء تريد . ولم تدع «ديركيتو» الفرصة تضيع . . فسألته أن يخلد السمكتين اللتين أنقذتاها من الطوفان . . فرفعها الإله الأكبر إلى السماء . . وجعلها ألمع نجمتين في برج الحوت . . !

ورغبت الربة «ديركيتو» في أن تحمل . . والربات يحملن ويلدن بغير زواج حسب رغبتهن . . . وحملت الربة، ثم وضعت طفلة لها جسد إنسان كامل . . يشع من بدنها النور لروعة ما منحته من ألوان الجمال .

وأطلت الربة «ديركيتو» إلى ابنتها . . وملأها الذعر . . وقد أثار رعبها ألا تكون

طفلتها في شكلها الإلهي . . مما يجعل الربات الأخريات ينظرن إليها بعين الريبة والشك ، ويعيرنها ، ويتهمنها بما هي منه براء .

وحملت الربة مولودتها ذات ليلة مظلمة إلى البادية . . حيث تركتها هناك عارية مهملة . . ليس حولها من شيء على الإطلاق سوى البرد والريح والزمهرير . . والجوع القاتل . . !

وكان بيلوس . . إله نينوى العظيم . . يطل من عليائه ، فرأى الطفلة المسكينة تلقى في العراء بغير سلاح أو معين . . فأرسل من السماء رسوله « ينبو » يرعاها ويحميها ، ويحمل معه سربا من الحائم يرف بعضها عليها بأجنحته لترد عنها حر النهار وبرد الليل . وتنطلق الأخريات إلى حيث ينزل الرعاة فتحمل إليها بمناقيرها نقطا من الحليب تقطرها في فمها لتغذيها وتروى ظمأها . . .

ومع مر الشهور والسنين ، تحولت الحائم إلى الأمكنة التي يضع فيها الرعاة ما يصنعون من جبن ، فتأخذ منه بمقدار ماتسع مناقيرها ، لتقدمه للطفلة التي عاشت مع حائمها سعيدة لاتعرف قط طعم الشقاء .

وكان الرعاة إذا عادوا في المساء يرون جبنهم منقورا فيدهشون . ولما ازداد ذلك الأمر وتتابع ، قرروا أن يتركوا واحدا منهم يرقب المكان وهم غائبون . .

وشهد الراعي الحائم وهي تحط حول الجبن وتلتقط قطعه الصغيرة فتحملها بمناقيرها إلى مكان تطير إليه . وأخبر الرقيب رفاقه فتتبعوا الحائم حتى وصلوا إلى حيث صبية ذات جمال رائع لم يخلق لغير الآلهة . فأخذوها إلى خيامهم ، واتفقوا على أن يحملوها معهم حيث يبيعونها في سوق « نينوى » العظيم . . .

وحمل الرعاة الصبية الحسنة إلى نينوى . . وكانوا قد سموها سميراميس . . وهي تعنى الحامة البيضاء .

واتفق أن كان يوم وصولهم إلى المدينة يوم موسم الزواج الذي يقام كل عام ، حيث تجتمع في السوق الكبير جموع الشبان والشابات قادمة من كل نواحي المملكة ، لينتقى كل شاب عروسا شابة ، أو ينتقى صبية يحملها إلى داره فيرببها إلى أن تبلغ سن الزواج . . . فيتزوجها . . أو يقدمها عروسا لأحد بنيه . . !

وكانت الساحة غاصة بالشيخ والكهول والشبان ، ودخل الرعاة بالصبية الصغيرة الحسنة إلى حيث يعرضونها للبيع . وبينما هم يضعونها في أول الصف ، إذ شاهدهم

«سيما» ناظر مرابط خيول الملك . وكان «سيما» عقيما لا ولد له ، فهفا قلبه إلى سميراميس ، ورغب في تبنيها .

ودعا «سيما» الرعاة وساوهم على ثمنها . وعندما تمت الصفقة حملها إلى منزله ، فها إن رأت زوجته هذه الصبية ذات الجمال الرائع حتى فرحت بها فرحا غامرا ، واعتنت بها المرأة عنايتها بابتها . وظلت ترعاها حتى كبرت واستدارت . . وبرزت أنوثتها كأجل ماتكون النساء . . !

* * *

وذات ربيع ، جاء مينوتس - قائد الملك ووزيره - إلى مرابط الخيل يتفقددها . وشهد الوزير « سميراميس » الحسنة فراعها جماها وبهاؤها ، وسحرته عيناها اللتان يشع منهما النور . . ورنيت إليه « سميراميس » بفتور يحمل الدعوة . فوقف الوزير في مكانه حائرا مبهورا . . حتى انتبه إلى نفسه آخر الأمر فدعا الفتاة وسار بها إلى حديقة القصر يتحدث إليها وتتحدث إليه .

وانطلقت « سميراميس » على استحياء تتبع الوزير . وعندما وقف في بستان القصر اقتربت منه وركعت أمامه على ركبتيها تقدم له كل فروض الاحترام . ومد مينوتس يده فرفعها لتقف أمامه . وأخذ يسألها من تكون . . .

ولم تستطع « سميراميس » أول الأمر أن تجيب . . ثم لم تجد إلا أن تقول له إنها ابنة ناظر المرباط الملكية .

ونادى الوزير على سيما ، ولكن ناظر المرباط لم يستطع أن يكذب كما بدا له أن يفعل أول الأمر . . واضطر أن يقص قصتها كاملة على الوزير . . منذ وجدها الرعاة تحت رعاية الحمايم في البيداء . . حتى اتخذها ابنة له . . لا يطيق فراقا لها أبدا . . !

وأحس الوزير من طريقة الرجل في الحديث ، أنه لا يمانع في تركها مقابل مبلغ كبير . . فأخرج « صرة » من المال قذف بها إليه . . ثم انطلق بالفتاة في الطريق إلى العاصمة .

وكان قلب الرجل قد شغف بالفتاة حبا . وعندما بلغا القصر كان أول ما فعله أن سلمها للمزينات والماشطات ، وأخرج لها من خزائنه حليا لا يوجد مثلها إلا في كنوز الملك . وأخذتها نساء القصر إلى الحمام وغسلن بدنهما بالماء المعطر ، ومشطن شعرها الأسود الطويل وأسدلنه على كتفيها خصلا معقودة بالجواهر . . ثم ألبسها الأرجوان

الفينيقي الموشى بالذهب ، وأخرجنها للوزير كأجل وأروع ماعرفت « نينوى » من عرائس .

واحتفل « مينوئس » بزواجه احتفالاً لم يقمه أحد من قبل . وكان لابد أن يصبح لسميراميس المقام الأول بين محظيات الوزير ونسائه . . حتى لقد كان يلزمها ملازمة الظل ولا يطيق عنها فراقاً لحظة . وكأى امرأة ، استطاعت سميراميس أن تغذى ذلك الشوق والحب وتستغلها لتحكم في الرجل الذى عبدها ، فخضع لرغباتها ، واحترم أفكارها ، وصار يأخذ بأرائها فى كل مايلم به من أحداث ومهام .

ومرت الأيام ، وسميراميس كل شئ فى حياة الوزير . . وكل شئ أيضاً فى حياة الجماهير . إلا أن شيئاً أكثر من جمالها كان سبباً فى تعلق الشعب والوزير بالعروس الإلهية . . هو ذلك النصر الذى استطاعت أن تقدمه للمملكة كلها . . عندما عرفت كيف تسقط أضخم حصن من حصون الأعداء .

كان ذلك يوماً خالداً فى تاريخ البلاد . وكان الملك « نينوس » قد انتهى من تشييد عاصمة ملكه ، وراح يبحث عن السبيل إلى أمجاد جديدة يحققها لنفسه ولملكته الواسعة الأطراف . فما مضت أيام حتى كان قد استقر رأيه مع وزيره وقائد جيشه « مينوئس » على تجنيد جيش كبير ضخم ، يقتحم به ممالك أخرى مجاورة . ثم لم تمض أيام آخر حتى شهدت نينوى خروج جيش عظيم يخترق شوارعها ويتعد عنها ليجاوز حدود البلاد نحو الشرق .

كان الجيش ضخماً بالغ القوة لاقبل لأحد به على الإطلاق . فلم يكن عجيباً ألا تثبت أمامه بلدة أو جيش . إلا أن الذى أثار « نينوى » وأغضب ملكها ، هو أن ذلك الجيش الضخم ، وعلى رأسه القائد ، والملك نفسه ، عجز عن اقتحام عاصمة الأعداء . « بكتريا » لأيام طويلة ظلت الهجمات تتكسر خلالها على الأسوار المحيطة بالقلعة الشاخنة .

وعجب الملك ووزيره أن يقف الجيش دون العاصمة لا يستطيع لها اقتحاماً . ومع ذلك فقد أبى الملك إلا أن يستمر على حصارها ولو أودى بالجيش كله . ولما طالت غيبة الوزير واشتاق إلى زوجته سميراميس ، أرسل إليها يستدعيها لتوافيه فى ميدان القتال .

وحضرت سميراميس . ولم يعرفها رجال الجيش إلا بعد أن تأملوها طويلاً . وعرفوا جمالها الأخاذ الوضىء . . فقد كانت ترتدى ملابس الرجال على غير ماكانوا يهدون . . !

وطلع صباح . . ووقفت « سميراميس » على باب الخيمة تتأمل العاصمة الرائعة التي أنهكت الجيش الذي لم يهزم أبدا . ولاحظت « سميراميس » أن الهجوم كان موجها إلى قسم المدينة القائم في السهل ، لأضد قلعتها ، مما جعل أهل بكتيريا يحرسون حصونها بقليل من اليقظة . وخطرت لها فكرة . . ألا يمكن أن تنهار مقاومة الأعداء لو هوجمت تلك القلعة الشاخنة مباشرة . . وهل يمكن أن تقوم هي نفسها بهذا الهجوم . . ؟ !

وانطلقت « سميراميس » إلى الخيمة فأيقظت زوجها . ولم تمض لحظات حتى عرفت كيف تقنعه بخطتها التي رسمتها من خلال تأملها القصير لجوانب الموقعة . . !

وانتفضت القلعة بعد ساعة من بزوع الشمس على هجوم عارم عنيف ، تشنه عليها فرقة قوية من الجنود اختارتهم « سميراميس » بنفسها وتقدمتهم إلى اقتحام القلعة الشاخنة .

وانقضت ساعة وبعض الساعة . . وانتبه الملك ، والوزير مینوتس ، والجيش جميعا . . فإذا « سميراميس » واقفة على قمة القلعة تلوح بذراعيها أن تقدموا . . !

وعرف الكل أنه النصر . . وأدركوا أن المرأة التي قادت بضعة رجال قد اقتحمت القلعة التي انهارت . . وأن العاصمة قد باتت بين أيديهم . . .

والتفت الملك إلى قائده مینوتس يسأله :

- من تكون هذه المرأة يامینوتس . . ؟ !

وشعر « مینوتس » بدنو الكارثة . . وأدرك أن « سميراميس » قد راقته في عيني الملك ، فسكت على رعب كأنه لم يسمع . وكرر الملك السؤال ، ولم يجد القائد بدا من أن يجيب :

- إنها زوجتي يامولاي . . !

وعاد الملك إلى العاصمة . . ودخل قصره . . وتفرق الجنود والناس . . وأرسل الملك إلى قائده يأمره بدعوة « سميراميس » إليه . ولم يستطع الوزير إلا أن يحنى هامته .

أما سميراميس . . فقد وجدت لها فرصة للوصول إلى المجد الذي طالما حلمت به . . وحملت نفسها على محفة يرفعها أربعة من العبيد السود ، وتصاحبها فيها وصيفتان جميلتان . . هذه راكعة وراءها تروح لها ، وتلك ساجدة أمامها تلبى الرغبات . . .

وعندما دخلت على الملك . . . ووقعت عليها عيناه في اتكاءتها والتفاتها وزينتها وتآلق طلعتها . . انهار قلبه في هوى عرييد . . زادت هي من لهيبه بنظرات كلها دلال وفنور . . لم يدع له مجال الاختيار . . !

وعندما صارا وحدهما . . اتفق معها الملك على أن تترك زوجها . . لتكون له وحده .

وعادت « سميراميس » إلى قصر زوجها وفي إثرها رسول الملك يقول لمينوتس :
- إن سميراميس قد رافت في عيني الملك ، فهو يريد أن يراها في قصره بين محظياته ونسائه ، فإذا كنت في حاجة إلى زوجة تحل مكانها فليس لدى الملك ما يمنعه من أن يسمح لك بالزواج من ابنته بدلا من سميراميس . . !

وصعق الوزير لرسالة الملك ورغبته التي لا يمكن أن ترد ، ولبت أمدا لا يدري ما يفعل . واستدعى « سميراميس » زوجته يسألها كيف يتخلص من رغبة الملك . . فإذا بها تشير عليه بتليتها . . على أن تسعى هي خلال إقامتها في البلاط . . بها أوتيت من فطنة ودهاء . . لعلها تقنع الملك بإعادتها إليه . . !

ونزل القائد عند إشارة سميراميس . . وكله حزن ويأس . . ولكنه ما كاد يبصرها خارجة من القصر في محفتها . . حتى اسودت الدنيا كلها في عينيه . . وانطلق إلى شجرة قائمة في أقصى المدينة . .

ومن غصن قوى من أغصان الشجرة العجوز . . تدلت جثة لم تجد من يوارىها التراب . . .

وكانت هي جثة الوزير . . الذي حكم على نفسه بالإعدام . . !

* * *

بلغ الخبر « سميراميس » وهي بعد لاتزال في طريقها إلى قصر الملك . ولكن ماذا يعنيه من انتحار رجل ما أحست يوما واحدا أنها تحبه . . أبدا ما أحبته قط . . وما كان ليملأ قلبها سوى حب المجد ، والسلطان ، والسيطرة . . وهي تستطيع أن تجدها جميعا في قصر نينوس . . !

وكان القصر ينتظرها كما لم ينتظر ملكة من قبل أبدا . وعندما دخلته كانت تعلم أنها لن تكون أولى المحظيات فحسب . . بل ستكون هي وحدها الملكة . . ولا محظيات سواها . .

وكان هذا هو بالضبط ما حدث . . .

فقد عرفت « سميراميس » اللعوب كيف تجعل الملك يكتفى بها هي وحدها . .
ويطرد محظيات القصر ونسائه كلهن . . كأن الدنيا لم يعد فيها غير سميراميس . . .

ورفعها الملك من محظية إلى ملكة . . .

وولدت له الملكة ولدا سماه إيناس . . .

وظلت الحياة تسير.

* * *

عرفت « سميراميس » كيف تجعل من نفسها كل شيء في قصر الملك . . وعرفت كيف تجعله لا يطيق فراقها لها لحظة . . حتى ولو كان خروجها لحرب . . أو لإخماد ثورة فحسب . .

غير أن خروجها معه في كل غزواته ملأها كراهة له واحتقارا . فقد كان يستعمل في حروبه أبشع وأقسى أنواع التنكيل والإرهاب تماما ككل من سبقوه من ملوك بابل وآشور . فكيف تطيق هي التي رعتها حمامات السلام في البيداء مشاهد الدم المسفوك هنا وهناك . . وفي كل مكان . . ؟!

وكان آخر ما شهدته من حروب الملك ، عندما خرج إلى بلاد الطورانيين الشائرين عليه . . فعندما ظفر بأعدائه وفتحت له أبواب مدينتهم ، أمر بسلخ جلود كل الشبان وهم أحياء . . وعلق الجلود على جدران بناها أمام أبواب المدينة الشائرة . ولم يكتف الملك الوحش بكل ذلك . . فقد أمر بقطع رؤوس الثوار . . ونظمها في جبل على شكل عقد ، وحكم على من بقى حيا من الرجال بأن يأكلوا لحوم أبناءهم وبناتهم . . أما من أبى فقد قُطع أنفه وأذناه وشفته . . ثم سيق مع الآخرين إلى العاصمة . . ليدخل بهم دخول الغزاة المنتصرين . . !

ولم تنطق « سميراميس » كل تلك الفظائع . . وكرهت الرجل الذي عرفت فيه أقسى من وجد على ظهر الأرض . ودفعته تلك الكراهة - جنبا إلى جنب مع حب الطموح والسيطرة - إلى أن تسعى للتخلص من هذا الزوج . . عن أى طريق . . !

وكانت « سميراميس » تعرف الطريق جيدا . فقد عرفت من قبل كيف تتمنع على الملك لتغريه . . وكيف تقصيه عنها لتشعل في قلبه نار الشوق . . فإذا ماتضاءل أمامها وتحطمت منه الأعصاب . . كان هذا هو الوقت الذي تطلب فيه ماتريد . . وسرعان ما يلبي ويحجب . . !

وكان مساء . . وبينما الملك يجلس في مقصورتها وكله شوق ، أخذ يحدثها بأن الوقت قد حان لتطلب ماتريد . . وكان طلبها هو أن يسلمها سلطته كلها لأيام ثلاثة . .

تجلس فيها وحدها على العرش . . ويكون لها أثناءها أن تأمر فقطاع . . ولو كان الأمر صادرا إليه هو نفسه . . !

وابتسم الملك . . ثم ضحك . . ثم كاد يستلقى لطول ماضحك . . ثم قال لها :
- لك ماتريدين . . !

وجلس « سميراميس » على عرش نينوى . . تأمر وتنهى وتحكم . . .
وانقضى اليوم الأول بسلام . . .

وطلع صباح اليوم الثانى من الأيام الثلاثة التى منحها لها الملك . . فكان أول أمر أصدرته سميراميس للجنود أن يقبضوا على الملك . . !

وأطاع الجنود . . واقتيد نينوس إلى السجن أمام عينيها . . وعندما راح الملك يستعطفها فى ذلة وخضوع . . ابتسمت له ساخرة . . ثم انطلق من بين شفيتها أمر جديد إلى الجنود . . بأن يذبحوه . . !

وأثبتت سميراميس أنها لم تعد بعد ابنة الحمايم . . وأنها قد أصبحت - فى بابل وآشور - أكثر قسوة من كل طغاة بابل وآشور . . !

وعلم الشعب بما صنعتته الملكة . . فهاج . . وتألبت الجاهير زاحفة إلى القصر تهتف بالثار ، وتطالب برأس الملكة . . .

وتلقت سميراميس نبأ الثورة وهى فى الحمام . . فلم تدعر . . ولم تأخذها رعدة . بل خرجت من الحمام نصف عارية . . فى شعر منفوش . . وغداثر تسدل على كتفيها كريش الطاووس . . وأطلت من شرفة القصر . . !

وتحول الصخب فجأة إلى همس خافت ، وصمت الضجيج ثم أخذ يتحول بعد ذلك إلى عبادة وصلابة للملكة القائلة . . !

وسجد الجميع . . ثم تفرقوا . . وقد أصبحت الملكة فى مقام الآلهة . . .
ومنذ ذلك اليوم . . جلست سميراميس وحدها على عرش آشور ، تحكم دولة مترامية الأطراف . . وتقود الشعب كل يوم إلى مجد جديد . . .

واستمرت « سميراميس » تحكم وحدها عشرين عاما .
ولم يعد ينقصها بعد كل الأجداد التى صنعتها للشعب إلا أن تتحول إلى الفتوح ، وتحطم كبرياء كل الثوار .

وصنعت سميراميس جيشا لم تر آشور جيشا مثله قط . زحفت به لتخضع آسيا وميديا وفارس وإرمينيا وفينيقيا . . ولم يعد هناك من بلد يقف في وجهها إلا الهند . . . ذلك البلد المسحور الذى تحدثت عنه القرون الأولى .

وإذن فإلى الهند . . .

وخرجت سميراميس على رأس جيشها الجرار . فما وقف أمامها عدو . . وما صمد دونها بلد . . حتى بلغت أطراف الهند وقد أنهكها طول السفر . . .

وكانت سميراميس قد استعدت قبل ذلك بستتين لملاقاة جيش ملك الهند . وكان الهنود مشهورين بقدرة فيلتهم التى تستخدم فى الحرب فلا تقهر . فسعت هى إلى التغلب على هذه العقبة بحيلة حربية . . وأمرت بتغطية مائة ألف رجل بجلود الثيران السوداء لتقلد بها الفيلة . . وصنعت ألفى مركب لتشق بها نهر السند . . وحملها الجيش على ظهور الجمال .

وبدأت الحرب وجهها لوجه . . وكانت سميراميس قد أنزلت فيلتها الزائفة فى المعركة . . فكسبت أولى الجولات . . وأسرت مائة ألف هندى . . وأغرقت ألف مركب من مراكب الأعداء فى نهر السند .

وتظاهر الملك الهندى بالتراجع والهرب . . ومن ورائه انطلق جيش « سميراميس » بغير نظام يبنى الغنيمة . وكانت هناك قنطرة كبيرة على النهر اضطرت سميراميس أن تنزل جيشها على جانبها . . وتوقفت المعركة . . .

وفى اليوم التالى عاد القتال . . وانطلقت الفيلة الزائفة براكييها تطارد جيش الهند المتقهقر . . ولكن الهنود الذين اكتشفوا الزيف عندما عثروا على جثث « الفيلة » الميتة . . عادوا يكرون على جيش سميراميس بفيلتهم الحقيقية التى تمرست بالحروب وخبرتها . .

وانهار جيش « سميراميس » . . وفر الرجال والجمال فى اضطراب لم يكن بعده سوى الهزيمة . . .

أما هى . . فقد أصابها سهم من يد الملك الهندى ، جعلها تسرع مع فلول جيشها المقهور إلى عبور نهر السند مرتدة إلى بلادها . . ولم يتبعها الملك الهندى بجيوشه إذ حذره كهانه من العبور .

وتم الصلح على تبادل الأسرى . . وعندما عادت سميراميس إلى آشور . . لم يكن يحيط بها من الجيش الذى خرجت به من قبل . . سوى الربع أو أقل قليلا . . !

وفى عاصمتها أحست سميراميس خيوط مؤامرة جديدة . . فقد كان ابنها ميناس قد ضاق بخمول ذكره أمام عظمة أمه وسلطانها . . فملأته الغيرة . . وطمع فى الحصول على أزمة الأمور . . !

شعرت سميراميس بما يدبره ولدها . . وأرادت أن تجتذبه إليها وتتدارك أمر نفسها فتزوجته . لكن هذا الزواج لم يجدها نفعا . . فقد لبث ميناس يحوك لها المكائد والدسائس حتى أحست كأنها محصورة فى مصيدة . . !

وأثعبها الجهد . . ولم تجد أمامها إلا أن تتنازل عن العرش لولدها ميناس .

وخلعت سميراميس التاج الذى كسبته بالدم . . وخرجت من عاصمتها - بابل - التى شيدتها أيام مجدها . . لتعود إلى البادية التى تلقتها وليدة من قبل . . وهناك عاشت منبوذة وحيدة . . كأنها لم تكن ذات يوم شيئا مذكورا . . !

ولم تطق « سميراميس » صبرا بعد . . فرفعت يديها إلى السماء تطلب من الإله بيلوس أن يأخذها إليه . . .

واستجاب لها رب الأرباب . . فحوّلها إلى حمامة بيضاء ، رفرت لتطير إلى السماء ومن حولها غمامة هائلة من حمام أخرى بيض ، تماما كتلك التى ربّتها ورعتها ذات يوم . . . وهناك . . عاشت سميراميس . . كواحدة من ربّات آشور وبابل . . وعندها أهل الأرض تماما كما يعبدون أهل السماء . . !

أسطورة بابلية قصة الخلق والطوفان

كانت الآلهة هي الشرطة الخفية للدولة البابلية التي عاشت منذ خمسة آلاف سنة على شواطئ دجلة والفرات . . والتي سارت حضارتها جنباً لجنب مع حضارة الفراعنة . غير أن آلهة بابل كانوا أكثر عدداً من آلهة مصر . . حتى لقد بلغ عددها في إحصاء يسمى ٦٥٠٠٠ إله ، إذ كان لكل قرية إله يحميها . ولم يكن الآلهة يعيشون بعيداً عن الأهلين . . فقد كان معظمهم يعيشون على الأرض في الهياكل ، يأكلون الطعام بشهية قوية ، ويزورون الصالحات من النساء في أثناء الليل . فيستولدوهن أطفالاً لم يكن أهل بابل العاملون المجدون يتوقعون أن يولدوا أبداً .

غير أن الناس مع كل ذلك كانوا يؤمنون بإله أكبر . هو أعظم الآلهة جعلوا اسمه ذات يوم « نوا » ثم انتصر الإله « مردك » على كل الآلهة . . وصار هو كبيرهم . . وعلى يديه خلقت البشرية . . وجري الطوفان . .

لم يكن هناك سوى « إيسو » الفضاء المظلم . . و« تيامات » المياه التي لا تمجد . لاسماء ولا أرض ، لا آلهة ولا بشر ، لا شيء من ذلك أبداً سوى الفضاء المحيط ، أبى كل شيء ، والمياه الممتدة إلى ما لا نهاية . . بكل ما فيها من اضطراب وقوضى . تضرب كلها الأعطاب ، وتخرج - من بعده - كل شيء حياً . . !

ولم تكن المياه قد تشكلت بعد في محيطات وبحار ، أو بحيرات وأنهار . بل كانت كلها شيئاً واحداً ، واسعا إلى غير حدود ، عميقاً إلى اللانهاية . أما المستقبل ، فما كان يبدو منه شيء قط . . لا شيء سوى ظلمة أخرى حالكة . . أشد سواداً من أعماق الليل نفسه . . !

وتعاقبت الأزمان ، حتى جاء زمن اختلط فيه الماء بالفضاء ، ومن اختلاطهما خرجت أشياء أخذت تنمو وتتخذ لها أشكالاً عديدة غريبة . ثم ظلت ترتفع حتى استقرت في أعلى . وكان منها كل آلهة النور .

وأطلت « تيامات » إلى المخلوقات الجديدة ، وملاها الفزع . . فما كانوا قط من طينتها ، ولا تشكلوا أبداً بأشكالها . فهي لم تكن تعرف في حياتها سوى الظلام والقوضى

والاضطراب . أما الذين يعيشون في أعلى . . فلا يريدون غير النور والنظام والاستقرار .
وكان هذا كله عكس ماتريد . . بل كان هذا كله أول أسباب الحقد والغضب والثورة
على آلهة النور . .

وقررت « تيامات » أن تتخلص من المخلوقات الجديدة . . وأن تشن عليهم حربا لا
هواة فيها قط . .

وظلت تيامات تعمل بلا انقطاع . . فمن جوفها جاءت الوحوش المخيفة المفترسة ،
وانطلقت الثعابين المهولة ذات السم . . وعلى سطح الماء برزت رؤوس التنانين ، بشعة
تثير الرعب ، وخرجت الكلاب مفترسة لامثيل لوحشيتها ، والعقارب مخيفة سوداء
كالمردة . ومن كل مكان انطلقت حيوانات أخرى كسيول شريرة مجنونة . . تتحرك تحت
إمرة الوحش « كنجو » العملاق ، الذى وعدته تيامات بالزواج وإعطائه ملك كل
شئ ، إذا تغلب على آلهة النور ، وسحقهم بذراعه القوى الجبار . .

وفوجئ الآلهة بعدوان تيامات . وكان أول من عرف نياتها هو الإله « آى » الذى
ساق الخبر إلى الإله « أنصار » . وعجب هذا لموقف تيامات ، وامتلأ قلبه حنقا وسخطا ،
يختلط بالخوف والرعدة مما قد يحل بمجتمع الآلهة . وانطلق أنصار إلى « الإله أونو »
فكلفه الذهاب إلى تيامات يسألها عن سر تحديها للآلهة . . !

وانطلق أونو إلى مملكة تيامات . .

غير أنه ماكاد يقترب ، حتى نهض له « كنجو » . . الوحش المارد المستلقى إلى جوار
تيامات ، وهاجمه فى شدة وعنف وجنون . وتوقف أونو ، ثم حرك قدميه إلى الخلف ، ثم
أدار ظهره ، ثم ولى الأدبار هاربا يجرى من مواجهة الحيوان الصاخب المهول . . !

وتوالى مواكب الآلهة واحدا فى إثر آخر ، لمقابلة تيامات . . ولكن أحدا منهم لم
يستطع الوصول إليها أو مناقشتها . ولا عرف أحد منهم كيف يبحث معها سر ذلك
الغضب العنيف .

وجلس الجميع ذات يوم يبحثون الأمر . وكان بينهم الإله « مزدك » الذى لم يكن قد
جرب حظه مع تيامات من قبل . ومن خلال الفشل الذى منى به الجميع ، أطلوا إلى
« مردك » وطلبوا منه أن ينال الإلهة المتوحشة . ويغير ماخوف ، انحنى لهم مردك . . وقد
قبل النزال بشرط أن يقر له الجميع متى انتصر بأنه هو الأقوى . . ولا أحد أقوى منه .

ولم يكن أمام آلهة النور بد من القبول . . ومنح مردك السلطة السماوية الكاملة
ليكون له حكم الكون كله . . !

أراد مردك - قبل أن يمضى لمصارعة تيامات - أن يجرب ما لديه من فنون القوة .
 وأتى الإله برداء طويل ألقاه أمام كل الآلهة . . وتلا بضعة تراتيل لم يكدها ينهيها حتى
 اختفى الثوب وتلاشى . وأخذ بالآلهة العجب وطلبوا منه أن يعيد الرداء كما كان . وعاد
 مردك يتلو تراتيله فإذا الرداء يعود ، ويمتد في نفس المكان الذى كان قد تلاشى فيه .
 واقتنع مردك بأن أحدا من الآلهة لم يعد له مثل نفوذه وسلطانه . فقرر البدء في رحلة
 الانتقام .

وانتفض مردك وهو ينهض ليبدأ الصراع الجبار . فبدأ راتعا وهو يتحرك ومن أمامه
 تبرق البروق ، ومن فوقه ترعد الرعود ، والقوس الضخم فوق ظهره ، والرمح الثقيل في
 يده ، والشبكة الهائلة التى قرر أن يصطاد بها الوحش كنجو الرهيب يجرجرها خلفه .
 لقد كان الإله المنتقم قد أعد عدته للكفاح ، ولم يعد هناك سوى أن يلتقى بروح الشر في
 جسد تيامات . . !

واستمر الإله مردك يقود مركبة القدر ليصل إلى حيث تجرى المعركة . وعندما وجد
 أنه قد اقترب من المكان ، نطق كلمة واحدة ، فإذا ريح مروعة تجرى أمامه ، وإذا الريح
 تتحول فتصير عواصف وزوايع وأعاصير، تتجمع كلها لتكون سلاحا في يد مردك ،
 سلاحا أقوى من أى سلاح يمكن أن يحمله إله . . .

وأطلت الحيوانات المهولة فإذا كل شيء قد انقلب ، وإذا نور يشع من خوذته يخطف
 الأبصار، فهرعت تحتفى في أعماق الظلمة ، وأفواهاها من الخوف ترسل الزيد . . !
 واستمر مردك ، مصحوبا بكل دعوات آلهة السماء ، في طريقه المرسوم .

وبلغ مملكة تيامات . وأطل فإذا وحش مهول في شكل تنين غفيف ، يحاول النهوض
 من استلقاءته ، ومن عينيه ينطلق بريق غفيف ، ومن منخاريه يندلع لظى اللهب .
 وفتح التنين فمه فإذا به كجهم . . النار تغلى فيه ، والأصوات المرعبة ترعد وتدوى ،
 ولا تسكت أبدا .

وتوقف مردك في مكانه . وزعق يخاطب تيامات من بعيد . . ويطلب منها أن تنجح
 إلى السلم ، وتبعد عن رأسها فكرة العدوان .

وقهقهت تيامات وهى تهتز . ثم سلطت في سرعة على عدوها أقوى ماعرفته من
 تعاويذ السحر وأشدّها أثرا . .

ولكن مردك كان قد أعد العدة لإبعاد السحر عنه . . وفي لحظة ، رفع شبكته الهائلة

وألقي بها في قوة إلى حيث وقفت تيامات . . واندفعت الإلهة المهولة إلى الخلف ، ولكن الشبكة أمسكتها ، وجذبها الإله إليه ثم أطلق على فمها ريحا صرصرا عاتية .

ودخلت الزوبعة عنيفة بين فكى تيامات . . واخترقت الحلقوم لتدخل في بطنها الذى ظل ينتفخ وينتفخ . . وعندما بلغ آخر درجات الانتفاخ ، رفع مردك رجه الضخم وطعن البطن المنتفخ . فانفجر في صوت صاخب كالرعد . وسقطت تيامات ميتة . . !

عندما انتهت مردك من قتل تيامات ، وقف فوق جسدها ، ثم قطع قلبها الشرير فألقى به في الفضاء الأسود . ثم تحول إلى التنين الهائل ف قضى عليه . . أما وحوشها الأخرى ، وتوابعها السود ، فقد أخذوا يصرخون وهم يحاولون الفرار ، ولكنه لم يمهلهم بل أخذ يلقي عليهم شبكته تصطادهم واحدا في إثر آخر . ووقعوا كلهم في الأسر .

وانحنى مردك على جثة التنين فأخذ منها حبوب القضا والقدر التى أعطتها له تيامات المذبوحة ، تلك الحبوب التى تمنح النفوذ والسلطان - لكل من يحملها - على المصائر والأقدار .

وحملت رياح الجنوب دماء تيامات إلى أماكن سرية مجهولة ، حين كان مردك قد انحنى من جديد على جثتها ، وشقها جزأين مستطيلين : رفع أحدهما ليكون السموات . . وخفض الآخر ليكون الأرض . . !

وعندما انتهى مردك من رفع السماء ، نثر على صفحتها الكواكب لتضئ ، ولتجرى في طريق منتظم مرسوم .

وعندما أضاء مردك السماء . . جعلها مكانا لإقامة الآلهة « أونو وبعل وآى » أما الآلهة الآخرون فقد قسم عليهم الكواكب ، ليكون كل كوكب بيتا لإله . ثم قسم السنة وجعل لكل شهر ثلاثة كواكب . كما جعل لإله القمر حكم الليل وإضاءته . ومنحه كل شهر يوما يستريح فيه . أما الشبكة الهائلة التى صحبتته في معركته مع تيامات ، فقد جعل لها كوكبا ومعها القوس . . وأما الرياح التى ساعدته في القضاء عليها ، فقد جعل لكل منها كوكبا جديدا .

وإذ انتهى مردك من إقرار كل إله فوق كوكبه ، وضع نفسه هو الآخر في كوكب كان أكبر من كل الكواكب الأخرى وأضخم . . وجعله المصدر الرئيسى للنور في صفحة السماء . .

غير أن مردك لم ينس الأرض عندما كان يرفع صفحة السماء . . فقد كانت الأرض التى وضعها في حاجة إلى أخرى إلى معجزة .

وأطل مردك وهو يفكر . لقد كانت الآلهة فى حاجة إلى من يصلى لها ويعبدها .
 وإذن . . فلتكن المعجزة هى خلق الإنسان . . وانحنى مردك على الأرض ، وشرع
 يعجن التراب بدمائه ، ويصنع من الطين ناسا تقوم على خدمة الآلهة ، والصلاة لهم
 وعبادتهم . .
 وهكذا خلقت البشرية . . !

* * *

عمرت الأرض بالمخلوقات الجديدة وطفى البشر يتزاوجون ويتناسلون ، وقيمون
 الصلاة للآلهة التى خلقتهم وسوت لهم الأرض وقدمت لهم النور من السماء . .
 ولكن الأمر لم يكن ليستمر طويلا على منوال واحد . . فإذا القوم كلما ازداد عددهم
 تنافروا وتنازعوا ، وإذا الصلوات تقل والعبادة تنهار ، والشر يدخل كل يوم من حيث
 خرج الخير . . وأصبح الخلق غير الخلق . . والناس غير الناس . وظهرت على الأرض
 سلسلتان من البشر تسييران فى خطين متوازيين . . إحداهما لاتزال متصلة بالآلهة . . أما
 الأخرى فقد قطعت كل صلاتها بهم ، ولم يعد أمام أصحابها من هدف سوى الوصول
 إلى اللذة من أى طريق .
 وامتلاأت الأرض بالشر . .

وأطل الآلهة من عليائهم وملاهم الحزن . .
 إن الإنسان لم يعد هو الإنسان الذى خلقه مردك . . وجعله صورة منه كريمة بريئة
 طاهرة . .

وغضبت الآلهة على مخلوقات الأرض . . وكان أكثر الكل غضبا الإله مردك ، الذى
 قرر أن يرسل طوفانا عارما ليهلك البشر ويمحو به آثار أعمالهم العامرة بكل ما هو
 سيىء وخبيث . . !

غير أن أى . . إله الحكمة ، أخذته الشفقة على البشر ، واعتزم أن ينجى منهم على
 الأقل رجلا وامرأة . . يحفظان سر الخلق .

وكان « شمس نشتين » وزوجته هما اللذان وقع عليهما اختيار الإله . .

وفى ذلك اليوم . . وبينما كان شمس ناثما ، جاءه صوت الإله فى الحلم يقول :

- انهض يابن « أوبارا توتو » . . يامن أطعت الآلهة ، وحفظت لهم العهد الذى
 وضعوه فىك . . انهض فاهدم بيتك ، واصنع من الخشب فلكا ضع فيه كل ماتحتاجه

لحياتك . . . وخذ معك حبة حية من كل شيء . . . نحميها كما نحملك من الطوفان
الذى سيحل على الأرض التى امتلأت بالشر والفساد والطغيان . . . !

وصدع « شمس نيشتين » بأوامر الإله . . .

ومع مطلع النهار نهض من نومه ليهدم بيته ، ويبنى من الخشب فلكا ضخما . . .

واستخدم شمس عددا من العمال وأخذوا يعاونونه ويشقون له الألواح ، حتى إذا ما
انتهت أيام سبعة كان الفلك قد نهض قائما على الأرض كأحسن مايكون الفلك ، وقد
ضم بين جنباته كميات كبيرة من الخمر والزيت ، وأكواما من حبوب حية من كل نبت
ظهر على الأرض ، وزوجين من كل حيوان أو طير جرت في عروقه الحياة .

وأطل شمس إلى فلكه وامتأ رضا . . . لقد كان طوله يصل إلى ١٢٠ ذراعا وارتفاعه
١٢٠ أخرى . وكان مقسما إلى ستة طوابق كل طابق مقسم إلى تسع غرف . . . أما سطحه
الخارجى فمدهون بالقطران ، وسطحه الداخلى بالقار .

وعرف شمس من إلهه أن عليه الدخول فى فلكه وإغلاقه ، متى ظهرت الإشارة
المتفق عليها . . . وهى مطر غزير يسقط من السماء . . .

ومرت أيام . . . وسقط المطر مدارا . . .

لقد أتت الساعة . . . !

وانطلق شمس نيشتين إلى الفلك ومعه زوجته وأبنائه . . . ومن خلفه أغلق الأبواب . . .
ومرت بالآفق سحابة سوداء غطت كل الأرض . . . يسوقها الإله راما مطلق الرعد ،
وتمسك بسكانها الإلهة « أورجال » . . . ومن خلفهما الإلهان « نابو » و « مردك » . . . يفتحان
للمطر كل طاقات السماء . . .

وأطبقت العاصفة والظلام على الأرض . . . وراح الناس يتساقطون غرقى وصرعى . . .
حتى الذين ركضوا يطلبون النجاة فى الأقبية والغرف ذات السقوف ، ما استطاعوا أن
يجدوا تحتها منقذا من الطوفان . . . ولا الذين لجئوا إلى قمم الجبال ، فقد طغت المياه
وارتفعت حتى اختفت كل الجبال التى تحت السماء . . . !

واستمر الطوفان ستة أيام . . . كان فيها الكفاية لتطهير الأرض من كل من فى أنفه
نسمة حياة . . . من إنس وطير وبهائم ووحش . . . ولم يعد هناك سوى شمس . . . وكل
من حل معه فى الفلك الأمين . . .

وجاء اليوم السابع . . فهدأت الأمطار، وانسدت ينابيع السماء . . وبدأت المياه تنجاب عن الأرض .

وأطل شمس نishtين من طاقة في الفلك ثم صرخ عاليا . . لقد كان الناس جميعا غرقى في الطين وحيث كانت تمتد الحقول ، ظهرت هناك مستنقعات وبرك . . لم يكن هناك شىء حى . . وكل العالم لم يعد يظهر منه سوى بحر مهول عملاق .

وظل شمس يبكى، والفلك يسير على سطح الماء في اتجاه التيار، ينخفض ويرتفع والمياه تتناقص من حوله شيئا فشيئا . . حتى إذا ماضى اثنا عشر يوما ظهرت الأرض من بعد . .

وكانت الأرض التى ظهرت ، هى قمة جبل نازير .

وأرسل « شمس » غرابا يستطلع حال الأرض . ولكن الغراب برغم أنه لم يجد مكانا يحط عليه، إلا أنه انشغل في نهش الجثث الكثيرة المستلقية ، ولم يفكر في العودة إلى الفلك . .

وانقضت أيام سبعة أخرى . .

وأرسل شمس عصفورا . . ولكن العصفور ظل يطير من مكان إلى مكان فلا يبصر شجرا أو أرضا جافة ، ولم يجد مستقرا لساقيه فاضطر آخر اليوم للعودة إلى الفلك . .

وانقضت أيام سبعة ثانية . .

وأرسل شمس يمامة . . ظلت تطير وتطير باحثة عن مقر تحط عليه فلا تبصر أرضا جافة . . ولكنها ماتت تفكر في العودة حتى تبصر أشجارا خضراء ، فتحط عليها ، ثم تحمل في منقارها ورقة من غصن الزيتون تعود بها إلى الفلك . . !

وابتهج شمس . . وعرف أنه الفرج . .

وفتح أبواب الفلك، وخرج ومعه حاجاته وعائلته، وكل الأزواج الحية من حيوان وطيور.

وفي اللحظة التى لمست أقدامهم فيها الأرض ، انكفأ شمس على وجهه وخر ساجدا . ثم بنى مذبحا وقدم عليه قربان الشكر . . من أعواد القصب والبخور . .

وانطلق دخان البخور العطر فارتفع حيث يجلس الآلهة . .

وشمت الآلهة الرائحة الزكية فتعجبت . . ثم راحت تتجمع كالذبباب حول القربان .

وبين الجمع . . كانت هناك إشتار - ربة الحب والربيع - التى رفعت قلايتها الإلهية تحبى بها صاحب القربان . ثم قالت :

- باسم جواهرى الإلهية التى تحيط بعنقى ، لن أنسى هذا اليوم أبدا . سأضعه دائما فى ذاكرتى ، حتى مردك . . مردك الذى لا يريد أن يقترب من قربان الإنسان . . ورفض من قبل أن يجمع مجمع الآلهة يستشيرهم ، وأرسل الطوفان يقضى به على عبيدى المخلصين ويسلمهم للهلاك والدمار . .

والحق أن مردك لم يكن بعيدا عن القربان . فقد كان يقترب منه هو الآخر ، ويعجب لهذا المخلوق الفانى كيف نجا من الطوفان . . ويقسم أن لا بد من قتل شمس . .

ووقف الإله آى . . الذى كان قد أوحى إلى شمس ببناء الفلك فأنقذه . . وقف يدافع عن المخلوق الفانى الذى أخلص للآلهة ولم يحقد عليها ، بل كان أول ما فعله حين وضع قدمه على الأرض أن قدم لها القرابين . وانتقد آى مردك الذى لم يستشر الآلهة عندما اتخذ قراره المدمر لمخلوقات الأرض . .

واستسلم مردك آخر الأمر . واقترب من القربان . . ثم أخذ بيد شمس وزوجته وباركها . . وسوى لهما مستقرا جديدا عند مداخل أنهار الأرض . .

وعادت الآلهة إلى السموات . . ولكنها لم تنس قبل عودتها أن تكافىء « شمس » الذى قدم لها القربان وحفظ لها الجنس البشرى . .

ومنح شمس سر الخلود . . ورفع إلى مرتبة الآلهة . . وأصبح عليه أن يقيم فى مستقره عند مدخل الأرض حتى الأبد . . لا يغادره إلا فى رحلة يومية طويلة يرافق فيها موكب مردك ، ليشرف على أبنائه البشر الذين ينطلقون فى الأرض ليعيدوا إليها المجد والحياة . . ثم يعود آخر اليوم إلى مستقره ، ليستأنف مع الصبح رحلته الطويلة الخالدة من الشرق إلى الغرب . .

وانطلقت البشرية تحيا من جديد . .

أسطورة بابلية أشتار وجلجميش

تعد ملحمة جلجميش أشهر الملاحم البابلية . وتتألف في أصلها من طائفة من القصص غير الوثيقة الاتصال ، ضم بعضها إلى بعض في عهود مختلفة ترجع إلى ما قبل المسيح بثلاثة آلاف عام . وكان جلجميش بطل هذه القصة حاكما أسطوريا يشبه شمشون . واستطاع الاطلاع على جميع أسرار الكون . . وجاء بأخبار الأيام التي سبقت الطوفان . وسار في طريق بعيد شاق . ثم كتب على لوح حجري كل ما قام به من أعمال كانت هي أصل هذه الأسطورة .

كان جلجميش - حاكم أوروك - جبارا في الأرض . وكان سعيدا بقامته الممتدة العملاقة ، وجسمه الضخم المملوء بالعنفوان ، وجهاله الباهر الذي يفتن الناس . . وكان ثلثاه إلها وثلثه آدميا . فهو من نسل شمس نishtين ، المخلوق الخالد الوحيد الذي نجا من الطوفان . ولم يكن أحد يشبهه في صورة جسمه ، وإطلاعه على أسرار الغيب ، ورؤيته جميع الأشياء ولو كانت في أطراف العالم المجهول . . وكان في قلبه شوق ظامىء إلى الحب . . وبسبب مغامراته لإطفاء ظمئه الدءوب ، راح الآباء والأزواج يشكون كل يوم لربة الحب والجمال « أشتار » كيف أن جلجميش لا يترك زوجة لزوجها ولا عذراء واحدة لأمها . . ويطلبون منها حمايتهم وحماية زوجاتهم وعذاراهم .

واستجابت أشتار لتوسلات الخلق . .

وذهبت إلى الإلهة أرورو - عرابة جلجميش - ترجوها أن تخلق ابنا آخر في قوة جلجميش وجبروته ، يكون قادرا على أن يشغله في نزاع طويل ، حتى يستريح بال الأزواج والآباء في كل أنحاء أوروك . .

وقبلت أرورو رجاء أشتار . . فعجنت قطعة من الطين تفلت فيها ، ثم صورت « انجيدو » . .

وكان انجيدو رجلا له بأس الخنزير . . ولبدة الأسد ، وبأس الطير . وكان جسده

يغطيه شعر كثيف . . وفوق كتفيه ينسدل شعر طويل كامرأة . . ذهبى كسعر إله القمح .

ولم يكن انجيدو منذ خلق ليعباً بصحبة أبناء البشر. بل اعتزلهم وابتعد عنهم . . ثم عاش مع حيوانات الغاب، يرعى العشب مع الظباء، ويلعب مع مخلوقات البحر، ويروى ظمأه مع وحوش الحقول . .

وذات يوم أراد صياد يدعى تسايديو اقتناصه بالشباك، غير أنه عجز عن اقتناصه، وكرر الصياد محاولته يوماً آخر . . ولكن انجيدو كان بارعاً دائماً في الإفلات منه .

وملاً الغيظ قلب الصياد. وانطلق إلى الحاكم جلعيمش يشرح له الأمر . . ويقول له إن أنجيدو لن يقع في الشباك المصنوعة قط . ولكن شباكاً أخرى تستطيع وحدها أن تقتنصه . . هى شباك النساء !

وقال له جلعيمش :

- وما الذى تريد منى ؟ المرأة أم الشباك ؟

قال له الصياد :

- إن انجيدو يدعى أنه أعظم منك قوة، وأنا أريد أن أحضره هنا أمامك، لتثبت له أن قوته هى الضعف نفسه بجوار قوتك . . ولهذا فأنا أتوسل إليك أن تعيرنى كاهنة حسنة، تستطيع إيقاع أنجيدو في شباك غرامها . . لنقوده إليك . . !

وقال جلعيمش :

- اذهب إذن أيها الصياد وخذ معك الكاهنة « أخوتى » . . وعندما تحضر الوحوش ومعها انجيدو إلى مورد الماء تستقى اجعلها تكشف عن وجهها وساقها، واختف أنت . . وسيتم بعد ذلك كل ما تريد . . !

وانطلق الصياد والكاهنة « أخوتى » إلى حيث يستقى أنجيدو مع صحبه من الوحوش .

وعندما جاء الوحش الأدمى . . مدت الكاهنة الحلوة يدها، وشرعت تخلع أرديتها واحداً بعد آخر. ثم وقفت أمامه عارية ، في جسدها رعشات ظامئات .

وأدار أنجيدو رأسه ناحية الحسنة وتوقف . . ثم بدأ يختلس إليها النظر في شوق ولهفة . . واشتعل في أعماقه لهيب النار . . !

وحث الصياد من مخبئه الكاهنة أخوتى على أن تقترب من أنجيدو . . وتمنحه كل

ما ينسيه نفسه . . وأصدقائه . . وغابته . . !

وبقى أنجيدو مع الكاهنة ستة أيام وسبع ليال، يعب فيها السعادة . حتى إذا جاءه الملل وانتبه إلى نفسه، أطل فإذا كل حيوان الغابة أصدقائه قد انفضوا من حوله . . وتركوه . . !

وملاً الحزن قلب أنجيدو . . غير أن الكاهنة ظلت تهزه وتقول :

- أنت يا من بلغت عظمة الآلهة . . كيف يطيب لك العيش بين وحوش الغابة ونسائها . تعال معي ننطلق إلى مملكة أوروك حيث يعيش جلعيميش الذى لا يدانيه أحد فى جبروته . تعال معي أقذك إلى القصر الرائع الذى يعيش فيه الإله أونو والآلهة أشتار . . ويمنحانك سر القوة . . وسر العنفوان . . !

ووجد أنجيدو العرض مغرباً . وبدأ يتوق إلى لقاء جلعيميش . فأعلن موافقته على اتباع المرأة إلى مدينة أوروك . . وقال لها :

- تعال بنا إلى حيث أرى المكان الذى يعيش فيه جلعيميش . . أقاتله . . وأهزمه . . وأظهر له قوتى وعنفوانى . . !

وسار الثلاثة فى طريقهم إلى أوروك . . أخوتى وأنجيدو . . والصياد . . !

* * *

فى ذلك الوقت كانت أوروك تحتفل بعيد « أشتار » . . وكان الناس يصخبون ويضجون ويشربون عندما بلغهم نبأ وصول أنجيدو . . منافس جلعيميش . .

وزاد رقص الناس ، وابتهاج الآلهة . . فقد سرهم أن يهزم جلعيميش . . سارق الزوجات والعدارى . . وأن يهبط عن العرش الذى دنسه . .

والحق، لقد كان لأنجيدو من القوة ما يستطيع أن يهزم به جلعيميش . غير أن شيئاً آخر كان قد جد فى الأمر . . فقد كانت أشتار قد رأت جلعيميش . . فأعجبها . . وقررت أن تمنع الصراع الوحشى الذى كان عليه أن يخوضه . وبدت لأنجيدو فى الحلم تهمس فى أذنه أن جلعيميش أكثر منه قوة . . وخير له أن يركن إلى الحكمة . . وأن يتبعد عن الصراع . . !

ومع جلعيميش حدث الشيء نفسه . . بدا له كأن أمه قد جاءتة فى الحلم تحذره من منازلة أنجيدو، وتطلب منه أن يكونا صديقين . .

وقد كان . . والتقى من أريد لهما أن يكونا عدوين، فإذا بهما يصبحان صديقين وفيين . . وإذا بهما يسيران كل يوم جنباً إلى جنب . . يحميان أوروك من هجمات « عيلام »

ويعودان معا ظافرين بعد أن يقوموا بأبجد الأعمال . . ا

غير أن أنجيدو لم يطق حياة المدينة طويلا . .

وبدأ يضيق بها ويتمنى الرجوع إلى الغابة حيث كان يعيش . وظهر له في الحلم طيف شمس نishtين . . وأخذ يحجب إليه البقاء في الأرض ويهديه إلى الأرباح التي تعود عليه من الحياة فيها . . وقال له شمس :

- إن جلعميش صديقك وأخوك . . وسيمنحك فراشا ضخما تنام فيه ، ومقعدا كالعرش إلى جانبه الأيسر . . وسيجعل كل ملوك الأرض يركعون تحت قدميك إعجابا وتقديرا . . ا

وأطاش الإغراء رأسه . . واقتنع بالبقاء إلى جوار جلعميش . . ولم يعد يشكو بعد وجوده في مملكة أوروك . .

وحتى جلعميش . . سره وجود أنجيدو إلى جواره . . وأعلن أن السلام قد حل . . وخلع عدة الحرب ولبس الثياب القدسية البيضاء ، وزين نفسه بالشارة الملكية . . ولبس التاج . . ا

وفي تلك اللحظة أطلقت « أشتار » . . فراعها جماله وجبروته . . وراحت ترنو إليه بعينيهما الكبيرتين وتقول له :

- تعال يا جلعميش وكن لي زوجا . . تعال نتبادل كؤوس الهوى والحب ، أضعك في عربة من لازورد وذهب . . لها جوانب مطعمة بالعقيق . . وتجرها لك سباع سبعة . . وتدخل بيتنا وحولك البخور المنطلق من خشب الصندل . . تعال أمنحك السلطان . . وأجعل قدميك تحتضنان كل الأراضي المجاورة للبحر . . وأحن رؤوس الملوك كلهم سجدا لك ويأتوك بثمرات الجبال والسهول جزية يؤدونها صاغرين . . ا

غير أن جلعميش كان يعرف أشتار . . وكان يعرف لها قصصا عنيفة مخيفة . . فhez رأسه وهو يقول :

- أنت خائنة يا أشتار . . ولن يطمئن رأسي فوق كتفي إذا أنا آمنت بحبك واستسلمت لفنون عشقك . . ا

قالت أشتار:

- وما الذي تعرف عن خياناتي يا فتى . . ؟ ا

أجاب جلعميش :

- إن الجميع هنا يتحدثون عما فعله عشقك الخائن بكل من وقع في شباك غرامك . .
أحببت النسر ثم قصصت جناحيه . وعشقت الحصان حتى نفق . . ومالت كؤوس
الحب للأسد حتى فقد لبدته . .

وقاطعته أشتار . .

- ولكن هل سمعت عن تضحياتي في سبيل من أعشق وأحب . . هل سمعت عن
قصتي مع حبيبي تموز . . ؟!

وهز جلد جيش كتفيه . . وشرعت إلهة الحب والجمال تقص عليه القصة . .

* * *

كان تموز . . الفتى الراعى المملوء بالعرفوان . . من نسل الإله العظيم آى . . ولقد
شاهدته أشتار ربة الحب والجمال وهو يرعى غنمه تحت شجرة « إربد » المقدسة التى
تغطى بظلمها الأرض . فشغفت به حبا . . واختارته زوجاً لها وهى فى إبان الشباب . .

وعاش الحبيبان أمدا طويلا فى قصة حب ندية رائعة ، لم تشهد مثلها السماء قط .
حتى كان يوم خريج فيه تموز يرعى غنمه . . وإذا بخنزير برى يهاجمه ويقطعه فى مقتل . .
فهوى تموز كما هوى الموتى إلى « أرالو » الجحيم المظلم فى العالم السفلى . . !

وكانت الإلهة « أرشكجال » أخت أشتار هى التى تحكم مملكة أرالو الممتدة فى أعماق
الأرض . إلا أنها كانت تغار من أختها وتمتلىء لها حسدا . . فما كاد الفتى يهبط إلى
مملكته حتى أحكمت إغلاق الأبواب . . وأقسمت ألا يعود إلى الأرض حيا قط . !

والحق أن أشتار كانت قد قررت أن تهبط إلى أرالو فى محاولة يائسة لاسترداد زوجها
الحبيب .

وانطلقت أشتار فى رحلة طويلة قاسية ، مرت خلالها بألوان مخيفة من الأخطار . .
حتى بلغت أبواب أرالو . . وطلبت الإذن لها بالدخول .

وسمعت أرشكجال طلب أختها أشتار . . فأمرت خازن النار ألا يفتح لها الأبواب
أبدا . .

وصرخت أشتار غاضبة . . وأخذت تدق أبواب أرالو . . تهدد وتتوعد . . وتقسم أن
تحطمها وتسحق أبقالها وقضبانها إذا لم يسمح لها بالدخول .

وامتلاأ حارس الأبواب رعبا وفزعاً . وأسرع إلى أرشكجال يتوسل إليها أن تنقذه
بالسلاح لأختها بالدخول . .

وبرغم المראה والحقد للذين تكنهن أركشكجال لأختها . . فقد اضطرها الأمر أن تخفى مايعتمل في أعماقها أمام الحارس . . وسمحت له بفتح الأبواب . . غير أنها عندما أذنت له . . قالت إن هذا الإذن لايمنع أن تعامل أختها بما يقضى به قانون الآلهة . . الذى يحرم دخول أراو . . إلا للعرأة . . !

وسمح حارس النار لأشتار بالدخول . وأخذ يخلع عنها جزءا من ثيابها وحليها عند كل باب تجتازه من أبواب مملكة الظلمات .

ولم تغضب أشتار . . فقد كان حسبها الوصول إلى حيث وضع تموز . . ولا شىء بعد ذلك . . !

وعند الباب الأول خلع الحارس عن أشتار تاجها . وعند الباب الثانى خلع قرطبيها . . ثم عقدها . . ثم قلادتها . . ثم منطقتها ذات الجواهر القدسية . . ثم رداءها المزركش البراق الذى يغطى يديها وقدميها . .

وبرغم كل ذلك فما اكتفى الحارس . . بل طلب منها قبل اجتياز الباب الأخير أن تخلع آخر الأثواب . . وتمنعت أشتار أول الأمر فى رقة . . ثم خضعت له واستسلمت . . !

وهبطت أشتار عارية إلى أعماق أراو . .

وفتحت أركشكجال عينيها فى غيظ وحقد . . لقد كانت أختها فتاة خلابة رائعة . . أما هى فدميمة قبيحة عرجاء . . من حقها أن تنزل بأختها غضبها ونقمته . . !

وانتفضت أركشكجال وهى تصدر أمرا جديدا لرسولها « نمتار » :

- اذهب يا نمتار واسجنها فى قصرى . . وسلط عليها ستين مرضا . . مرض العيون على عينيها . . ومرض الجنب على جنبيها . . ومرض الأقدام على قدميها ، ومرض القلوب على قلبها . . ومرض الرؤوس على رأسها . . سلط كل ماتعرف من الأمراض على كل جزء من أجزاء جسمها البغيض . . !

ونفذ نمتار أمر مولاته . .

ووجدت أشتار نفسها داخل سجن أختها . . وفى كل عضو من أعضائها مرض خبيث . . !

ونظرت إلى الأرض حولها . . فما وجدت فوق ظهرها أثرا لأشتار ربة الحب والجمال والربيع . . وشعرت الأرض أنها فقدت كل ما كان يوحيه وجود أشتار . . فنسيت جميع

الفنون وطرق الحب . ولم يعد النبت يختلط بالنبت . . فذبلت الخضر . . ولم تشعر
الحيوانات بحرارة الرغبة قط . . حتى سكان الأرض من رجال ونساء . . انفصل كل
منهم عن الآخر . . وما عاد هناك من سبيل لإنعاج جيل جديد . . !

واخذ البشر يتناقصون . وروع الآلهة حين رأوا نقص ما يرسله لهم البشر من قرايين . .
واستولى عليهم الذعر حين شهدوا عددا كبيرا من الناس قد انصرفوا عن عبادتهم منذ
اختفت أشتار بين قضبان السجن المقيت . . !

وكان إله الشمس هو أكثر آلهة السماء حزنا على أهل الأرض . . فذهب إلى إله
الأرض آى ييكى . . وهو يحمل إليه قصة الخراب والدمار اللذين حلا على كل
المخلوقات . . كما يشهدهما كل يوم بين الشروق والغروب . .

وحزن آى للمصائب التى حلت بأرضه . . فخلق رسولا سماه آشوشونا مير انطلق
يحمل رسالته إلى أرالو . . ويطلب من أرشكجال باسم كل الآلهة إطلاق سراح
أشتار . .

وغضبت أرشكجال عندما وصلها الأمر المقدس باسم الآلهة على لسان آشوشو . .
فراحت تسبه وتلعنه . ثم أمرت به فألقى فى جب مظلم فى أعماق أرالو . . حتى
يموت . . !

ومع ذلك فما كانت أرشكجال تستطيع الوقوف فى وجه كل الآلهة . . فلم يمض
وقت حتى أمرت رسولها نمتار بأن يطلق سراح أختها الإلهة أشتار . . !

وانطلق نمتار صادعا بأمر مولاته . . غير أنه فوجيء بأشتار ترفض الخروج من
السجن ، وتقسم ألا تغادره وتعود إلى الأرض إلا إذا سمح لها بأن تأخذ معها زوجها
تموز . . !

ورفضت أرشكجال . . واستمرت الأرض قاحلة تبكى . . !

وغضب الآلهة . . . وأرسلوا أمرا آخر إلى إرشكجال بالإفراج عن تموز . . لإجابة
لطلب أشتار . . . وبالرغم منها أرسلت ربة الجحيم رسولها نمتار ليصب ماء الحياة
على جسد تموز . . . ويطلقه خارج أسوار أرالو . . ومعه أشتار . . !

وهكذا انطلقت أشتار تحتجاز وهى ظافرة ومعها زوجها أبواب أرالو السبعة . .
وتتسلم عند كل باب منها ما خلعت من قبل . . ملابس مافوق الساقين . . والمنطقة ،
وحلى الصدر . . والقرطين . . والتاج . .

وأطلت الأرض فإذا أشتار وتموز يعودان . . فعاد معهما النبات ينمو . . والحيوانات تكثر . . وانطلق كل امرئ يبغي الإكثار من نسله . . وجلست أشتار من جديد على عرش الحب والجمال والربيع . . !

* * *

كان جلجميش يستمع في ذهول إلى قصة أشتار وتموز . . غير أنه عندما انتهت من سرد قصتها، هز كتفيه وهو يذكر النهاية القاسية التي انتهى إليها تموز نفسه . فقد سمع أنه ظل يفقد كل يوم بعض أعصابه حتى انتهى الأمر به إلى الجنون . . ومات . . !
وأقسم جلجميش أن لن يستسلم قط لغرام أشتار . . ولو فعلت به الأفاعيل . . وقال لها وهو يمضى عنها :

- إنك تحبينني الآن . . ولكنك ستقضين على بعد ، كما قضيت على كل هؤلاء . . !
وصرخت أشتار وهي تضرب الأرض وتندفع نحو السماء . وانطلقت في غضبها الصاخب إلى أونو الإله الأعظم تطلب منه أن يخلق من الوحوش ثورا ماردا يقتل جلجميش . . غير أن أونو رفض طلبها وهو يقول :
- ألا تستحين يا أشتار وقد ذكرك جلجميش بكل مخازيك وفضائحك وألوان غدرك . . ؟ !

وعادت أشتار تصرخ . . وأندرت بتعطيل كل مافي الكون من غرائز الحب والنسل حتى يهلك كل شيء . .
وكانت ذكرى خراب الأرض لا تزال ماثلة في رأس أونو . . فاضطر إلى الخضوع لإرادة أشتار . . وأرسل ثورا ضخما اسمه « آلو » لينازل جلجميش . . !
والتقى « آكو » بجلجميش . .

وفي خلال الصراع العنيف الذي نشب بينهما . . كاد جلجميش يسقط ميتا . . إلا أن صديقه أنجيدو سعى إليه . . وأنقذه من براثن الثور الوحشى . . واشترك الاثنان معا في القضاء عليه . .

وأطلت أشتار من عليائها في غضب مجنون . . فرأت الثور يحتضر . . وجلجميش يقف من فوق جسده يضرب بالرمح كل أطرافه . . وهتفت أشتار :
- ملعون أنت با جلجميش . . يا من أثرت غضبي أنا التي لا أغضب . . ويا من قتلت ثورى الذى أرسلته من السماء . . !

وسمع أنجيدو لعنات أشتار . . فانقضض على الوحش ومزق أحد أطرافه ثم ألقى به على وجه ربة الحب والجمال وهو يهتف :

ـ أغلقى فمك يا ماكرة . . وإلا هاجمتك وحطمتك وفعلت بك مثل ما فعلنا برسولك . . !

وأوغر الحقد صدر أشتار . . وأقسمت تنتقم . .

ولم تمض أيام حتى كان أنجيدو قد سقط وهو في عنفوان مجده ، ضحية داء عضال . . صرعه بعد اثني عشر يوما مقبلة . .

وكانت أشتار هى التى أرسلت إليه رسول الموت . . !

ملأ الحزن قلب جلجميش ، وبدت له صورة الموت بشعة مخيفة . . وراح يفكر فى وسيلة للفرار من المصير المحتوم وبلغ به التفكير إلى شخص واحد عزيز . . لا يستطيع الموت أن يقرب منه . . إنه جده الأكبر . . شمس نشتين . . الخالد الذى يعرف سر الخلود . .

وقرر جلجميش أن ينطلق للبحث عن المكان الذى يقيم فيه شمس نشتين . . ولو اضطره البحث إلى الطواف بأطراف الأرض . .

وانطلق جلجميش فى طريقه للوصول إلى أول الأرض . . حيث تغرب الشمس . .

وبعد أن قطع فى الجبال والسهول مسيرة أيام . . بلغ جبلا ضخما تقف دونه حيوانات ووحوش ، لم تأذن له بالمرور إلا بعد أن سلب عليها الإله سن رب القمر قدرته فاستسلمت للنوم . واجتاز جلجميش الجبل المهول ليقف عند جبل آخر أكثر منه هولا وارتفاعا ، هو جبل الغروب حيث ينتهى الأفق الغربى بين الأرض والعالم السفلى . . !

وكان يحرس الجبل ماردان مهولان يلمس رأساهما قبة السماء ، ويصل ثدياهما إلى أعماق الأرض . . !

واقترب منهما جلجميش . . وعلى وجهه تتمثل كل ألوان الرعب والفرع . .

وأوقفه الماردان يسألانه عما يريد باقترابه من بداية العالم السفلى . وأجابها جلجميش بأنه يريد الوصول إلى حيث جده الأكبر . . شمس نشتين . !

ونصحه الماردان بالعودة . . فقد كانا يعلمان أن سر الخلود لا يمكن أن يصل إليه واحد من البشر . ولكن جلجميش راح يتوسل إليهما وهو يبكى . . ورق له قلباهما . .

وسمحا له بالمرور . . !

وسار جلعيمش اثنى عشر ميلا داخل نفق غارق في الظلمة . . وعندما وصل إلى نهايته كان النور قد بدأ يشرق ، ووجد نفسه أمام شاطئ بحر عظيم ، ينهض فوق مياهه عرش سبتو العذراء . . ربة البحار . . !

وناداه جلعيمش وهو يطلب منها أن تعينه على عبور الماء ، فرفضت ربة البحر . وراح هو يبكى ويتوعد . وينذر الربة بأنه إذا لم يفلح في الوصول إلى جده شمس نيشتين فسيلقى بنفسه من فوق قمة الجبل ليموت . وأشفقت عليه سبتو ، وسمحت له باجتياز البحر في قارب يقوده واحد من خدامها الأمناء . .

وبدأ جلعيمش رحلة خطيرة مرعبة . . استغرقت من الأيام والليالي أربعين ، وجد نفسه في نهايتها يقف أمام جزيرة صغيرة . . هى التى يقيم فيها شمس نيشتين . . المخلد أبدا الدهر . . !

* * *

عجب شمس نيشتين عندما رأى جلعيمش يقترب من الجزيرة . وكان البطل في ذلك الوقت قد سقط في القارب فريسة داء عضال . فأخذ يتوسل وهو في رقده إلى جده الأكبر أن يمنحه سر الخلود الذى اجتاز من أجله كل هذه المخاطر والأهوال . . وهز شمس نيشتين رأسه ، وراح يقول له :

- إن الموت هو نهاية كل بشرى . وإنه لمحرم على الإنسان أن يعرف سر الساعة التى تنتهى عندها حياته . ففى السماء تجلس إلهات القدر تغزل خيوط الحياة لكل إنسان وترسم نهايته . . ولكن متى ينتهى الغزل الخاص بحياته ؟ . وفى أى ساعة ؟ . هذا ما لا يدرىه أحد قط . . حتى الغازلات أنفسهن . . !

وأجاب جلعيمش :

- أنا لا أريد عدوانا على سلطان الآلهة . . ولكنى أعجب لماذا تخلد أنت وأموت أنا . . بينما مظهرى لا يختلف عن مظهرك . . ؟ إننى أشبهك تماما . . ولست أكثر منى حكمة ولا أرجح عقلا . . ولى قلب مثل قلبك جرىء قوى . . فكيف تدخل أنت مجمع الآلهة ولا أدخله أنا . . ؟ كيف تجد سر الخلود ولا أجده أنا . . ؟ !

ولم يجد شمس نيشتين لكى يقنعه سوى أن يقص عليه قصة الخلق . . والطوفان . . والخلود . . !

وعندما انتهى شمس من قصته . . كان جلعميش قد سقط من اليأس والإعياء في أعماق قاربه . . !

وتألم شمس نيشتين وأشفق على حفيده . ووعده أن يعيد إليه صحته ويشفيه .
وإمام جلعميش ستة أيام وسبع ليالٍ . . وخلال نومه العميق كانت زوجة شمس نيشتين تتلى عطفًا عليه ورحمة . وتطلب في النهاية من زوجها أن يرده سالمًا إلى بيته . . !
واستجاب شمس نيشتين لرجاء زوجته . . وطلب منها أن تحضر له مادة سحرية تحتوي على سبعة عناصر مقدسة ، قطرها بين شفتي جلعميش النائم في أعماق قاربه . . !

ومرت أيام ستة . . وفي اليوم السابع ، عندما استيقظ جلعميش ، عاد يطلب من جده الأكبر سر الخلود . .

وأذن له شمس بالنزول على الشاطئ . . ثم أرسله إلى ينبوع ماء ليزيل عن نفسه مفسد حياته الماضية . وتطهر جلعميش بالماء المقدس ، ثم عاد مرة أخرى إلى جده وقد أيقن أنه سيمنحه سر الخلود . . !

كان هذا هو ما حدث . . فإن شمس نيشتين أخذ بيد البطل إلى حيث يجد نبتة الخلود . . !

وكانت هذه النبتة القدسية التي تعيد الشباب وتمنح الخلود لمن يأكلها نوعا من حشائش زاحفة ، ذات أشواك تدمى من يحاول جمعها . . !

وحصل جلعميش على النبتة . . وطلب من جده أن يسمح له بالعودة إلى أوروك . . !

وهكذا بدأ رحلة العودة في القارب القدسي . . الذي يقوده ملاح سبتو المخلص ، ويحميه طوال الطريق . .

وقطع جلعميش من الطريق الأول ما مقداره ثلاثون قسما . وعندما بلغ ذلك المكان وجد جزيرة صغيرة في وسطها بئر قال له الملاح إن بها ماء عذبا يغرى بالاستحمام . .
وخلع جلعميش ملابسه . . وهبط إلى البئر يستحم . .

ولم يكن جلعميش يدري أن ثمة حية رقطاء كانت ترقد إلى جوار المكان الذي خلع فيه ملابسه ، شمت رائحة النبتة القدسية فتقدمت منها . . وانقضت عليها في لحظة . . ثم اختفت . . !

وصرخ جلعميش إذ وجد نبتة الخلود تضيع . . وعاد يبكى كطفل . . وجرت الدموع على خديه شقية مدراة . . ولكنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئا بعد . . واستأنف جلعميش رحلته حزينا نحو الأرض .

وعندما بلغ أوروك راح يطوف بالهياكل ، ويدعو الآلهة أن ترد الحياة لأنجيدو ولو لحظة واحدة يكلمه فيها .

وبرغم القرابين التي راح يقدمها للآلهة ، بعل وسن ومردوك . . إلا أن أحدا منهم لم يستجب له .

وذهب جلعميش آخر الأمر إلى الإله آى . . فعطف عليه وأمر رسوله نرجيل أن يحضر له روح أنجيدو العزيز . .

وانشقت حفرة في الأرض . . وانطلقت من خلالها روح انجيدو كنفحة الطيب . . وراح جلعميش يحدث صديقه :

— أخبرنى يا صديقى عما رأيته . . فما عدت أستطيع الخلود على ظهر الأرض ، وسأنتقل عاجلا أو آجلا حيث تقيم . فما الذى تراه هناك حتى أستعد له . . ! وأجاب أنجيدو :

— لا أستطيع أن أخبرك بسر العالم السفلى . . !

وبكى جلعميش . . وراح يلح على صديقه أن يجلس إليه ويحدثه ، ورق له روح أنجيدو . . فأخذ يقص عليه قصة الأهوال في أراو . . وكيف تجري الأمور في العالم السفلى . .

قص أنجيدو كيف ينام الشهيد الذى يقتل في المعركة . إنه يرقد على السرير ، ويشرب الماء النقى . . تحيط به أمه وأبوه وأبناءؤه وزوجته . . أما الرجل الذى يموت ، وجثته ملقاة في الحقول . . لاتجد من يقيم على جسده مراسم الدفن بعد الوفاة . . فليس له إلا اختيار طعامه من النفاية والأقذار التي يلقيها الآخرون . .

وختم أنجيدو حديثه وهو يقول :

— لقد مت شهيدا . . فسعدت في العالم السفلى . وإن أمامك الآن الخيار . . !

وفي لحظة . . انشقت الأرض من تحت أنجيدو فتلاشى . . أما جلعميش . . فقد أخذ يطل حوله ذاхла . ثم خر على الأرض . . وقد ملأته الحيرة بين الرغبة في الموت . . والرغبة في الحياة .

أسطورة بابلية شجرة الكريز

هذه الأسطورة تنازعها كل من الأدب البابلي والهندي والإغريقي . والشجرة التي تعتبر بطله الأسطورة تذكر مرة على أنها شجرة ورد ، ومرة على أنها شجرة توت ، ومرة - وهي الغالبة في كل تلك الأساطير - على أنها شجرة كريز .

ومهما يكن الأمر ، فالصفة التي تجمع كل هذه الأساطير ، هي أن دم العاشقين اللذين انتحرا ، سقى عروق الشجرة وثمارها البيضاء ، فإذا ساقها ترتدى السواد حدادا عليها . وإذا ثمراتها تتحول إلى لون أحمر . رمز الدم الذي جرى خلال حوادث المأساة !

في مكان ما على شاطئ الفرات ، تنهض شجرة ضخمة من أشجار الكريز، تتدلى من بين أوراقها ثمرات حمراء قانية كلون الدم . ومنذ آلاف السنين لم تكن تلك الثمرات تصطبغ بذلك اللون قط . بل كانت شفافة بيضاء كلون الثلج . . عندما كانت «تسيبا» و«يرام» لايزالان يلعبان ويرتعان في صخب وضجة أمام منزليهما المتجاورين على مقربة من سور بابل العظيم .

كان منزلاهما متلاصقين يشتركان في جدار واحد يفصل بين حجرة يرام في منزل أهله ، وحجرة تسيبا في بيت أهلها . وكان يرام يفوق كل صبيان بابل في وسامته ورونقه واعتدال قوامه . كما كانت ربة الحب والجمال قد خلعت على الصبية تسيبا أروع فنونها وأبجع ألوان جمالها ومحاسنها . وتعارف الجاران الصغيران وتصادقا ، وصارا يلعبان في الفناء المنبسط أمام الدارين كل يوم ، وكل ساعة من ساعات النهار، حتى اتحدت حياته بحياتها ، ولم يعد أحد منهما يستطيع فراق الآخر على الإطلاق .

ومرت الشهور والسنوات . وشب يرام ، وامتألت تسيبا واستدارت ، وبدأ كل منهما يحس في أعماقه شيئا آخر غير الود الصبياني يملأ قلبه . . ود آخر اسمه الحب . . أخذ يتمكن كل يوم من قلبى الفتين ، ويأخذ بقواهما وحواسهما . حتى ماكان أحد منهما يستطيع أن يتصور غياب زميله عنه لحظات . فهما معا طوال النهار حتى إذا جن الليل

انصرفا على عناق طويل وقبلات حنون . . وانطلق كل إلى فراشه ، وطيف صاحبه يرف عليه بأجنحة الأمانى والآمال والأحلام الرائعات .

* * *

وجاء يوم . . مرت فيه إلهة النيمة بالعاشقين الصغيرين . فملأها الحقد والغيرة لمشهد الحب الطاهر الذى يغمر القلبين الفتين . وأبى حقدتها إلا أن يعمل كما تعود على تحطيم كل ماهو طاهر ونبل . وتمثلت إلهة النيمة فى ثوب فتاة تدعى « أورانيا » تطل دارها على الفناء الذى يجتمع فيه الحبيبان معتقدين أن لارقيب عليهما هناك . وراحت « أورانيا » ، وفى أعماقها روح النيمة ، تتابع القلبين العاشقين فى نجواهما وتسارهما وتبادلها نجوى الهوى وحار القلب . وظلت الغيرة تنهش قلبها وهى تشهد كل يوم ألوان ذلك العشق البرى . وشرعت تلعب دورها الخائن الشرير .

انطلقت أورانيا تحكى لكل صديقة تجلس إليها قصة العشق بين بيرام وتسييا ، وتعظم لها فى الأمر وأخذت تلك تنقل الخبر إلى غيرها من بنات الحى مهولا ضخما . وهذه تنقله إلى أخرى أشد هولا وأكثر إثما . وكان لابد أن يبلغ الأمر آذان الوالدين اللذين لم يشكا فى ابنيها يوما قط . . !

وملأ شعور الإثم رؤوس أهليهما . . فقد دنس الولدان قدسية الأخلاق البابية ، وداسا تقاليدها التى لاتأذن لشباب أن يهفو إلى فتاة إلا بعد أخذها من سوق الزواج . .

وأسرع الوالدان معا إلى حيث قيل لهما : إن العاشقين الصغيرين يجتمعان . فأدركاهما يتعانقان ويتبادلان قبلات الحب البرى الطاهر . ولكن الأبوين لم يحسا قط ذلك الطهر . بل أخذهما جنون العار ورعب الفضيحة . . وأمسك أبو تسييا بشعرها الطويل وأخذ يجرها على الأرض حتى داره وهو يصب عليها اللعنات . ودفع أبو بيرام ولده أمامه يركله ، ويرميه على الأرض كلما نهض . وأبى الأبوان الغليظان إلا أن يجرما على العاشقين الصغيرين أى لقاء . . !

واستمرت قسوة الأبوين عنيفة رهبة لا تلين . وطفقت تسييا تتوسل إلى أبيها أن يرحمها ويقبل زواجها بحبيها . ولكن الأب القاسى أبى إلا أن يذيقها صنوف العذاب ، وما اهتم قط لتوسلاتها ودموعها ، ولا لأن قلبه أبدا برغم اجتماع كل نساء بيته عليه يستعطفن ويتوسلن والفتاة المسكينة منهارة أمامهن . . لا تكاد تدرى كيف تعيش . .

وكان بيرام يلقي المصير نفسه فى بيت أبيه . . لا أحد يرحم حبه ، ولا أحد يشفق على

قلبه وهو يتوسل أن يتاح له زواج فتاته التى عشقها وهواها فى جنون .
غير أن الحب لا يعرف الهزيمة أبدا . . بل راح اليأس يدفع الفتيين العاشقين إلى التفكير فى وسائل أخرى للقاء . . والبعد عن رقابة الأبوين القاسيين . .
وأدرك الفتیان أن حجرتيهما لا يفصل بينهما غير جدار واحد رقيق . فأخذ كل منهما يعمل من ناحيته حتى شقا ثقبا صغيرا لا يكاد يبين بين الحجرتين . . راحا يجلسان إليه ، يتشاكيان آلام قلوبيهما ، ويتبادلان أنفاس الهوى العطر . . بعد أن أصبح الثقب هو سبيل اللقاء والاتصال بين المحبين الغارقين فى الحرمان . . !

منذ ذلك الوقت والثقب الصغير يقوم جيدا بدور رسول الغرام . فهما يسهران إلى جواره الليل كله ، يتناجيان ويتهاامسان حتى يحين وقت الرقاد . . فيودع الحبيب حبيبه بأعذب الألفاظ وأرقها ، ويقبلان الثقب الطاهر ، وينصرفان ليعودا مع اليوم التالى إلى اللقاء الحبيب . . !

غير أن الثقب لم يكن يكفيهما على الإطلاق . . وماعاد يستطيع شفاء ما بقلبيهما من تهریح الهوى والشوق ، فلم يجدا بدا من ابتكار وسيلة أخرى للوصول بين قلوبيهما الصغيرين . . ولم تكن الوسيلة سوى مغافلة أهليهما خلال الليل . . وخداع حراس السور . . واجتياز أبواب المدينة . . والفرار إلى الصحراء . .
وعندما اتفق الفتیان على الوسيلة . . قررا أن يكون لقاؤهما عند قبر نينوس الملك . .

* * *

كان يظلل قبر الملك نينوس شجرة كبيرة تتدلى من بين أوراقها ثمرات الكريز . . بيضاء شفاقة كقطع الثلج . وإلى جوار الشجرة كان هناك نبع بارد الماء حلو المذاق كأنه عسل النحل . . !

وفى ظل تلك الشجرة اتفق المحبان على أن يكون اجتماعهما بعد طول فراق . .
وسكن الليل ، وغفلت العيون ، ونهضت « تسييا » من فراشها ، ووضعت على رأسها غطاء يخفى وجهها الوضىء . وسارت فى خفة تتلمس الجدران وتستهدى بها إلى باب الدار . وعندما دلفت منه امتلأت طمأنينة عذبة هادئة . . شجعته على السير بجوار السور حتى بلغت البوابة الكبرى . ولم يعد بينها وبين الصحراء سوى خطوات .
وأطلت ربة الحب والجمال من السماء فشهدت الحيرة تملأ الفتاة فلا تعرف كيف تجتاز الرتاج والحراس قائمون . . .

وبعثت الربة رسولتها لتهبط بين الحراس تشغلهم بدلالها وأغانيها وألحان مزارها .
وغفل الحراس عن الرتاج الذى انسلت منه « تسييا » كما ينسل شعاع النور بين ظلمات
الليل الداكن الطويل .

وفي حذر كبير مضت الحبيبة . . وهى تحس كأن نبضات قلبها ديب خطوات
عملاق . وكلما سمعت صوتا ، أغاثتها لمسات الحب فخففت عنها رعبها ، وشجعتها
على المضى إلى حيث لقاء « بيرام » الحبيب . . .

وبلغت تسييا آخر الأمر قبر الملك نينوس . فانحنيت على ماء النبع ، وملأت منه
كفيها فغسلت وجهها وروت ظمأها . ثم مالت لاجئة إلى ظلال شجرة الكريز المخيمة
على النبع فى انتظار بيرام .

ولم تكد تمضى بها لحظات . . حتى ملأ سمعها زئير رهيب ردد صداه الغاب .
وانتفضت الفتاة فى رعب قاتل ، وانطلقت تجرى مذعورة على غير هدى حتى بلغت
الغابة القريبة فاستترت بين أدغالها . . ونسيت فى خلال الرعب منديلها الحريرى الذى
سقط عن كتفها وهى تجرى . . واستلقى على الرمال ليرسم أول خيوط المساة . . !

كان الزئير الذى أثار الرعب فى قلب تسييا . . صوت لبؤة افترست ثورا . وعندما
انتهت من تناول طعامها أخذ بها العطش ، فانطلقت تبحث عن الماء حتى بلغت النبع
الساكن إلى جوار شجرة الكريز ، فولغت فى مائه حتى ارتوت ، وبينما هى تعود إلى
الغابة عثرت فى طريقها بالمنديل الحريرى الملقى على الرمال . .

وبدا المنديل للبؤة كأنه عدو عنيد . وزارت من جديد وهى تنهال على المنديل تمزيقاً
بأنيابها ومخالبها التى كانت قد غطتها دماء الحيوان الذى افترسته منذ لحظات . . .

وتلوث المنديل بدم الضحية المسكينة . . واستمر فى مكانه مزقا ملوثة تثير
الرعب . . !

وكان الرعب من نصيب بيرام الذى وصل فى تلك اللحظة يملؤه الأمل باللقاء
الحبيب . وكانت اللبؤة قد توارت وراء الدغل . . بينما تسييا لاتزال مختفية تتنفض رعبا
وهلعا ، ولا تجرؤ على العودة إلى مكان اللقاء . . .

وظل بيرام يطل بعينه يمنة ويسره بحثا عن الحبيبة التى لم يعرف ما إذا كانت قد
سبقتها أم لاتزال على الطريق .

وأخذت عيناه مشهدا عجبا . . لقد كان المنديل الذى أهدها لحبيته ملقى على الأرض ممزقا تلوثه الدماء .

وصرخ بيرام فى جنون . . وقد ملأه اليقين أن عذراءه قد التهمها وحش كاسر لم يترك من بقاياها سوى ذلك المنديل المخضب بالدم . .

واستمرت صرخات بيرام رهيبة موجعة تمزق سكون الليل . وطفق الفتى يضرب صدره ورأسه بيديه ويصيح :

- يا ليل تبا لك . . لقد شهدت مصرع تسييا الحبيبة . وستشهد الآن مصرع محبها
التعس الحزين . يا ليل سحقا لك . . لقد كانت تسييا أحق منى بالحياة . . ولكنك
أنت ، وربة القدر ، ورب الموت ، كلكم وحوش عمى لا تأخذكم رحمة ولا شفقة على
قلوب من تصرعون . ولكن لا أيتها الحبيبة ، ما قتلوك وإنما أنا الذى قتلتك . أنا الذى
انتزعتك من فراشك الدافئ ، وبيت أسرتك الآمن ، إلى حيث المفاز والأهوال . لماذا لم
أت قبلك يا تسييا . . إذن لكنت دونك فريسة الوحش الظلوم . أواه . . أين أنت أيها
الوحش القاتل . . أين أنت جميعا أيتها الوحوش الضارية . . ؟ تعالى . . مزى جسم
بيرام إربا إربا . . فهو الذى قتل محبوبته . . واستحق العقاب على جريمته الشنعاء .
افترسينى أيتها الضواري الكاسرة . فأنا أحق بالقتل والطعن والتمزيق . ولكن لا . .
فلن أنتظرك حتى لا يطول الانتظار . فلست أطيق أن أعيش لحظة بعد أن ذقت حبيبتى
كأس المنون . أبدا لن أنتظرك أيها الموت . فالجبان وحده هو الذى ينتظر الموت ، أما أنا
فأسعى إليك . . لست جباناً أيها الموت . . إنما أنا شجاع . . شجاع . . شجاع . . !

وانطلق بيرام فتناول المنديل المخضب بالدم ، وحمله إلى ظل الشجرة وهو يقبله ويبلله
بالدموع ومد بيرام يده فأخرج خنجره المسنون ، وانقض به على صدره يشخه . ثم انتزعه
من جرحه وألقى به جانبا قبل أن يسقط ممددا على أديم الصحراء . . مستندا على جذع
شجرة الكريز . .

ونفر الدم سخينا قانيا على جذع الشجرة وجذورها فنهلته . وتلونت ثمراتها الشفافة
بلون قرمزي كلون الدم الذى رواها . .

وظل الجسد ينفث دما . والمنديل لا يزال منضما إلى مكان الصدر منه ، وسكرات
الموت تأخذه . . .

كان كل ذلك يجرى ، وتسييا مخبئة داخل الغابة لاتدرى من الأمر شيئا . وظلت الفتاة فى مخبتها حتى أمنت عودة اللبوة ، فانطلقت تحت الخطى إلى مكان اللقاء الحبيب ، وهى تخشى أن تكون قد تأخرت عليه . . .

انطلقت تسييا وعيناها تسبقانها لترى الحبيب عند ظلال الكريز . ولكن العينين عرفت المكان . . وأنكرتا لون ثمار الكريز . لقد تركتها منذ لحظات بيضاء كالبرد ، ولكنها الآن حمراء كالدم . .

وعجزت عن الفهم . . أتكون قد عادت إلى مكان آخر غير مكان اللقاء . . ؟! أبدا . . فها هو ذا قبر نينوس الملك . . وها هو ذا النبع الذى اغتسلت بهائه وهذا هو . .

ولكن . . ماذا الهيكى المستلقى تحت الظلام القاتم لايتحرك . . ؟!

إنه بيرام . . جثة بيرام الحبيب لايزال ينبثق منها الدم . . !

وانهارت تسييا الموهلة فوق الجسد البارد تحتضنه وتقبله وتمزج دموعها بدمائه . ومن أعماق قلبها راحت الفتاة تهتف :

- بيرام . . بيرام أيها الحبيب . . أجبني يا أعز شىء فى الوجود . إننى أنا تسييا حبيبتك . ارفع رأسك قليلا وافتح مقلتيك وانظر إلى آلامى وبلواى . . !

وتحت سخونة الدموع ، اختلج الجسد البارد ، وفتحت العينان المغلقتان ، ورنا بيرام إليها رنوة ملأى بمعانى الحب والحنان واليأس . . . ثم انتهى كل شىء . . .

وعادت تسييا تصرخ وتبكى وتنهار . وثقل الجسد البارد لعلها تستطيع رد الحياة إليه . ومست كفها المنديل الذى كان لايزال فى يد الحبيب المقتول .

إنه ممزق مخضب بالدم . . وهذا الخنجر . . كيف . . كيف . . ؟!

وأدركت تسييا كل ماكان . . وعادت تصرخ فى جنون :

- بيرام . . إذن أنا التى قتلتك . . ومنديل التعس كان هو السلاح الذى ألقى بك إلى التهلكة . إننى أنا المجرمة يا بيرام . . حبى هو الذى سفك دمك . . ولكن لا . . أبدا يا بيرام . . أنا أعرف هذا الحب الذى قواك على أن تموت . . إنه هو الذى قوى يدك على خنجرى لتخترق به قلبك . . أنا أعرفه يا بيرام . . وأعرف أنه سيمنحنى القوة أنا أيضا لألحق بك أيها الحبيب . . بيرام . . بيرام . . إن تسييا تسرع إليك . انتظرنى يا بيرام . . فهأنذى آتية إليك . . أما أنت يا والدى . . وأنت يا والدى . . إننى

أرفع إليكما رجاء ولديكما التعسين : ألا تفرقاها ميتين كما فعلتا بهما من قبل حين .
 أتركاها في قبر واحد يضمهما كما لم يستطع شيء حتى أن يجمعهما قط . . وأنت . . أنت
 أيتها الشجرة المسكينة التي شهدت مصرع حبيبي . . إنك ستشهدين مصرعي أنا
 الأخرى . . فاحفظي أثر استشهادنا في الحب . . التفى حتى الأبد بعباءة الموت
 السوداء حزنا علينا . . واحملي ثمارك حمراء قانية . . تشهد بسوء طالع عاشقين سقيك
 بدمائهما التي سفكتها أيديهما .

وانطلق الخنجر من جديد في صدر تسيبا . . ليلقى بها ساخنة ينبثق منها الدم فوق
 جثة بيرام .

وبكى رب النسيم وهو يحمل إلى آذان الآلهة ، وآذان الوالدين ، صرخات شهيدة
 الحب وتوسلاتها . فرأفت بها الآلهة ، وجمعت روحها مع روح حبيبها معا في الفردوس
 الخالد . . حيث نهار دائم ، ونور نقي ، وفرح لا يزول . . .

أما الأبوان . . فقد انطلقا معا يحرقان جسديهما الطاهرين . . ويضعان الرماد في إناء
 واحد دفناه في قبر تحيطه الأزهار والرياحين . أما شجرة الكريز . . فقد التفت بملاءة
 حزينة سوداء . وظلت ترسل ثمراتها التي كانت ذات يوم بيضاء ، فإذا بها منذ ذلك
 اليوم حمراء قانية . . بلون الدم . .

أسطورة فارسية الملك رضوان والأميرة شهرستاني

لم تعرف الأساطير الفارسية أروع من هذه الأسطورة الخالدة في دنيا الحب والوفاء . . . والتي لعبت فيها يد الخيال الشرقى ما لعبت على مر الأيام . . . حتى انتهت الأسطورة آخر الأمر لتكون أصلاً لوجود بلقيس . . . ملكة سبأ . . . وزوج النبي سليمان الحكيم . . .

كان الملك رضوان شاد يقف مرسلًا بصره في ذهول نحو القصر الذى نهض شامخاً عملاقاً ، يتلأأ من جوانبه النور ، وتنبعث من نوافذه أهازيج موسيقى شجية رائعة كألحان السماء .

ولم يكن ذلك الدهول الذى استولى على الملك عن عجب لمراى القصر . . . ولكن الذى أثار ذهوله هو أنه لم يكن هناك شىء من ذلك القصر قبل بضع ساعات ، حينما استلقى على جانب النبع فى انتظار خروج الجنية التى ألقت بنفسها فى الماء حين تابعها بجواده ، وظل يتربص بها أن تخرج وهى تأبى أن تغادر الماء حتى أخذته سنة من النوم استسلم لها . . . ثم لم يكد ينتبه منها حتى وجد ذلك القصر العجيب قائماً حيث كان النبع . ووجد نفسه مستلقياً على أبوابه وإلى جواره « مؤذن » وزيره ورفيق صيده . . . !

وعاد الملك رضوان شاد بذاكرته إلى أولى ساعات ذلك الصباح . . . كان قد غادر قصر ملكه بعاصمة الصين إلى رحلة صيد كعادته كل يوم . . . ومن حوله رجال الحاشية . . . وإلى جواره الوزير « مؤذن » . وبينما هم يخرجون من الأحراش إلى العراء . . . إذ بدت لهم ظبية حلوة تختال طرباً . . . لم يكد بصر الملك يقع عليها حتى غمز جواده بمهمازه . . . وانطلق خلفها أسرع من الريح . . . ولم تكد الظبية ترى مطاردها حتى انطلقت تجرى وتثير من خلفها الغبار . إلا أنه برغم ذلك كله كاد يلحق بها ، فلما وجدت أنها تكاد تقع بين يديه قفزت فى النبع وغابت عن ناظره فى الماء .

وتوقف الملك بحصانه إلى جوار النبع وترجل . . . ثم راح يحبس الماء بعصاه بحثاً عن طريدته . . . فلما لم يجد لها أثراً ، تأكد له أنها جنية تقمصت صورة ظبية حتى تستطيع

العبث خلال دورانها بقلوب الصيادين . وعندما بدت له تلك الحيلة أمر رجال حاشيته بالعودة إلى القصر . وظل ينتظر هو ووزيره إلى جوار الماء حتى تخرج الظبية . . إذ كان معروفاً أن الجنيات لا تستطيع البقاء طويلاً في نبع به ماء محدود . . .

واستلقى الملك مع وزيره إلى جوار النبع في انتظار خروج الجنية . . ولكن الجهد الذي كان قد أخذ بهما كان لا بد أن يسلمهما خلال استلقاءتهما إلى نوم عميق . . ما كادا يستيقظان منه حتى وجدا نفسيهما واقفين في ذهول يحملقان إلى القصر الذي انتصب فجأة أمامهما . . كما ينتصب عملاق مهول . . !

وقال الملك يحدث وزيره في ذهول :

- إننى لأكاد أفقد عقلى لمأى ذلك القصر العجيب . . أتري ماردا من عفاريت الجن ذلك الذى أقامه . . ؟! أو هو قد شبه لنا من طول ماتعبنا وشربنا خلال رحلة الصيد . . ؟!

- ما أظنه يا مولاي سوى عمل ساحر . . ييغى من ورائه هدفا خسيساً أو مؤامرة مدبرة . فلنذهب بعيداً يا مولاي قبل أن يلعب السحر بالعقول فنستسلم له كما استسلمنا للظبية اللعينة الماكرة . !

قال الملك :

- بل لابد من ولوج أبواب القصر بحثاً عن الظبية وجرياً وراء معرفة ما يحتويه ذلك القصر من أسرار . . !

واضطر الوزير للاستسلام لأمر ملكه . . وانطلقا معاً في الطريق إلى باب القصر حيث اجتازاه . . وإذا بهما يتوسطان قاعة واسعة ، كل محتوياتها ذهب وفضة وعقيق ، ومن كل ركن من أركانها ينتشر عطر كعبير الجنة . . واجتازا القاعة ليجدا نفسيهما في قاعة أخرى أكثر من الأولى سحراً ورونقاً . . تتوسطها بحيرة لامعة من زئبق حى . . يترجح من فوق سطحها عرش من ذهب موشى بلؤلؤ وألماس . . تجلس فوقه حورية حسناء كالبدور . . تحيط بها خمسون غادة في ثياب من دمعس وحرير . . يغنين ويرقصن . . ويعزفن ألحانا كأنها السحر لم تسمع مثلها الأرض أبداً .

كانت هذه الصورة التى طلع عليها رضوان شاد أروع مما كان يمكن أن يخطر له ببال . . ووجد نفسه ينحنى حتى ليكاد يركع على الأرض أمام سحر النور الذى يشع من وجه المرأة . وانطلق من بين شفثيه كلام كالهمس :

- رحماك يا من تجلسين على عرش من ذهب ، وتأسرين بنور وجهك كل القلوب .
 رحماك يا من جعلت ملك الصين يركع عند قدميك أسيرا تحت سهام لحظك الفتاك . .
 من تكونين أيتها الحورية التى تعجز عن الإتيان بمثلها الأزمنة والأجيال . . ؟
 أجابت الحورية من فوق عرشها الذهبى :

- أنا من تبعته بسهامك وأردت أن تكتب لها الموت بحد رحك . أنا الظبية التى
 أغرتك وسأقتك إلى حيث تعيش ، من أجل صرخات حب صاحب فى فؤاد عريد . .
 قال الملك :

- ولكن كيف يكون هذا التحول . . ومن أين أدرك أن حبي لا يقع فى شرك مسحور
 من أجل لحظات كسنا البرق قصار . . ليلقى به بعد ذلك فى أتون من النيران . . ؟
 ونهضت الحورية وهى تقول للملك :

- لا تخش قلبى أيها الملك . . فهو لم يعرف السحر قط . . وما تحولى من صورة إلى
 أخرى سوى آية وهبتها السماء منذ طلعت عيناى على النور . . .
 ومدت الحورية يدها إلى الملك تنهضه وتأخذ به من حجرة إلى أخرى . . حتى انتهيا
 إلى قاعة تتوسطها مائدة حافلة بكل فاخر من طعام وشراب . . لم يكد الملك ووزيره
 يجلسان إليها حتى أحاطت بهما كل القيان الحور ، يقمن على خدمتهما ويعزفن ويغنين
 ويرقصن . . ويرفضن أن يمددن أيديهن إلى المائدة إذ هن لا يجدن ربا وشعبا إلا فى
 الفيا فى والقفار . . !

وطعم الرجالن حتى شعبا ، وتساقيا الخمر حتى ارتويا . . حين شرعت الحورية
 تحدث الملك وتقول :

- ما أحلاك أيها الحبيب ! إننى أنا التى تبثك الهوى برغم مولدى القدسى وأصلك
 الأرضى . أنا يا من خلقت من نار لم أستطع منذ رأيتك أن أطفىء لهيب قلبى الذى
 اشتعل حبا لك وشوقا إليك . أنا شهرستانى وحيدة ملك الجن مينوتشير الجالس على
 عرش جزيرة شهرستان . . أجد نفسى أسيرة هوى لرجل من الإنس لا يمت لى بصلة
 ولا بنسب . . فاستسلم لهواه ولا أهتم لمضى الزمن ، وقد كان يجب أن أكون بالأمس فى
 دار أبى الذى غادرته منذ شهور ثلاثة ، أضرب فى الأرض وأطوف أنحاءها لأشهد
 مملكة الإنس التى لا تشبه فى شىء أبدا مملكة أبى الجنى . ثم وقع بصرى عليك أيها
 الإنسى وأنا فى طريق العودة إلى ديارى فها استطعت أن أمنع قلبى من السقوط عند

قدميك . . وما عرفت كيف أقع وأنا الجنية في هوى إنسى قد من طين وماء . . وهممت أن أعود إلى جزيرة أبى في أعماق البحر ، إلا أننى وجدت قدمى مقيدتين إلى الأرض التى أنت عليها فلا أستطيع لهما فكاكا . . وهنا قررت الاستسلام لسهام حبك فانطلقت إليك أغريك في صورة ظبية . . فتبعتنى ولم تقصر في العدو خلفى ، بينما كنت أزيد في إغرائك ودعوتك وأنت لا تدري ، حتى ألقيت بنفسى داخل النبع وأنا أعلم أنك لن تذهب حتى ترى من تكون تلك الظبية التى أوقعتك في شراكها . . ولقد صدق حدسى إذ رأيتك تتحسس الماء بعصاك فصفقت طربا . . وازداد حبى لك وأنا أسمع في الأعماق منك تصميميا على قضاء الليل إلى جوار النبع . . فألقيت على عينيك غشاوة النوم ، ثم أمرت بتشبيد ذلك القصر لنقضى معا فيه أيام حبنا مترعة كأجل وأحلى ما يكون الحب . . فهل أنت راض الآن عما فعلت ، أم تراك ساخطا بى غاضبا على لما بعدت بك عن عاصمة ملكك وحبيب أهلك . . ؟!

وانتفض الملك وقد توزع قلبه بين عرشه وناسه وبين تلك الحورية التى اعترفت له بكل ما يملأ قلبها من هوى صاحب عرييد . . .

وسجد رضوان شاد أمام فاتنة الجن وهو يقول :

- أيتها الحورية الحبيبة الطاهرة . . ماذا يكون عرشى وناسى إلى جوار أبهى وأعز وأفتن من وقعت عليها عيناي . . ؟! إنما أنت الهواء الذى أتففس والنور الذى به استضى . . إن يوما واحدا نقضيه معا في قصرك العلوى ، لأشهى إلى من قضاء دهر كامل في جنان فردوس خالد . . هنا وإلى جوارك . . سأعيش . . ولن يكون في ذاكرتى من أمور تلك الأرض شيء إلا ما يذكرنى بهذا اليوم الحبيب الذى ساقطك فيه إلى ربة الحب الخالدة ، وسمعت فيه عذب الهوى وحر الحنين . . !

وهنا . . في تلك اللحظة بالذات . . فتح الباب وألقت إحدى الوصيفات نفسها تحت قدمى شهرستانى . . ومن عينها تجرى خيوط طويلة من الدموع . وقالت الوصيفة في صوت كان يحمل في أعماقه رفيف الموت :

- لك المجد أيتها الملكة . . فقد انتقل والدك الملك من الحياة الفانية إلى الحياة الخالدة . . والشعب كله ينتظر عودتك بفروغ صبر . . ليضع على رأسك التاج قبل أن يغتاله عمك الذى طالما طمع في عرش أبيك . فلنعجل يا مولاتى ولا نتأخر فما عاد هناك وقت نضيعه . . !

ومن أعماق شهرستاني ندت صرخة تجاوب رجعتها بين الجبال والوديان . وانهارت على صدر رضوان شاد في نشيج متقطع ملهوف . ولم يكن بد من أن يكفكف الرجل من عبراتها ويمسح بعطفه دموعها الساخنا . . غير أنها كانت قد استسلمت للقدر الذي قدر لها غير ما كانت تريد . . وراحت تقول له والكلمات تخرج شقية ذاهلة من خلال الدموع :

- أيها الحبيب الذي لن أنساه . . لا بد لي من الاستسلام لحكم القضاء ، والذهاب إلى حيث أودع عن شعبي المسكين ما قد يصيبه إذا اندفع عمى في شره ليستخلص لنفسه عرش الجدود . فوداعاً أيها الحبيب العزيز . . ولكن ثق أنني لن أنساك . . وسأعود ذات يوم لأراك . . فإذا وجدت قلبك لا يزال قائماً على حبي وفيها لهواي فأعدك ألا أتخذ سواك زوجاً أبداً . . !

ولم تكذ تتم كلامها حتى اختفت عن الأنظار . . وتحول القصر الذي كان يتلأأ منذ لحظات ، فإذا به خواء كأن لم يكن هناك شيء سوى ظلمة دامسة ، تغمر بسوادها أقطار الأرض ورحابها . . !

* * *

عندما عاد رضوان شاد إلى قصره ، لم يكن قط ذلك الملك الذي كانه قبل أن يلتقي بشهرستاني . . تحول الملك العريد زاهداً وقوراً ، تحط الأعباء فوق كتفيه وكأنه لم يعد بعد صاحب الأعوام الثلاثين وحسب . وبعد أن كان الملك لا يقرب الغابة إلا إذا كان يوم صيد . . إذا به ينطلق في أعماق الغابة كل يوم ، يجلس حالماً إلى جوار النبع الذي اختفت فيه الظبية الحبيبة . . لعلها تعود فتخفف عن قلبه حين الجوى ونار الفراق . . !

ومضى عام وبعض عام .

و ذات يوم . . بينما كان الملك جالساً إلى جوار النبع ، إذا به يختفى فجأة . . ولا يترك أثراً لكل من حاول البحث عنه . .

وضج الشعب ، وجن الوزير ، واضطرب القادة . . ولكن أحداً لم يستطع الاهتداء إلى حيث اختفى الملك . . وما عرفوا قط هل ذهب مختاراً إلى المجهول ، أم هو لقي حتفه وتقطعت أوصاله في أعماق وحش مهول من وحوش الغابة التي كان يقضى في أعماقها كل أيامه ولياليه . .

شخص واحد فقط كان يستطيع أن يحبس ماكان . . غير أنه ما استطاع قط أن يصدق حدسه ويؤكدده ، وهو لم يكن مع ملكه ساعة اختفى في خضم المجهول . .

ولقد صدق حدس الوزير . . فقد تأكدت شهرستاني ، وهي بعد على عرشها ، من وفاء رضوان شاد وإخلاصه لحبها وهواها ، فأمرت جنودها من الجن باختطافه من مجلسه إلى جوار النبع ، ونقله إلى قصر ملكها في جزيرة الجن . . وهناك . . التقى الحبيبان . . ونسى رضوان شاد أمر عرشه وأمر ناسه كما سبق أن وعدها من قبل . . وأبت هي الأخرى إلا أن تنفذ الوعد الذي قطعت له . . وهو أن يتزوجا برغم أنه إنسى من طين وماء . . وهي جنية من نار وهواء . .

وأطلقت شهرستاني المنادين في جزيرة الجن يدعونهم إلى ساحة قصرها الكبير . . وعندما التأم شمل الجميع ، وقفت الملكة في شرفة القصر وإلى جوارها رضوان شاد في أديمه الإنسى ، وأخذت تقول :

- بحق أبى الذى أقسمت على طاعته ، وحيثم له عرشه ، وحفظتموه لابنته التى كانت قد انطلقت لتشهد مملكة الإنس بعيدا عن جزيرتكم المحبوبة . . وبحق ذلك القسم الذى أقسمتموه اذ تقلدوننى تاج أبى ، أن تحولونى كل سلطة على مملكة الجن والخور . . أمهى إليكم رغبتى فى الزواج من رضوان شاد الملك الإنسى الذى هجر ناسه وعرشه ليكون إلى جوار ناسى وعرشى . . فإما أن تجعلوه منكم بمثابة الرأس معى وتضعوه حيث وضعتونى . . وإما أن تتركونى أذهب إلى مملكتي ، حيث أجلس معه على عرشه ، وأشارته حب ناسه وذويه . . !

وهتفت جموع الجن صاخبة :

- بحق القسم الذى أقسمناه ، نبارك زواجك ونؤكد لزواجك ولاءنا وإخلاصنا ، بنفس الإيمان والقوة التى أكدنا بها إخلاصنا لك وولاءنا لعرشك . . !

ولم يمض يوم واحد حتى كانت مملكة الجن كلها تتلأأ بأضواء الفرح فى انتظار الاحتفال بعقد قران الملكة شهرستاني والملك رضوان شاد .

وجلست الخورية تحدث الرجل الذى اختارته :

- قبل أن ترتبط بى حتى النهاية . . أريد أن أنبهك إلى أشياء قد تعجز عن الوفاء بها فيكون أولى بنا منذ الآن أن نفرق . .

قال لها :

- أبدا أيتها الحبيبة . . فأيا تكون هذه الأشياء فلن تعجزنى عن الوفاء بها ، مادام ذلك العجز يبعدنى عنك ويقربنى من الفراق . .

قالت شهرستانى :

- إنه لأمر شاق ذلك العهد . . وإنك إذا نكثته فستسبب لنا كلينا شقاء ووبالا يدومان حتى ينتهى بنا العمر . . ولست أخشى إلا أن يشق عليك الأمر فتنكث يمينك . .

وعاد رضوان شاد يقول لها :

- أنا طوع أمرك ورهن إشارتك . . وهل يخطر ببالك أننى . . أنا الذى ماكان من عادتى قط أن أنكث عهدا قطعتة مهما قل شأنه . . أن أنكث عهدا أقطعه لك أنت يا من تملكين روحي ونفسى . . !

وسكتت الملكة بضع لحظات تستوحى الغيب . . ثم عادت تقول للملك :

- إن الذى أريد أن تعاهدنى عليه هو ألا تتدخل فى أمر آتية هان شأنه أو عظم ، فنحن حوريات الجن لنا من طبائعنا ما يختلف تماما عن طبائعكم . . ويبدو لكم من تصرفاتنا ما لا يمكن أن تستسيغه عقولكم . . فحذار أن تعترض على أمر آتية أو أدعه . . وحذار أن يملأك غيظ وضيق أو تبدى تدمرا لشيء أفعله . . فإن ذلك يقطع كل ما بيننا وتنتهى أيام زواجنا وكأنها لم تكن على الإطلاق . فهل أنت قادر على الوفاء بالعهد فلا تلومنى ، أو تغضب منى مهما فعلت . . أم إنك لابد نائر غاضب فتسبب لنا ما لا نطيق . . ؟!

أجاب رضوان شاد وهو يضحك :

- أياكون ذلك هو كل ما تحذرينى منه وما تحشين أن أقع فيه . . ؟! أبدا أيتها الحبيبة . . ليمتلئ قلبك ثقة بقدرتى على الوفاء بالعهد ، وإيماناً بأن ذلك الأمر الذى تعتبرينه شاقا ليس أسهل منه لدينا نحن بنى البشر . . !

وعادت شهرستانى تتأمل الغيب فى مسحة من الحزن ثم قالت :

- أواثق أنت أنك لن تعترض قط على فعل آتية ولو بدا لك شاذا مجانباً كل الصواب ؟ أواثق أنت أنك ستكون مقتنعا من أن ما أفعله إنما هو ضرورة تملئها على شريعتي وعقائدى ، وتجبرنى على ألا أكشف أمرها لجنى ولا إنسى قط . . ؟!

وانحنى رضوان شاد فلثم كفيها وهو يقسم أن يكون عند حسن ظنها راضيا بكل ما تفعله غير معترض على شيء تأتية . .

واقترنت الملكة . . وصار رضوان شاد شريكاً لها على عرش الجن . . !

* * *

وانقضى عام . .

و ذات يوم . . أغلقت الملكة على نفسها الباب ومنعته من الدخول . . وعندما فتح الباب من جديد كانت الملكة تحمل وليداً رائعاً كأنه البدر . . راح يقبله ويحتضنه ويكاد يرقص من الطرب . . وتناولت الأم منه الطفل ثم وقفت بقرب نار تضطرم في ركن القاعة . . وراحت تتمتم بالفاظ غريبة لم يستطع أن يفهم منها شيئاً قط . ثم فجأة . . مدت يدها بالوليد وألقت به في النار التي ما أسرع ما ابتلعت ثم خمدت وكأن لم تكن هناك نار على الإطلاق . . !

وكادت الصرخة تنطلق داوية من فم الملك . . لولا أن انتبه إلى نفسه في اللحظة الأخيرة ، وتذكر العهد الذي قطعه فكتم ألمه ، ورسم على شفثيه بسمة الرضا ، حين كان في الأعماق منه اضطراب مجنون .

وانقضى عام آخر . .

و ذات يوم وضعت الملكة مولودة جديدة أروع جمالا من الملكة نفسها . . وراح الملك يحتضن بلقيس ويقبلها ، وهو يتوقع في كل لحظة أن تأخذها الملكة منه فتلقئها في النار . . غير أن شيئاً من ذلك لم يقع في ذلك اليوم . . فاطمأن قلبه وامتلأ حبا لزوجته وابنته . وما عاد يطيق فراق أى منهما لحظة واحدة . .

غير أن الملك فوجئ بعد أسبوع بكلبة عملاقة تدلف من باب القصر . . فاعرة فمها الكبير ، ثم تنطلق لتلقى أمام الملكة التي لا تكاد تراها حتى تلقى ببلقيس بين فكيها .

وكاد الملك ينفجر . . وارتفعت يده تكاد تنقض على الكلبة ، والملكة معا ، لولا انتباهة جعلته يدير يده وكأنه يحبى الكلبة قبل أن تمضى . . ثم انطلق إلى مخدعه وأغلق من خلفه الباب . . وراح يبكي وحده ويقول :

- أواه منك أيتها السفاحة القاسية . . ألا ما أقدر ضميرك وأحط نفسك وأنت

تحرقين ولدك وتلقين بابنتك فى أفواه الكلاب ، أكون كل هذا لأن تقاليدك تأبى أن يكون لك أبناء من إنسى ليس من جنسك . . ؟! ألا ما أفضحك أيتها الملكة . . وألا ما أحقرنى إذ أطيق أن أرى ولدئى يلقي بها إلى ذلك المصير . . ولكن لا . . إن لصبرى حدودا أيتها المرأة . . ولن احتمل قط أنا البشرى ماتسيغه لكم شرائعكم المخيفة وعاداتكم الرهيبة . . !

وانطلق رضوان شاد - وقد رسم على وجهه بسمة الرضا وكأن شيئاً لم يكن يدور فى أعماقه منذ لحظات - وراح يحدث الملكة فى شؤون مملكتها . . ثم بدأ يدير دفة الحديث لينقله إلى ما يضمير ويريد . .

قال الملك لشهرستانى :

- لكم شاقنى أمر مملكتى وما دار فيها منذ تركت شعبى المسكين حائرا فى مصرى خائفا مما يكون ألم بى . . ألا ليتك تأذنين لى بالذهاب إليهم أطمئنتهم وأنظم أمورهم ثم أعود . . !

وابتسمت الملكة وهى تجيب :

- فليكن لك ماتريد أيها الحبيب . . ولقد كنت أنا نفسى بسبيل أن أطلب منك ذلك ، إذ بلغنى أن بلادك فى حاجة إليك وقد استعد المغول لمهاجمتها والسير إليها فى جيش لم تر مثله الأرض قط . . اذهب أيها الملك لتحمى شعبك الذى لن يستطيع أن يقف وحده فى وجه المغول إلا إذا كنت على رأسه . . أما أنا يا زوجى العزيز فسأحرص على أن ألحق بك لأطمئن على نجاتك . . والنصر لك . !

وصفقت الملكة ، فبرز أمامها مارد من الجن لم يره من قبل . . أصدرت له أوامرها بنقل الملك إلى قصره الأرضى . .

ولم يكد الملك يطرف بعينه ، حتى وجد نفسه جالسا فوق عرشه فى عاصمة الصين . . !

فى ذلك الوقت كان الوزير مؤذن يحكم الصين باسم الملك الذى غاب فجأة قبل ذلك بستين . فلما أطل الوزير أمامه ووجد الملك جالسا على العرش فتح عينيه كأنها رأى الشيطان . . ولكنه انتبه إلى نفسه بعد لحظات ، فجثا أمام العرش ، ثم مد ذراعيه يحتضن الملك الذى كان يملؤه العجب من ولاء وزيره ووفائه . . إذ حرس العرش وحفظه شاغرا رغم طول ماضى من شهور وأعوام . .

وراح الملك ووزيره فى خلال فرحتهما باللقاء يتحدثان عما مر بهما من أحداث .
وفجأة . . فتح الباب ، ودخل أحد القادة يعلن اقتراب جيوش المغول .
ونفض الملك ووزيره فألقيا عن كاهليهما حديث الماضى ليواجها الحاضر فى ثبات .
وتجمعت جيوش الصين صاحبة هادرة ، وانطلقت وعلى رأسها الملك ووزيره لملاقاة
المغول فى أرض رحيبة ، بالقرب من الحدود . . بينما كان القائد « ولى » يعد قوافل المؤن
من ثمار وخبز وطعام وفاكهة وزقاق من خمر ، يجمعها ويرسلها مددا للجيش الذى
وقف فى انتظار وصول المغول . .
غير أن قوافل المؤن لم تكن تبلغ مقصدها أبدا . . فخلال الطريق ، وقبل أن تصل إلى
مكان تجمع الجيوش . . كان هناك جيوش أخرى من الجن وعلى رأسها شهرستانى
تهاجم القوافل فتفرقها وتلقى المؤن على الأرض تفسدها ، وتبقر قرب الماء والخمر
فتهرقها . . وتصير المؤن كلها بددا . . !
وتكررت الهجمات على قوافل المؤن حتى كاد القائد « ولى » يجن . . وحينئذ برزت له
شهرستانى فى زيها الإنسانى وصرخت فيه :
- إذا كنت غاضبا مما أفعل ، فاذهب إلى ملكك وقل له إن التى تعيث فى المؤن فسادا
وإتلافا ليست سوى زوجته . . ! !
وانطلق « ولى » فى غضبته يخبر الملك . . . فأخذت به ثورة عارمة جبارة لم يطق معها
صبرا على تصرفات الملكة التى لم يعد يهمها أن يقضى جيشه كله جوعا وعطشا . . ولم
يكن الغضب المجنون قد زال عنه حين ظهرت له زوجته . . فلم يدع لها فرصة الكلام ،
بل انطلق فى وجهها صارخا متجهما :
- لم أعد أطيق ماتفعلينه ياسيدتى . . فدون ذلك خرق الموائيق وفصم الوعود . .
أما كفاك أن أحرقت ولدى وألقيت بابنتى فى أفواه الكلاب . . فتذهبين إلى أبعد من
ذلك وتسعين إلى قتل جيش بأسره بتحطيم مؤنه من طعام وشراب . . ؟ ! أما كفاك
ياسيدتى أنك تريدني قتلى أنا نفسى فما أستطيع أن أقف حيا وسط جيش يموت ،
نواجه جيشا بأسره من المغول لايبيدون . . أهكذا تكافئيننى على وفائى وتضحيتى أيتها
الخائنة الجحود . . !
وكانت الملكة فى خلال ذلك قد فتحت عينيها فى ذهول وقد علتها صفرة كالموت .
ولم يكد الملك ينتهى من كلامه حتى قالت الملكة تحدّثه فى صوت مفزع رهيب
أجوف . . !

- واأسفا أيها المسكين . . لقد كان يجدر بك أن تلزم الصمت فتحفظ الوعد الذى قطعته من قبل . . ولكن . . واحسرتاه . . لقد وقع ، مالم أكن أريد أن يقع قط . . .
وحدث مالم يكن ثمة حيلة فى اتقائه . فلتسمع أيها الإنسى المسكين . . إن هذه النار التى ألقيت بولدنا إليها لم تكن سوى « سمدير » ربة الشتاء اللبقة الحاذقة . عهدت إليها بتثقيف الأمير . . وهذه الكلبة التى ظننتنى ألقى بابتنى فى فمها . . لم تكن سوى حورية المملكة التى تتولى تلقين الأميرات أصول الآداب والفنون . . ولقد أتمت كل منها ماعهد به إليها . . وأعادت الولدين كخير مايكون الأمراء . . !

وصفقت الملكة فإذا وصيفتان من الحور تدخلان وبين أيديهما الأمير والأميرة ينطلق من محيا كل منهما نور وضىء . . وجثا الملك على ركبتيه يعانقهما ويحتضنهما . . حين استمرت شهرستانى تقول :

- أما المؤن التى تظننى أتلقتها ، فلم تكن سوى مؤن مسمومة كانت كفيلة بالقضاء على جيشك وأنت معه . . فقد دس فيها قائدك « ولى » السم الناقع بعد أن تأمر مع ملك المغول وأخذ رشوة مائة ألف دينار ذهباً . . وإذا لم تكن تصدقنى فلتحمل القائد على تناول شىء من المؤن ولتر مايجل به . . !

وأمر الملك بإحضار بعض المؤن وختم القائد لايزال عليها . . فقدمها إليه وأمره أن يطعم منها . . غير أن القائد رفض ونحاشها عن فمه . . واستل الملك سيفه وهو يأمره بأن يأكل وإلا فصل رأسه عن جسده . . فأضطر القائد للاستسلام . . ووضع فى فمه بعض المؤن ، فلم تكذب جوفه حتى سقط ميتا فى الحال . . !

وبينما كان الملك يمتلىء اقتناعاً ، كانت هى لاتزال تستأنف الحديث الذى بدأته :

- لعلك اقتنعت الآن أن الجن لايقدمون على شىء لاموجب له . . !

أجاب الملك وهو يعتذر فى حرارة وألم :

- لكم ظلمتكم يا حبيبة . . وما كان أفسدها ظنوننا وأسوأها تمها ، تلك التى ألقيتها على رأسك . . ولكن . . ما الذى نفعل الآن بذلك الجيش الذى يقف مضطراً لمواجهة معركة رهيبة بغير زاد أو ماء . . ؟ !

أجابت شهرستانى :

- لانتخش شيئاً يا ملك الصين . . . فما عاد جيشك بحاجة إلى مئونة والمركة ستدور

بعد ساعات . . وتنتهى بتمزيق أعدائك وتحطيمهم ، وعودتك إلى عاصمة ملكك فائزاً منصوراً . . !

وكان هذا هو ما حدث حقاً . . فما كاد الليل يتتصف حتى انقض المغول على جيوش الصين . وهنا تقدمت شهرستانى على رأس عسكرها من الجن وانقضت على جيوش المغول تشخن فيهم قتلاً وتكتسحهم كإعصار . .

وفوجئ الملك المغير بجيوشه تتمزق وتنهار . . ولم يجد أمامه سوى أن ينجو وحده . . فطار بفروسه هارباً من الميدان . . حين كانت جيوش الصين ، وقد أسكرها النصر، تستولى على كل ممتلكاته المغول من زاد وعتاد . . وذهب وفير . . !

وبينما رضوان شاد يقف على باب خيمته يستقبل زوجته وقائدة جيش الجن . . إذا بها تقف منه غير بعيد . . ثم تقول له وفى نبراتها حزن عميق :

— الآن يا ملك الصين . . وقد وضعت الحرب أوزارها وبلغت النصر . . فلتعش مطمئناً فى قصرك ، وسأنطلق أنا عائدة إلى مملكتى . . فما عاد بيننا لقاء قط . . إذ ذهب كل شيء مع تسرعك الذى أوقعك فى المحذور . . !

وجحظت عيناً رضوان شاد وهو يصرخ :

— كلا يامليكتى . . لايمكن أن يحدث هذا . . فبحق السماء اغفرى لى زلتى وجهلى . . وأقبلى التوبة التى أقدمها وأنا تحت قدميك الحبيبين . .

وهزت شهرستانى رأسها وهى تستعد للابتعاد وتقول :

— لم يعد بد من الفراق ياملك الصين . . فهكذا تقضى شريعتنا . . ولو كان العفو بيدى أنا وحدى لفعلت . . والآن وداعاً أيها الملك . . وعبثاً تحاول بعد ذلك أن ترانى أو ترى ولديك . . فلن تقع علينا عينك قط بعد اليوم . . !

واختفت شهرستانى وولداها . . وسقط رضوان شاد على الأرض وقد فقد الوعى . . ! مضت الأيام ثقيلة سوداء على الملك . . وما عاد يطيق لقاء أحد قط . .

وزاد به الضيق حتى قرر آخر الأمر أن يدع الحكم لوزيره ينوب عنه فى تصريف كل الأمور . . وانطلق وحده معتزلاً الناس فى جناحه ، وقد أغلق من وراءه الباب ، لايجرؤ أحد على فتحه أو الاقتراب منه سوى الوزير وحده . . يأتية بطعامه وشرابه ، ويتلطف فى إدخال العزاء إلى نفسه التى ما عاد ينفعها سلوى ولاعزاء . . فالحزن يقتلها ، والألم يهوى بها ، والموت يزداد اقتراباً من الملك المسكين .

وانقضت أعوام عشرة كان الملك خلالها قد بات على شفا القبر. . .

وبينما هو جالس ذات يوم يبكى ويحسب الزمن الذى انقضى وهو بعيد عن زوجته وولديه ، إذا بشهرستانى نفسها تظهر أمامه . . وعلى وجهها فرح كبير. . وأحاطته بذراعيها وهى تقول :

- ها قد عدت إليك أيها الحبيب . . لأضع حداً لآلامك وأحزانك وأعيد إليك نظرة الحياة . . لقد انقضت الأعوام العشرة التى تقتضيها خلالها شريعتنا أن نبتعد عن الحانث فى يمينه . . فلا نراه إلا بعد تلك المدة إذا ظل مقيماً على العهد وفيا تائباً . . والحق إننى لم أكن أتصور يوم ودعتك أننى سأراك . . فما تخيلت أن بشراً يستطيع تحمل تلك المدة الطويلة مخلصاً صابراً ثابتاً على الوفاء . . وكنت مؤمنة بأنك ستنسأنى وتضع سوى على عرش قلبك وعرش وطنك . ولكن ذلك الوفاء الذى أبديته وأنت تقضى السنوات العشر تبكى وتنتحب ، كان فيها الكفاية لإثبات حقى فى العودة إليك . . أيها الحبيب . . بل حقى أيضاً فى إحضار ولديك . . ا

وفى اللحظة ذاتها ، انطلق من خلفها صبيان ألقيا بنفسيهما فى أحضان والدهما الذى كاد الفرح يقضى عليه . . والتقى الأربعة بعد ذلك فى عناق واحد طال حتى كاد اليوم ينقضى كله . . .

وعندما استفاق الجميع . . انطلقوا إلى حيث الشعب المتعطش إلى فرحة الملك . . فأقيمت الأفراح فى كل أنحاء الصين . . وعاد رضوان شاد يجلس على عرشه . . وإلى جواره شهرستانى . .

ولم يكن أحد يدرى بعد ، أن ابنتيهما بلقيس ستجلس على عرش شهرستان بعد أعوام . . لتصبح بعد ذلك . . زوج سليمان الحكيم . . ا

أسطورة فارسية رستم وملك الجن

كان الفرس يتفنون ببطولة رستم . . بطل الأبطال . . حتى لقد سموا قوس قزح بقوس رستم .
وكانوا يبالغون في بطولته حتى نسبوا إليه الخوارق . ولم يكتفوا بانتصاراته الرائعة على جيوش الإنس . .
بل نسبوا إليه حروبا أخرى ينتصر فيها على الجن والشياطين والسحرة أيضا . .

أما مسرح هذه الأسطورة ، فبلاد مازندران أي طبرستان ، التي يسمونها أرض الجن الأبيض ، لأنهم
كانوا بيض الوجوه . . واستطاعوا ذات يوم القضاء على جيش أوفده إليهم معاوية ، إذ فاجئوه من فوق
الجبال بوابل من الحجارة والصخور . حتى هلك أكثره . . ولعل هذا هو سبب تسميتهم بالجن . .
ولعل في طبيعة أرضهم ومضايقتها ما يفسر مغامرات هذه الأسطورة .

كان « قابوس » ملك فارس ، جالسا على سرير ملكه حين وقف ببابه مغن حاذق
من بلاد مازندران . وكان الملك مولعا بالشعر والغناء ، فأذن للغريب بالدخول عليه
وتقديم بعض ألحانه .

وأخرج الغريب عوده ، وجلس أوتاره ، ثم انطلق في صوت كأنه الطيب ، يصف
جنان الخلد التي تضمها مازندران ، ويحكي أقاصيص الهوى والعشق التي تعيش فيها
عذاراه الرائعات . وطرب الملك للغناء ، بقدر ما اشتاق إلى تلك البلاد التي لم يذهب
إليها من جيوش أجداده جيش قط . وفي غمرة النشوة بالطرب والشوق ، قرر « قابوس »
أن يستولى على بلاد الجنة . . وأن يجعل له عاصمة هناك . !

وأخذت الرعدة كل من بالمجلس . . فما من أحد إلا ويعرف أن مازندران مأوى
الشياطين وموطن السحرة ، يعيشون فيها جنبا لجنب مع السباع والنمور والديبة
والذئاب . ولكن أحدا من رجال القصر لم يجرؤ على رد الملك عما ارتأه . . حتى جوذر
قائد الجيش امتثل للأمر ، ولم يستطع إلا أن يأمر كل قواته بالاستعداد للخروج للمعركة
الجديدة . . وعلى رأسها قابوس نفسه . . ملك الفرس . .

ونزلت جيوش « قابوس » على حدود مازندران وانقض رجال الطليعة على المدينة التي
لم تكن قد استعدت بعد ، فلم تدر إلا وحشود هائلة تحترق أبوابها ، وسيوف طويلة

تقتلع رؤوس الصغار قبل الكبار . . ومشاعل من نار تحرق وتدمر، ولا تبقى من بيوتها ومغانها شيئا قط .

وبلغ أمر المهجوم أذى ملك البلاد . فألم به الحزن، ثم رفع رأسه ينادى أحد جنود الجن وقد عرف بالمكر والدهاء . . وأمره أن ينطلق إلى سيذديو ملك الجن يخبره بما صنع قابوس . . !

وانتفض ملك الجن حين سمع النبأ . ولم يكد الليل يهبط حتى كان قد انقض في جنوده على معسكر « قابوس » فأطبق عليه إطباق السحاب، وأمطر عليه من السماء حجارة ونصالا . . ثم أرسل جحافل الظلمة تحوطه من كل جانب، وتجعل الجيوش في أعماق ليل دائم طويل .

وأطل رجال الفرس، فإذا بهم غارقون في بحر أسود كأنه القار، لا يرى أحد من حوله شيئا، ولا ييصر إذا أراد حتى كفه . وعندما اطمأن ملك الجن سيذديو إلى أن أعداءه قد حبستهم الظلمة، ولم يعودوا يرون قمرا ولا شمساً قط . . وكل بهم اثني عشر ألفاً من الشياطين تحوطهم وتمنعهم . . وأمرها ألا تسمح لأحد منهم بالخروج سوى واحد فقط . . ليذهب إلى أهل بلده يقص عليهم الأمر ليعتبروا . . وليعرفوا أن المهجوم على إقليم الجن والشياطين ليس من ورائه سوى الخسران . . !

واستطاع رسول « قابوس » أن ينفذ فعلا من الحصار . ولكنه لم يذهب إلى بلاده ، بل انطلق إلى الملك دستان أبى رستم يستغيث به . ويطلب النجدة منه على جيوش ملك الجن . . !

وحزن دستان لما ألم بصديقه قابوس، وأقبل على ولده رستم البهلوان وقال له :

- إلى النجدة أيها الفارس الذي إن حارب البحار صارت دماء ، وإن كافح الجبال عادت فضاء . جرد سيفك وخذ فرسك وانفض إلى مازندران، تدق عنق ملكها وتخلص الأرض من شرور جنها . فإذا بدأت السير فلا تأخذ الطريق الطويل السهل بل خذ أقصر الطرق لتكون أسرع إلى النجدة . . فهو لا يزيد عن مسيرة أربعة عشر يوما . . على أن تحذر خلاله ما يحتويه من شياطين وسباع . . وسأنفض أنا لأسجد لرب السموات أن يحميك ويحرسك ويردك إلى أبيك مرفوع الرأس منصورا . . !

ونفض رستم فلبس سلاحه وركب فرسه « الرخش » فكأنه فيل على فرس . وانطلق في الطريق الوعر الشاق ليكون أقرب إلى نجدة من استنجد ، وإغاثة من استغاث .

وراح رستم يخترق الصحارى الواسعة التى تلتهب أرضها بالنيران ، ولا أنيس له غير سيفه وفرسه . وظل يمضى مع النهار ومع الليل حتى انقضى يومان لم يأكل خلالها شيئاً من طعام قط . فلما انتبه إلى نفسه وأحس الجوع ، أطل حوله يبحث عن صيد ، فإذا حمار وحش يروح هنا وهناك فانقضض عليه فى لحظة وصرعه . . ثم شواه على نار أوقدها وأتى عليه جميعه . وعندما أحس رستم بالشبع ، أوى إلى ظل قصب هناك . وترك فرسه « الرخش » يرعى فى أجمة بين يديه ، واستسلم هو لنوم عميق . . .

ولم يكد رستم ينام حتى خرج من الغاب أسد راح يقترب فى بطء من البطل الراقد كركن جبل ، وانتبه « الرخش » فوثب عليه ، وضربه بقائمتيه ففلق رأسه ومزق جلده ، وتركه غارقاً فى لجة من الدم . وعندما استيقظ رستم ورأى صنيع فرسه ، أقبل عليه ومسح غرته بيده وقال له : لو انتبهت لكفيتك شر القتال . . .

وعاد رستم يسير فى الطريق الموحش من جديد . وطالت مرحلة السير ، والهجير يشتد حتى بلغ به العطش حد الهلاك . وكاد رستم يقع على الأرض حين لاح له غزال أعاد إليه نشاطه ، فحث فرسه وأسرع خلفه . . فإذا الغزال يقف عند عين ماء يشرب منها ثم يستأنف عدوه .

وعندما رأى رستم الماء توقف عنده ، وشرب وسقى فرسه . . ولم يتبع الغزال إذ حمد له أن هداه إلى الماء . ثم عاد يستأنف سيره حتى جاع ، فاصطاد حمار وحش شواه وأكله . ثم استلقى لينام . . .

وبينما هو نائم خرج عليه تنين هائل تحرق أنفاسه ما حوله من الحشائش ، ولم يكد الفرس يراه حتى أسرع إلى رستم فأيقظه بصهيله ، وضرب حوافره فى الأرض . وإذا رأى رستم التنين حمل سيفه وهاجمه ، ونشبت بينهما معركة طويلة دامية كادت تنتهى بهزيمة البطل ، لولا أن نهض الفرس لمساعدة سيده ، وحمل على التنين وقضم كتفه بأسنانه فقطعه ، وانقلب التنين على ظهره فألقمه رستم السيف فشقه ، ثم رجع إلى العين فاغتسل بها ثلثها ، ومضى لسبيله من جديد .

استمر رستم فى سيره يخترق الفيافي والقفار حتى بلغ لأول مرة أرضاً خصبة كثيرة الخيرات . فأرسل فرسه يرعى ، واتكأ ليستريح . وبينما هو كذلك جاءه ناطور تلك الأرض وصاح طالباً منه لإبعاد فرسه عن أكل الزرع ، وضربه على رجله بعصا كانت معه . وثار غضب رستم ، وهجم عليه وجذبه من أذنيه فاقتلعهما . وحمل الناطور أذنيه الداميتين ، وعدا هارباً إلى « أولاذ » ملك الناحية . فانطلق هذا ومعه حرسه إلى حيث

كان رستم الذى ركب فرسه وحمل عليهم ووقع فيهم كما يقع الأسد الهائج بين قطيع من الغنم . وتساقطت رؤوس أصحاب أولاد الذى انطلق يتلمس سبيل الهرب . غير أن رستم عدا خلفه وقبض عليه . . . وشد وثاقه وألقى به مقيدا بين قدميه . . .

وقال رستم يخاطب أولاد :

- الآن أطلب منك طلبا وأعطيك عهدا . فإن أنت دللتنى على ملك الجن سيذديو وأوصلتنى إلى المكان الذى حبس فيه الملك « قابوس » ، جعلتك ملكا على عرش مازندران . . .

وقبل أولاد الاتفاق . . فكك رستم قيده ، وجعله يسير بين يديه ليدله أولا على مكان قابوس . وبينما هما فى الطريق إذ شهد رستم عن بعد نيرانا موقدة وشموعا مشتعلة ، سأل عنها أولاد فأجابه :

- ذلك ياسيدى باب مدينة مازندران يحرسه قواد ملك الجن وجنودهم . . وهم لا ينامون ثلثى الليل . .

فانتظر رستم حتى جاء الثلث الأخير الذى يستسلم فيه الجن للنوم فحمل عليهم . وخرج له قائد الجن « إرزك » واشتبك معه فى صراع هائل عنيف ، انتهى عندما أنشب رستم برائنه فى عنقه ، واقتلع رأسه فحمله على ذبابة السيف . وشهد جند الجن ماصنع رستم بقائدهم ففروا هاربين . وعاد هو يسير مع دليله أولاد إلى حيث يلتقى بقابوس . .

ووجد رستم الملك « قابوس » غارقا فى الظلمة ، قد عمى بصره وأحيط به مع كل جيشه . واستقبله « قابوس » والجيش فى فرح غامر ، ثم طلب منه أن يسرع بمفاجأة سيذديو ملك الجن قبل أن يبلغه نبأ مقتل قائده ، وقبل أن يعلم بمجيئه . . وقال له إن العمى الذى أصابه لا يشفى إلا إذا اكتحلت عيناه بدم كبذ ملك الجن .

ومضى رستم وأمامه دليله الملك أولاد ، ومضيا يسيران مخترقين جبالا سبعة هى التى تفصلهما عن المغارة التى يقيم فيها ملك الجن . وخلال الطريق أخبر أولاد رستم أن الجن ينامون إذا حميت الشمس . . ويكون ذلك الوقت هو خير الأوقات لمهاجمتهم .

وانتظر رستم حتى ارتفعت الشمس . وإذا جاء الضحى امتطى فرسه وهاجم الشياطين وراح يعمل فيهم سيفه يمينا ويسارا حتى بلغ باب المغارة فوجدها غارقة فى الظلمات . ولم يعبا رستم بالظلام بل اقتحم المغارة بفرسه يطلب سرير ملك الجن . وعندما بلغه وجد سيذديو واقفا ووجهه أسود كالليل ، وعيناه يندلع منهما لهيب

كالجحيم . . . وشعره الأبيض يتشعب فوق رأسه . ولما رأى ملك الجن رستم وثب عليه في حق ، واثبه رستم ، ورفع سيفه ثم انقض به على ساق سيذديو فقطعها . . . والتحم الاثنان في قتال مر عنيف . . . كان الدم ينزف خلاله من جرح الجنى غزيراً يضع حدا لمقاومته . . . ويسلمه لهزيمة سريعة قاسية .

وكان لابد لرستم أن يتنصر بعد أن بدأ سيذديو ينهار ويتساقط ، وهناك رماه رستم في عنف على الأرض فسقط . . . وانقض عليه بسيفه فقضى عليه وعندما اطمأن إلى موته انحنى عليه وقد استل خنجره وشق به جنبه واستخرج كبده . ثم غادر المغارة في زهو ، وانطلق ومعه أولاد إلى حيث كان « قابوس » لا يزال ينتظر فبشره بمقتل عدوه ، وقدم له كبده . . . وشكره الملك وأثنى عليه ، ثم اكتحل بقطرات من دم كبد الجنى فعاد إليه بصره . ورأى من حوله كل شيء . . .

واحتفل ملك فارس وقواده ومعهم رستم وأولاد بالنصر الكبير سبعة أيام كاملة . وعندما جاء اليوم الثامن انطلقوا شاهرين سيوفهم فانتشروا في مدينة مازندران ، وأعملوا فيها الضرب والقتل بعد أن فتحوها . . . ثم قرروا أن يرسلوا إلى ملكها يطلبون منه التسليم ، أو يقتحمون كل أملاكه وينزلون به القضاء . . .

ونهض رستم طالباً أن يكون هو نفسه رسول « قابوس » إلى ملك مازندران وانطلق البطل على « الرخش » حتى بلغ مكان الملك الذى أمر قواد الجن وخير الفرسان وأبرع الشجعان ليكونوا في استقبال رستم ، وليطلعوه على مدى قوتهم . . .

وشهد رستم من بعيد مستقبله ، فمال على شجرة قريبة ورفعها كما ترفع عصا الخيزران . واقترب بها منهم ثم رماها عليهم ، فاضطرب شملهم وكاد يقع أكثرهم بين قتيل وجريح . . .

واقترب أحد أبطالهم من بطل الفرس وقبض على يده . ولكنه لم يهتم بالضغط العنيف الذى أخذ الفارس يضغطه على يده ، فلما انتهى ، مد هو يده إليه وعصر كفه حتى تغير لونه ، وشحب وجهه ، وبدأ يصرخ .

وسمع الملك بما كان ، فدعا إليه جنياً يسمى كلاهور هو أقوى من في معسكره ، فأمره باستقبال الرسول وإظهار قوته أمامه . ومد كلاهور يده إلى يد رستم فعصرها حتى صارت زرقاء كالسما . . . ولم يبد على وجه رستم شيء من الألم ، وعندما جاء دوره ليحيى كلاهور ، عصر كفه حتى تساقطت أظفاره . . . وصرخ الجنى وانطلق إلى الملك

يغلى ويرتعد ويقول له : السلم خير لك من الحرب يامولاي . . فلا قدرة لنا على مقاومة مثل هذا الوحش . . !

وفي تلك اللحظة دخل رستم . فأجلسه الملك في مكان يليق به ، وطلب أن يبلغه الرسالة التي يحملها .

وألقى رستم بها لديه ، في صوت جهورى عنيف . ولم يكذب يتتهى حتى ثار غضب الملك وقال له :

- قل لقابوس : إن كنت ملك فارس ، فأنا ملك مازندران المستقر على عرشها الخالد أبدا . . فارجع إلى مملكتك ولا تحدث نفسك بالاستيلاء على عروش الملوك . فإننى إذا زحفت في جيوشى نحوكم لم تعرف رأسك من ذنبك . وإننى إذا واجهتك في مأزق الحرب حسمت موقفك بسيفى الصارم الذى لا يخيب . . !

وغضب رستم من رد الملك . وانطلق عائدا إلى قابوس فأخبره بما حدث . وطلب منه أن يتأهب ويتقدم للقتال . . .

وكان ملك مازندران قد استعد منذ خرج رستم من حضرته ، فأمر بضرب العسكر في ظاهر المدينة ، وانطلق في جيش جرار لا حصر له آخذا طريقه لاستقبال جيش رستم وقابوس . والتقى الجيشان . وتقدم فارس جنى عملاق من أصحاب ملك مازندران يسمى جوياسأل هل من مبارز . ؟! ولم يجبه أحد من أصحاب قابوس إذ سيطر عليهم الرعب من منظر الجنى . غير أن رستم استأذن ملكه في مبارزة الجنى . .

وإذ أذن الملك نهض رستم وشرع رحمه وانطلق لمبارزة فارس الجنى . .

وبدأت المباراة عنيفة ، إذ راح كل منهما يدور حول نفسه خلالها مرات . . وكاد رستم يفقد النصر ، لولا أن تمكن من الدوران في سرعة خلف الجنى ، ووضع سنان رحمه بين كتفيه . . ثم رفعه عليه كالطير على السفود . . وألقى به وسط جيشه صريعا مضرجا بالدم . .

وتعجب أسود مازندران وشياطينها . . وملأت الرعدة قلوبهم ، إلا أنهم اضطروا للامتنال لأوامر الملك حين أمرهم بالهجوم على رستم وجيوشه . .

وارتفعت من الجانبين أصوات الطبول . . ودارت المعركة وارتجفت الأرض وأظلمت الآفاق . وراحت الفرسان تتصاول والجيوش تتلاحق ، والنصر يتأرجح بين هذا وذاك .

ومر أسبوع كامل والقتال لا يريد أن ينتهى ، عندئذ برز رستم يطلب مبارزة ملك مازندران نفسه . وانتفض الملك غاضبا ، وانطلق من بين رجاله وهو يطلق صرخة غضب عنيف . . وانقض على بطل الأبطال .

وكان الملك قويا ماردا . . فاندفع يهاجم رستم فى عنف كاد يكتسب معه النصر . . لولا أن رستم تحين فرصة طعن خلالها الملك فى خاصرته طعنة ألقت به على الأرض من فوق ظهر فرسه .

وعندما سقط الملك سحر نفسه فى سرعة ليبدو أمام الناس صخرة عظيمة لا يقدر على زحزحتها أحد . ولكن رستم ، وقد أدرك ما فعل الملك ، تناول الصخرة العظيمة ورفعها فوق رأسه ، وسار بها والناس من حوله يعجبون ، حتى وصل بها خيمة قابوس . وطرح رستم الصخرة العظيمة أمام صاحبه . . وخطب الملك الساحر قائلا :

-إذا لم تخرج عن شكلك هذا حطمتك بالمعاول والفؤوس .

وارتجفت الصخرة لتعود من جديد إلى صورتها الأولى . وانحنى الملك إذ عاد إلى صورته وراح يستجدى عفو قابوس . . إلا أن هذا أمر الجلالد بقطع رأسه ، ورفع على سنان الرمح ليريه للناس !

وانطلقت جيوش قابوس تجمع الغنائم والأسلاب ، وتحصى الجواهر والذخائر . بينما دعا رستم أولاد لسمع من بين شفتى قابوس ، أمر تنويجه ملكا على مازندران تنفيذاً للوعد الذى قطعه على نفسه من قبل .

وانطلق رستم مع الملك قابوس عائدين إلى الوطن فى مواكب رائعة لم يعرف لها مثيل قط . .

* * *

ومضت الأيام تجرى . .

وذات يوم . . جاء إلى الملك من يقول له إن حمارا وحشيا كالأسد ، قد استقر فى الصحراء القريبة من مرابط الخيل ، وراح يهاجم خيول الملك ويقضى عليها واحدا فى إثر آخر . . وأدرك الملك أن ذلك الحيوان لا يمكن أن يكون حمار وحش . فطلب من رستم أن ينطلق فيحذر الأمر . . ويقضى على الوحش أينما كان . .

وركب رستم فرسه « الرخش » ، وخرج إلى الصحراء ، فمكث أياما ثلاثة يدور فى مروجها ومراعياها . . ولكن الوحش لم يبد منه شىء قط . .

وجاء يوم رابع ، لم يكد ينقضى نصفه حتى ظهر الوحش وهو يقترب من مرابط الخيل . . وخرج له رستم من مخبئه فلم يكد يراه حتى راح يجرى فى سرعة الريح هاربا . وأسرع رستم خلفه ، ورفع رمحہ ليطلقه عليه . وفى تلك اللحظة اختفى الوحش كأنها قد ابتلعت الأرض . . وهنا اقتنع رستم بأنه لم يكن حمار وحش قط . . ولكنه «أكوان» الجنى . . جاء ليتقم لمن مات من الجن فى بطاح مازندران . . ا
وقرر رستم ألا يترك ذلك المكان ، وأن يظل مقبيا فيه حتى يضطر الجنى للظهور من جديد . .

ولم يمض يوم واحد حتى كان أكوان الجنى قد خرج من نفس المكان الذى اختفى فيه . . وعندما شاهده رستم انطلق خلفه فى سرعة هائلة ، وبدأ سباق عنيف لم تشهد مثله الأرض . . استمر أياما ثلاثة كاملة . . .

وعندما انتهت الأيام الثلاثة كان الجهد قد أخذ برستم ، وبدأ النوم يغالبه . . وانحنى رستم على روضة معشبة فدخلها ، ونزل عن فرسه ، وخلع لجامه وحط عنه سرجه وأطلقه يرسى . ثم فرش لنفسه اللبد على حافة ماء العين واتكأ يستريح ، فأخلده النوم . .

وفى تلك اللحظة ظهر الجنى واقترب منه . فلما رآه نائما فى سلاحه لم يجرؤ على الاقتراب منه . . ولكن الفرصة كانت سانحة نادرة . . وحتى لا يضيع الفرصة حفر الأرض من حول رستم النائم ، ورفع قطعة الأرض كاملة فى الهواء . . ثم راح يجرى به هنا وهناك ، ويفكر فى الطريقة التى ينتقم بها منه . . ا

واستيقظ رستم فوجد نفسه على تلك الحال . وندم إذ نسى نفسه فنام ، وراح يفكر فى طريقة الخلاص من براثن الجنى . .

وأحس الجنى بحركته ، وعرف أنه استيقظ ، فقال له يخاطبه :

— أيها أحب إليك : أن أرميك بين الجبال والصحارى ، أم أقذف بك فى أعماق المحيط ؟ ا

وفكر رستم قبل أن يجيب . . وسمع صوتا فى أعماقه يقول له :

— إذا هو ألقاك فى الجبال والتلال الوعرة تطايرت أوصالك وتحطمت بددا فوق الصخور ، والماء فى هذه الحالة هو خير الشرين . . ولكن أحذر دهاء الجنى . . فإنك إن قلت له أقذفنى فى البحر خالفك ولم يرمك إلا على الجبال والوهاد . . فهو سيعمل ضد رغبتك . . فاطلب منه عكس ماتريد . . ا

وقال رستم يخاطب أكوان الجنى :

— اطرحنى على الجبال وفي الغاب أحطم قلوب السباع وأشهدها على قوتى
وجبروتى . . !

ضحك أكوان فى سخرية وهو يقول :

— أمازلت تدعى الشجاعة والجبروت . . ؟! إذن لأرمينك فى مكان لا ترى فيه حيا
ولاميتا . . !

وأسرع أكوان الجنى إلى البحر فألقى برستم فيه . ثم عاد وهو ينفض يديه وكأنه قد
تخلص من حمل مخيف . .

ولم يكدر رستم يسقط فى الماء ، حتى أحاطت به التماسيح وسباع البحر تريد قتله .
فاستل بيمينه السيف ، وراح يضرب هنا وهناك بينما يده اليسرى تسبح لتبلغ به
الشاطئ . . .

وخرج رستم من الماء ، فخلع سلاحه ، واغتسل ، ثم وضع السلاح وعاد إلى العين
التي سبق أن نام إلى جوارها أول مرة . وهناك قرر ألا يبرح المكان حتى يظهر الجنى من
جديد ليلقى عليه درسا لا ينساه أبدا . .

وفجأة ظهر الجنى وقال له :

— ألا تزال بك رغبة فى القتال والنزال . . ؟! أما سئمت تلك الهزائم التي تتوالى
عليك ، وتريد أن تعود من جديد لتجلب لنفسك هزائم أخرى . . ؟!

ولم يترك له رستم الفرصة ليتم حديثه . وفى لحظة ، انقض رستم برمحه فى قوة فاخترق
قلب الجنى قبل أن يتنبه إلى نفسه . . وإذا به ينهار وينحط على الأرض كأنه الجبل .
ومد رستم يده بالسيف فاجتز عنقه ، وحمل رأسه على سنان الرمح ليدور به فى كل
مكان من عاصمة قابوس . .

واستمر ركب الحياة يسير . . !

أسطورة هندية راما يانا

راما يانا هى أوديسة الهند فى تاريخ الأدب الأسطورى . وهى أشهر أساطير الهند وأحبها إلى النفوس . . وتتناول حياة بطل اسمه راما ، نفاه أبوه فى غابة الشياطين حيث لقى من المصائب والأهوال ألوانا شتى . ونشب صراع جبار بينه وبين والدها ملك الشياطين الذى تمكن من خطف زوجته ، فظلت تنتظر زوجها صابرة طاهرة لا تستسلم لياس أبدا . .

والهندي يعتبر راما يانا كتابا مقدسا . ويعتبر راما صورة مجسدة للألوهية . ولا يزال يتوجه إليه بالصلاة . وهو حين يقرأ الأسطورة ، إنها يشعر بأنه يستمد من قراءتها سموا دينيا ، كما يستمد متعة أدبية وارتفاعا خلقيا . . إذ تطهره هذه القراءة من أوزاره جميعا وتجعله ينجب ولدا حتى ولو كان عقيما . . أ

كان الجميع سعداء إلا الملك . فبرغم العصر الذهبى الذى كان يعيش فيه كل الشعب ، إلا أن شيئا واحدا كان ينغص على الملك الحياة . . فقد أبت الآلهة أن تنعم عليه بولد . . يتولى من بعده عرش البلاد .

ولقد كان سكان مدينة « أيروديا » يعرفون تلك الحسرة التى تأخذ بقلب الملك « داشارادا » سيد بلاد « كوسلا » . إلا أنهم ماكانوا يملكون شيئا سوى أن يرفعوا أيديهم ، وهم يقدمون القرابين ، يدعون « براهما » أن يمنح ملكهم الطيب وليا للعهد . ولعل رب الأبواب قد استجاب لدعوات القوم الصالحين ، فذات يوم ، بينما كان الملك مجتمعاً بكهنته يقدمون القرابين لبراهما ، إذ ظهر لهم الإله « فشنو » فى شكل نمر ، متربعا وسط النيران ، وقال للملك :

- خذ هذا الأرز المقدس ، واللبن الحليب ، ووزعهما على زوجاتك . فقد أرسلنى براهما لأبشرك بغلام اسمه راما ، يكون له ثلاثة أخوة آخرين من كل زوجة من الزوجات . . !

وحمل الملك اللبن والأرز إلى زوجاته وقسمهما عليهن . فلم تمض أيام حتى انجبت

«كوشالا» زوجة الملك الأولى ولدا سماء «راما» ، ثم تبعتها «كايكى» بولد سماء «باراتا» .
أما الثالثة فقد أنجبت ولدين هما «لاكشمان وساتروجنا» .

وعاش الأخوة الأربعة فى كنف الملك حتى شبوا . ومع مر السنين كان راما قد اتخذ من أخيه لاكشمان صديقا وتابعا ورفيقا ، وكان ساتروجنا قد جعل من نفسه هو الآخر حارسا لأخيه باراتا .

وكبر راما حتى بلغ السادسة عشرة . وبدأ الملك يمنحه من قلبه كل شىء ، ويدربه على أن يكون ملكا من بعده على كوسلا . ومن أجل أن يأمن على ولده متى تولى العرش من عداوات جيرانه ، امتلأ رأسه بفكرة تزويجه من سيتا . . كبرى بنات «جاناك» ملك «ميثالا» .

والحق أن سيتا كانت أجمل فتيات ذلك العصر . غير أنها لم تكن فى الحقيقة ابنة الملك . . فقد كان ذات يوم يحرق بستان قصره بالمحراث ، وإذا بالأرض تنشق من تحتها ، وتخرج من مجرى الحرث طفلة صغيرة يشع من حولها النور ، ذات جبين من عاج ، وشفة من مرجان ، وأسنان تسطع بلمعة اللؤلؤ ، كانت هى نفسها سيتا . . التى اعتبرها الملك هدية من الآلهة ، فتعهد لها فى قصره حتى شبت ، وعندما حان حين زواجها ، قرر جاناك ألا يزوجه إلا لمن يستطيع أن يثنى القوس المقدس الذى أهده الآلهة لأجداده الأقدمين .

وتقدم لخطبة الأميرة أبناء القصور من كل الممالك حوله ، غير أن أحدا لم يستطع أن يثنى القوس . . فقد كان قوسا ماردا عملاقا ، صنعه الإله شيفا لنفسه ، ثم أهده لأجداد جاناك . ومنذ ذلك اليوم عجز الجميع عن ثنيه فلا الآلهة ولا المردة ، ولا الشياطين . . كانوا يملكون القوة التى تستطيع أن تثنيه .

وقرر راما أن يشترك فى المباراة ، وانطلق إلى ميثالا حينما كان الملك يستعد لإقامة عيد الضحية .

وكان الشعب كله يحبى الملك حين دخل راما الساحة ، وأعلن عزمه على خطبة سيتا . . ابنة الملك !

وتحولت إليه كل الأنظار . . لقد كان صدره بارزا كليث ، وجسده فارعا كفيل ، وعينه مهيتتين كنسر .

وأمر الملك بالقوس فأحضر على عربة ذات عجلات ثمان ، يجرها خمسة آلاف

عملاق . ومد راما يده فأخرج القوس من كيسه وبدأ يثنيه . وارتعد الجميع ، فما كان أسهل ما انحنى القوس في يد راما الذى ظل يثنيه حتى تلامس طرفاه ، ثم تحطم فى صوت كالرعد ، وهزة كالزلازل ، حتى إن آلاف المشاهدين سقطوا على الأرض ، عدا جاناك وراما والأميرة التى فتحت عينيها فى ذهول . . !

وأقيمت الأفراح ، وأرسل جاناك إلى جاره الملك داساراذا يدعوه إلى حفل الزواج ، فجاء ومعه أبناؤه الباقون ، وعندما عادوا إلى أيوديا . . كان مع كل منهم عروس أخرى رائعة . . من بنات ملك ميثالا الجميلات !

* * *

وظلت السعادة تغمر كل مكان من أرض كوسلا . . حتى دخلها الشر عن طريق كايكى . . الزوجة الثانية للملك . . !

فدأت يوم ، أعلن الملك أنه يدعو الشعب فى الغد لحضور حفل تنصيب ولى عهده ، وملأت الأفراح كل « أيوديا » التى امتلأت قلوب سكانها جميعا بحب « راما » وزوجته الأميرة « سيتا » ابنة الآلهة . غير أن قلبا واحدا كان يمتلئ غما وحسدا ، هو قلب الملكة كايكى . فقد أحزنها أن يكون العرش لابن ضررتها دون ولدها باراتا الحبيب . . !

ولعل تلك الغيرة التى ملأت قلب كايكى ، لم تكن تستطيع أن تفعل شيئا لولا خادمتها العجوز « منتارا » فقد أشعلت العجوز فى أعماق مولاتها كل نيران الحقد والحسد ، وراحت تحرصها على التخلص من راما ، ليكون العرش خالصا لولدها باراتا .

وبكت كايكى غيظا ويأسا . . فما كانت تملك أن تمنع زوجها الملك من إعلان ولاية العهد لأبى ولد . غير أن منتارا ، ابتسمت فى خبث وهى تقول :

- إن فى إمكانك يأمولاتى أن ترغمى الملك على إيلاء العهد لولدك . . وإرسال ابن ضررتك إلى أعماق غابة الشياطين ، فلا ينافس على العرش أبدا .

قالت الملكة كايكى :

- كيف يكون ذلك يا منتارا ؟!

ومن بين شفيتها المملوءتين بحمى الحقد ، راحت منتارا ، تذكر سيدتها بذلك اليوم الذى أصيب فيه الملك بجراح خطيرة خلال إحدى معاركه مع شياطين الجن . ففى ذلك اليوم كانت كايكى تعيش فى ذلك المكان . وتصادف مرورها من نفس الطريق

الذى سقط فيه الملك غارقاً في لجة من الدم . وعندما شهدته ووجدته يقترب من الموت ، جاهدت حتى استطاعت حمله بعيداً عن الميدان ، وبذلت كل ماتملك حتى ارتد إليه الصواب . وأخذت تُعنى بجراحه حتى أنقذته من موت كان لا بد منه . وعندما شفى الملك ، تزوجها ، وأقسم أن يحقق لها أى أميتين تطلبها منه . . فى أى وقت تريد . . ! ومضت الأيام والشهور والسنون ، ولم تكن الملكة قد طلبت من زوجها شيئاً بعد . . .

ودار رأس كايكى بنشوة كالخمر . . وقد بدأت تدرك ماتقصده إليه متتاراً . واستمرت العجوز تقول :

- لقد حان الوقت لكى تطلبى من الملك أميتيك . اطلبى منه أن يتخلى عن العرش لولدك باراتا ، وأن ينفى راما فى غابة الشياطين أربعة عشر عاماً . وفى خلال تلك السنوات يكون باراتا قد استطاع أن يجتذب لنفسه حب الشعب ، ولا يخشى منافسة أخيه .

وانطلقت كايكى إلى الملك تذكره بوعده . وأقسم لها أنه لم يحنث فيه ، وأنه سيحقق لها فى الحال كل ماتطلب كائنا ماكان . وهنا ألقت الملكة بالمفاجأة على رأس الملك ، الذى وقف كالمشدوه ، وما خطر بباله أنها تجرؤ على مثل ماتطلب الآن قط . . . غير أن الملك لم يكن يستطيع أن يحنث فى وعده . .

وبقلب حطمته الأحزان ، أحنى رأسه للمرأة التى خدعته . . !

لقد كانت هذه هى أول مرة يحنى الملك دأشاراذا فيها رأسه . ولقد اضطر إلى إحنائه مرة ثانية أمام راما الذى وقف ومن حوله كل رجال البلاط فى انتظار أن يباركه أبوه ويعلن له ولاية العهد . فإذا به يفاجأ بصوت الملك يخرج كسيراً محطماً وهو يولى العرش لباراتا . ويأمر بنفيه هو نفسه أربعة عشر عاماً فى غابة الشياطين . . !

وهتف الفتى فى حيرة :

- ولكن ما الذى صنعتته يا أبتاه . . .

وأشار الملك إلى كايكى وكأنه يشير إلى الشيطان . وراح يقص على الجميع قصة الأمنيتين الخبيتين ، والوعد الذى لم يكن يستطيع أن يحنث فيه . . ! واندفع باراتا نحو أخيه راما . . وأمسك بيده وهو يقسم انه لايمكن أن يمس عرشاً

من حق أخيه وحده . غير أن راما هز رأسه وهو يقول :

- أبدا أيها الأخ الكريم . لقد انتقل التاج إليك ، ولابد من تنفيذ الوعد الذى أعطاه أبى . ستجلس أنت على العرش . . أما أنا فسانطلق لفورى وحدى إلى غابة وانداك ، فلا أعود إلا متى انقضت الأعوام الأربعة عشر كاملة . . !

واندفعت سينا نحو زوجها ، وسجدت أمامه تتوسل وتقول له :

- خذنى معك يازوجى الحبيب . . فما أستطيع أن أعيش فى هذا المكان بعدك . إن العربة والخيل المطهمة والقصر المذهب كلها عبث فى حياة المرأة وهى تؤثر عليها كلها ظل زوجها المعبود . إن سينا ستهيم معك فى كل مكان فى الغابة . . فذلك عندها أسعد مقاما من قصور العالم كله . إنها لن تفكر فى بيتها لحظة أو فى أهلها ، مادامت ناعمة فى حب الزوج الذى اختارها لتشاركه الحياة . وستجمع الثمار البرية فى الغابة اليانعة العبة ، طعام يذوقه راما هو أحب الأطعمة عند سينا الوفية .

وكذلك فعل لاكشمان ، فقد راح يتوسل إلى أخيه أن يأذن له بمرافقته . فإذا لم يكن يريد صاحبا فليكن حارسا له ، وليسيتا ، من هجمات سكان الغاب الملاعين . . !

وحاول راما أن يثنى زوجته وأخاه عما أصرا عليه ، غير أنها ظللا يلحان ويتوسلان . . ولم يكن أمامه سوى أن يذعن لرغبتيهما . . وانطلق الثلاثة معا فى الطريق إلى وانداك . . غابة الشياطين . . !

* * *

لم يكد الأمراء الثلاثة يمضون ، حتى سقط الملك ميتا لفرط ما ألم به من حزن . وبرغم أن كايكى ملأها الفرح لسوفا زوجها ، إلا أن باراتا رفض العرش ، وأقسم إلا أن يحكم باسم أخيه حتى يعود من منفاه .

ومضت أعوام عشرة طويلة ، عاش الأمراء الثلاثة خلالها متنقلين بين حنايا الغابة الموحشة ، يقتاتون فاكهة ، ويجمعون عشا ، ويصطادون طيرا وحيوانا ، ويزداد بهم العجب لمرور السنين دون أن يلتقوا قط بأحد من الشياطين التى قيل إنها تملأ الغابة

وبينما كان الأمراء الثلاثة يستأنفون تجوالهم ذات يوم ، إذ وجدوا أنفسهم فجأة أمام صومعة ناسك هرم يدعى اجستاي ، لم يكد يلمحهم حتى رحب بمقدمهم ، وأقسم إلا أن يستضيفهم أياما عددا .

ولم يكن بد من أن يقبل راما ضيافة الناسك . وخلال الأيام التي قضاها لديه ، عرف راما ، أن رافانا ملك الشياطين ، يقيم غير بعيد من أطراف الغابة عبر المكان الذى يقيم فيه الناسك ، إلا أنه لا يجزئ على الاقتراب منه ، لما يملكه الرجل الطيب من أسلحة رهيبة يخشاها الجن والشياطين . . ولعله كان أجدر براما ، أن يتعد بزوجته وأخيه عن ذلك المكان ، غير أنه - وهو الشجاع الذى لا يعرف الجبن قط - أبى أن يستسلم للخوف ، وأقسم إلا أن يستمر فى تجواله حتى تنقضى مدة النفى . . !

وعندما وجد الناسك أن الفتى وأخاه يرفضان إلا أن يمضيا فى طريقهما ، أقسم أن يساعدهما ويزودهما بما يقيهما شر الطريق . فأخذ بأيديهما إلى مغارة تحت الأرض حيث آلات حرب فتاة أعددها لصراع الجن والشياطين . . فأعطاهما شيئا منها ، كما منح راما قوسا وسهاما مسحورة لا تحصى . ومنح لكشمان سيفا ذهبى النصل ، يثير الرعب فى قلب كل من يراه . .

وأخذ راما ورفيقاه طريقهم من جديد فى أعماق الغاب . وظلوا يسيرون حتى أخذ التعب بسيتا ، وأحست حاجة إلى الراحة . وهنا فقط ، حط الثلاثة الرجال ، وقرروا أن يبنوا مسكنا صغيرا يأوون إليه ، وترتاح سيتا فيه . . .

ممرت الأيام سعيدة هائلة . . حتى كان ذات يوم . . .

كانت « سورباناجا » أخت رافانا ملك الشياطين تتنزه فى الغابة ، حينما شهدت راما جالسا يناجى زوجته . وأحست « سورباناجا » نحو الفتى بهوى غريب ، وراحت تتنهد الفرص لتنفرد به . فلما وائتها الفرصة وراحت تصب فى أذنيه ترانيم الهوى ، صدها عنها ، ورفض أن يستجيب لعاطفتها .

ولكن الرغبة المجنونة كانت تلح بالشيطانة العاشقة حتى بلغ بها الأمر ، أن أصرت على قتل سيتا التى تمنعه عنها . وراحت « سورباناجا » تتحين الفرص حتى وجدت الفتاة وحدها فهاجمتها ، غير أن لكشمان كان غير بعيد فأسرع إليها ، وبحد سيفه البتار قطع أنفها وأذنيها . وصرخت الشيطانة فى غضب ، وانطلقت تجرى والدم ينشق متدفقا من جروحها ، حتى التقت بأخيها الصغير كارا . وعندما عرف كارا الأمر ، أقسم لينتقم لها ، وأرسل أربعة عشر تينا ضخما ليقتلوا الأمراء الثلاثة . . .

غير أن الشيطان الصغير قد قدر ما يتمتع به راما من قوة وهبتها له الآلهة . فإن

التنانين لم تكذبها جرم رامافريقه ، حتى نهض هو فخنقها جميعا بيديه بغير سلاح . . .

وهنا جن جنون كارا . وأعلنها فى الغابة حربا شعواء على رامافريقه . . .

خرج كارا على رأس أربعمائة ألف تنين ، يثير كل منها رعب عالم بأسره . . !
ولمخ راماصفوف الجيش الزاحف ، فأمر زوجته وأخاه بالاختفاء . ثم لبس درعه ، واستل سيفه ، وأخرج رمحه ، ووقف وحده ينتظر التنانين .

وكانت التنانين تزحف كأمواج البحر . وتحتك حراشيفها فتخرج أصواتا رهيبة كالرعد . وملأ الرعب قلوب كل من فى الغابة ، إلا رامالذى وقف صامدا تطل النبال من كنانته . وظل ساكنا فى وقفته حتى ازدادت صفوف الجيش الزاحف اقترابا منه ، وهنا مداما يده إلى نباله وسهامه ، وراح يرسلها نارية عنيفة على التنانين التى ملأها الرعب والفرع ، وبدأت تتراجع وتتلوى تتلمس النجاة . غير أن سهام راما كانت تلاحق الهاربين ، وأخذت أرض الغابة ترتوى بالدماء . . والتنانين تتساقط واحدا فى إثر آخر ، حتى لم يعد هناك سوى كارا وحده ، وليس حوله أحد قط . . !

واقترب كارا من راما . ونشبت معركة عنيفة مهولة ، راحت شظايا النبال وقطع الأخشاب تتطاير خلالها لتماما جو الغابة . ثم فجأة ، رفع راماقوسه وهزه كزلزال ، ثم أطلق سهمه مريشا سريعا إلى قلب الشيطان . .

غير أن المعركة لم تكن لتنتهى عند هذا الحد . . .

فقد تلقى رافانا ملك الشياطين أبناء مصرع أخيه وجيوشه فجن جنونه . . ونهض من فوق عرشه وهو يقسم ، ليقتلن راما ويمثلن به .

ونهض رافانا يستعد لمعركة رهيبة قاسية مع راما وصاحبيه . غير أنه لم يكذب ينهض حتى انحنى عليه أخوه « ماريشى » يحذره من قوة راما ، ويكشف له سر الذخيرة الفتاكة التى منحها له الناسك ، ويقص عليه قصة الآلهة التى اختارته ، ليقضى على الجن والشياطين ويشتهم أجمعين .

وبدا الأمر لملك الشياطين أكثر صعوبة مما كان يتصور . وانحط على عرشه ساخطا يفكر : كيف يستطيع أن يأخذ بثأر أخيه .

إن له لعشرين ذراعا يستطيع أن يحمل فى كل منها سلاحا جبارا . وإن له لعشرة

رؤوس يستطيع كل منها أن يخترع ألف وسيلة لكسب النصر . ولكنه مع هذا أحس بالجن ، فقد أقنعه أخوه « ماريشى » أن النصر لن يكون حليفه إذا دارت المعركة بينه وبين « راما » وجها لوجه . . .

وإذن فليبحث عن سبيل آخر غير القتال !

وراح كل رأس من الرؤوس العشرة يبحث الأمر .

وفجأة قفز رافانا في فرح كبير . فقد خطرت له ، بعد طول التفكير فكرة رائعة ، فقتل « راما » لن يذل كبرياءه وأنفته أو ينال منه ، ولكن الذى يذله وينغص عيشه ، هو أن يفقد أعز شخص لديه . . .

وهكذا قرر رافانا أن يرسل أخاه ماريشى ، ليخطف سينا . . زوجة راما الحنون . ! ! .

* * *

في ذلك الوقت كان الأمراء الثلاثة يجلسون تحت شجرة مورقة يتلمسون الظل ، ويتذاكرون بلادهم وأهلهم . وفجأة لمحت سينا منظرا أطلقت له صيحة فرح . لقد كان هناك ظبى صغير يقفز على مدى البصر ، رائع الجمال ، له شعر يبرق كما يبرق الذهب . . !

ولس الأمير فرحة زوجته وشغفها لم رأى الظبى . وعندما تمت أن تملكه وتحتفظ به لأيام عودتها ، أقسم لياأينها به . . حيا بغير جروح . .

وقفز « راما » من مكانه يعدو وراء الظبى ، بعد أن أوصى أخاه بحراسة سينا ، وألا يغفل الطرف عنها قط ، أو يتركها مهما جرى من الأحداث .

وأحس الظبى بالمطاردة ، فاندفع يقفز ويعدو ، يظهر آنا ويختفى آنا آخر . والأمير من ورائه لا يريد أن يفوته ، يخترق وراءه الأدغال ، ويسعى خلفه داخل الجحور ، ويأبى أن يستعمل قوسه وسهامه حتى لا يصيبه أو يجرحه .

وظل الظبى يخترق الغاب والأمير وراءه ، حتى أنهكه الجهد وأخذ به اليأس . وأطل خلفه فإذا هو قد ابتعد تماما عن مكان زوجه وأخيه . . وهنا فقط ، ملاء القلق ، وأحس أن فى الأمر مكيدة دبرتها له الشياطين . . فقرر أن يعود ، ولكن بعد أن يقتنص الظبى سهامه ، ويحمل جلده البراق إلى سينا الحبيبة . . !

وأرسل «راما» سهمه المسحور فأصاب الظبي . وأسرع يجرى نحوه ليحمله . وعندما اقترب وجد شيئا آخر ما كان يتوقعه قط ، فقد كان الظبي يتلوى على الأرض ، ويتحول شيئا فشيئا إلى صورة أخرى بعيدة كل البعد عن صورته . وحقق «راما» جيدا إلى حيث كان الظبي المحتضر . فإذا هو «مارتشي» نفسه . . شقيق ملك الشياطين .

وأحس «راما» فرحا ضخما عندما وجد أنه قتل الشيطان . غير أن هذا لم يدع فرحته تطول ، فقبل أن يلفظ النفس الأخير ، أرسل في الغاب صرخة داوية قلدها صوت راما ، ليوهم بها من يسمعها بأنه هو «راما» نفسه ، يطلب النجدة والغوث . . ! والحق لقد نجح الشيطان فيما رمى إليه . فقد ملأت الصيحة آذان سياتا ولكشمان ، وخيل إليهما أن «راما» يستغيث بعد أن دهمه خطر مخيف .

ونسى لكشمان كل تحذيرات راما ، وانطلق يجرى إلى الجهة التي خيل إليه أن الصوت يصدر منها . بينما جلست سياتا تنتظر ، وفي قلبها هلع وذعر .

ومضت لحظات ، راحت «سياتا» خلالها تلوم نفسها ، إذ أغرت زوجها بالسعى وراء الظبي . وبينما هي تفكر وتنتظر ، طرق سمعها وقع أقدام تقترب منها ، فقفزت وقد ظنت القادم زوجها ، غير أنها توقفت عندما وجدت أمامها ناسكا هراما يتوكأ على عصا ، وقد أحنّت السنون ظهره ، وقوست قامته ، وقربت ما بين خطواته .

وطلب منها الناسك أن تأذن له بالجلوس لحظات يستريح خلالها . وفي أدب ورفق ، أذنت له سياتا ، وأحضرت ماء وفاكهة ، ثم راحت تنصت إليه وهو يسألها عن سبب وجودها في ذلك المكان . وبرغم الدهشة التي ملأتها للسؤال الغريب ، طففت تقص عليه الأمر حتى بلغت قصتها مع الظبي .

وهنا توقفت في ذعر ، فقد أخذ الناسك العجوز يضحك ويصفق ، ثم إذا بقامته تعتدل ، وظهره يستقيم ، وإذا به يتفرض ليصير شابا قويا ، له عشرون ذراعا ، وعشرة رؤوس . . !

لقد كان العملاق الواقف أمامها هو رافانا نفسه .

وانقض ملك الشياطين على «سياتا» وهو ينادى على مركبته ، ودفع الأميرة إلى داخلها ، وانطلقت بهما المركبة تخرق الجو في طريقها إلى جزيرة سرنديب - وهي سيلاني أو سيريلاانكا الحالية حيث مقر عرشه . . !

ظلت المركبة تطير ، والأميرة مشدوهة حائرة لاتكاد تعي . وأطلت فإذا ملك النسور

يطير غير بعيد فاستغاثت به ، وانتبه ملك النسور إلى الاستغاثة ، فإذا عدوه ملك الشياطين ، قد اختطف فتاة حملها في عربته السحرية الطائرة ، وتحول النسر الضخم يتبع العربة وينقض عليها ، غير أن الشيطان كان أسرع منه ، فطعنه في جنبه بخنجره طعنة قاتلة سقط النسر على إثرها من ذلك العلو الشاهق نحو الأرض ، وقد غرق في بحر من الدم . . !

واستمرت العربة تطير ، حتى اجتازت غابة واندالك ، ثم حطت قليلا على جبل تعيش عليه مخلوقات تشبه القروذ . وعندما استأنفت الطيران ، كانت الأميرة قد عمدت إلى إلقاء وشاحها وعقدتها ليسقطا على سفح الجبل بين أيدي القروذ . ولم ينتبه ملك الجن إلى سقوط الوشاح والعقد حين كان يسرع إلى جزيرته . أما هي ، فقد ملاحا الأمل في أن يعثر راما عليها إذا كان قد نجا ، وتدله القروذ على المكان الذي اتجهت إليه .

* * *

بينما كان كل ذلك يحدث ، كان « راما » قد انطلق في طريقه عائدا إلى الوادي بعد أن انتصر على الشيطان مارتشى . وبينما هو في طريقه إذ التقى بأخيه لكشيان الذي كان قد انطلق في نجاته . وصرخ « راما » إذ وجد أخاه وحده ، وراح يؤنبه إذ لم يستمع إلى تحذيره وتوصيته بألا يترك « سيتا » وحدها . . فقد كان أدرك أن المؤامرة قد نجحت في إبعادهما عنها ، لينفرد بها « رافانا » ويخطفها . وأسرع الأخوان إلى حيث تركا الأميرة ، فإذا المكان خال ، وآثار المعركة بادية ، ولا شيء هناك سوى السكون . !

لم يستطع « راما » احتمال الصدمة ، فسقط غائبا عن الوعي . وعندما انتبه إلى نفسه طفق يبكي ويصرخ وأخوه يحاول التخفيف عنه بغير جدوى . وأحس لكشيان خطورة الأمر إذا ما طال انتظارهما في ذلك المكان ، إذ سيفقدان فرصة البحث ومتابعة أثر ملك الجن . فأخذ يدعو أخاه إلى مغالبة اليأس ، والإسراع إلى الجنوب حيث تقع مملكة « رافانا » التي يتحدث عنها الجميع . . . !

أخذ الأميران طريقهما إلى الجنوب . وبينما هما يسيران ، إذا بهما يبصران شيئا ضخما يتمدد على الأرض ومن حوله بركة واسعة من الدم . واقترب الأخوان يتأملان ، فإذا به ملك النسور يتحضر والدم لا يزال يسيل من جنبه ساخنا حارا . واقتريا منه يسألانه سر ذلك الجرح ، فقص عليهما القصة ، وأشار إلى الطريق الذي سلكه ملك الشياطين .

وقبل أن يستأنف الأميران السير، شقا مدفنا للنسر الذي فقد حياته وهو يدافع عن

فتاتهما . ثم أمعنا في السير إلى حيث أشار لهما . وبلغا آخر الأمر جبلا ضخما وقفا لدى سفحه يفكران في وسيلة لارتقاؤه . وبينما الحيرة تأخذ بهما ، إذ بقرد كبير يخرج عليهما من إحدى مغارات الجبل ويسألهما عن سر وجودهما في ذلك المكان . وقال له راما :

- ومن تكون أنت . . وما هو اسمك ؟

قال له القرد :

- أنا « هانومان » سفير الملك سجريفا ، الحاكم الحقيقي لهذا الجبل . فما الذي تبغيان من حضوركما إلى هذا المكان ؟

وقص عليه راما قصته . وهز هانومان رأسه وهو يقول :

- لقد رأيت بنفسى مركبة رافانا وهو يطير بها نحو الجنوب . لقد كانت الأميرة الجميلة جالسة في إعياء بداخلها ، وعندما مرت بالجبل أسقطت عامدة وشاحها وعقدها ربما لتدل الباحثين عنها إلى المكان الذي إليه تطير .

وأخذ « هانومان » بيد راما ، وانطلق به إلى الملك ، سجريفا لعله يمد له يد العون . وبينما هم في الطريق قص القرد على راما ، كيف أن « سجريفا » يعيش الآن مغلوبا على أمره ، وحوله قليل من الأتباع ، بعد أن اغتصب أخوه عرشه وطرده من قمة الجبل . ووعد « راما » القرد أن يساعد سجريفا لاستعادة عرشه بعزيمته الماضية وسهامه القاضية ، إذا هو وعد بمساعدته في الوصول إلى زوجته .

وكان هذا هو ما حدث بالفعل . فقد اتفق سجريفا مع راما على أن يتبادلا المساعدة . وحمل راما قوسه وسهامه ونباله ، فشن بها حربا شعواء على ملك الجبل الذي اغتصب عرش أخيه . وبعد صراع عنيف استطاع « راما » الفوز بالنصر ، فهزم الغاصبين ، وأعاد سجريفا إلى عرش الجبل . . .

ومن أجل أن يرد سجريفا الجميل لحليفه ، وجه أربعة من جيوشه التي تضم آلافا من القردة العملاقة الهائلة ، إلى جهات العالم الأربع ، وأمرها أن تسير في الأرض باحثة عن المكان الذي نزل فيه رافانا والأميرة المخطوفة .

وكان على « راما » و« لكشمان » أن ينتظرا في مملكة القروود عودة الجيوش الأربعة . وانقضت أيام طويلة كأنها السنون ، عادت بعدها ثلاثة جيوش بغير نتيجة . ولم يبق غائبا سوى الجيش الذي كان قد توجه إلى الجنوب وعلى رأسه هانومان سفير الملك الذي أخذ معه خاتم راما .

والحق ، إن جيش الجنوب ظل يلقي من الأهوال والمخاطر مالم يتصوره أحد قط . ولقد بلغ إخلاص هانومان لصديقه راما حدا جعله لايهتم أبدا بما يقاسيه هو وجيشه في سبيل بلوغ مقر ملك الشياطين وظلت الأيام تمر وهو يقود جيشه حتى بلغ آخر الأمر شاطئء المحيط . وأطل فإذا هناك على مسافة بعيدة جزيرة مسحورة يحيط بها ضباب كثيف .

وأدرك هانومان أن هذه الجزيرة هى المكان الذى يسعى إليه . وبرغم طول المسافة التى تمتد بين شاطئء المحيط والجزيرة المسحورة ، فقد قرر هانومان الوفى أن يقفز قفزة جبارة هائلة . . إما أن تصل به إلى الجزيرة ، وإما أن تورده الهلاك . . !

وكان « هانومان » يحب المخاطرة ، فترك جيشه حيث هو ، واعتلى ذروة صخرة ناتئة من صخور الشاطئء . ثم قفز قفزة هائلة فى الهواء . . !

كانت القفزة رائعة حتى لقد كاد ظهر هانومان يصطدم بالسماء . وإذا به قد عبر المحيط الواسع ، وحطت قدماه على شاطئء جزيرة سرنديب . . !

وعندما أحس هانومان أنه قد نجح فى الوصول إلى الجزيرة ، استخدم سحره ليتحول إلى قرد صغير حتى لا تلتفت إليه الأنظار . وأخذ ينتقل بين بيوت الشياطين باحثا عن قصر « رافانا » حتى بلغه . وعندما اجتاز أسواره ، شهد سرادقا صغيرا ، يمتد فى حديقة القصر الواسعة . واقترب من السرادق ، ومد بصره يتلصص فى حذر ، وإذا به يقف مبهورا يمتلئ عجباً . فقد كانت سينا هناك ، بارعة الجمال كملاك ، ترقد على فراش مريضة منهوكة . . ومن حولها ماردات من العفاريت يجرسناها ، ورافانا واقف على رأسها يهددها ويتوعدها ويقول لها : إن صبره قد نفذ لطول ما أمعت فى رفض الزواج منه ، والإصرار على الوفاء لزوجها راما . . ! وعندما عجز رافانا عن استرضاء سينا - كما كان يعجز كل يوم - غادر السرادق وقد أقسم أن لن ينتهى ذلك اليوم ، حتى يكون قد أرغم أنفها ، وأذل كبرياءها . وما كاد رافانا يغادر السرادق ، حتى اقترب القرد الصغير من الفراش ، ثم همس باسم راما . .

وانتفضت الأميرة وتلفتت حولها ، فإذا قرد صغير ولا شىء آخر هناك . وظنت أنها كانت تحلم ، فأغمضت عينيها ، ولكن القرد عاد يذكر اسم راما ، ففتحت عينيها من جديد ، فإذا بالقرد يخرج خائما ذهيبا ما كادت تراه ، حتى أيقنت أنه خاتم زوجها الحبيب . ! وقبل أن تصرخ من الفرح كان هانومان قد أشار إليها فى سرعة خفية يحذرهما من الصراخ .

وأشار القرد من طرف خفى إلى « سينا » أن تنتظر وتطمئن . وفهمت هى إشاراته ، وعرفت أنها النجاة .

وغادر هانومان المكان وقد قرر الرجوع سريعا إلى بلاده ليعود بجيش ضخم ومعه «راما» لينزل النعمة بملك الشياطين . ولكنه لم يكد يتعد قليلا حتى ملأت رأسه فكرة جديدة ، هى أن ينزل نعمته هو أيضا بمملكة الشياطين ، ويحطم كبرياء ملكها ويذله .

وفى لمح البصر رفع « هانومان » عن نفسه السحر فعاد قردا ماردا ضخما ، راح يحطم الأشجار ويقتلع الصخور ويقذف بها نوافذ القصر . ولم يكد يفعل حتى أحاطت به الشياطين من كل جانب . وأطل حوله ، فإذا هو وحيد وهم كثيرون . وأدرك بعد فوات الأوان ، مقدار خطئه وتهوره ، وعرف أنه واقع لالحالة بين أيديهم ، وهنا خطرت له فكرة . فاقطلع من بهو القصر عمودا كبيرا من الرخام قفز به وسط جموع الشياطين ففرق شملهم . ثم قفز فى الهواء قفزة هائلة كان واثقا أنها تبلغه شاطئ المحيط ، إلا أن سهما أرسله أحد شياطين الجن أصابه . وبرغم أن الإصابة كانت خفيفة ، إلا أنها كانت كافية لأن تهوى به قبل أن يبلغ الشاطئ . فجذبه الشياطين ، وأوثقوه بالحبال ، وقادوه إلى « رافانا » الذى كان نائرا يرمى ويزيد ويهتز كزلزال . . .

وأصدر رافانا أمره فى الحال بإحراق هانومان وأحاط الشياطين جسم القرد بلفائف القطن ، ثم أشعلوا النار فى القطن الذى أحاط بذيله . واشتعلت النار ، وبدأت تتسرب بطيئة إلى جسد القرد .

وشهدت السماء ذلك العذاب الذى نزل بالمنقذ . . فأشفقت عليه ، وتجمعت السحب وأمطرت مطرا غزيرا كان فيه الكفاية لإخماد اللهب ، وتيسير سبل الهرب للقرد بعد أن أحرقت النار واثاقه ففكت قيده .

وأقلعت السماء فجأة ، وأطل هانومان فإذا طرف ذيله لا يزال يشتعل به بعض النار .

وخطرت له فكرة جديدة . لقد كانت الأميرة تجلس فى سرادق بعيد عن القصر ، فلا خوف عليها إذا هو أحرق القصر نفسه . . .

ونفض لفوره وراح يقفز هنا وهناك ، يدور بذيله فى كل اتجاه ، ويشعل النار فى كل شئ حوله . وأمسكت النيران بكل جزء فى القصر . ولم تمض لحظات حتى كان قد تحول إلى شعلة كبيرة هائلة .

وفى نشوة عارمة قفز هانومان قفزة هائلة ، بلغ بها شاطئء المحيط . وأسرع فى مثل لمح البرق حتى بلغ الجبل ، وراح يقص الأمر على « راما » الذى أسرع إلى الملك «سجريفا» يطلب منه أن يمدده بباقى الجيوش .

وعلى رأس أضخم جيش شهدته الأرض ، سار راما ولكشمان وهانومان حتى بلغوا شاطئء المحيط ، ووقفوا فى مواجهة جزيرة سرنديب .

وأطل الشياطين من بعيد وملاًهم الرعب . لقد استطاع قرد واحد فقط من هذا الجيش اقتحام جزيرتهم ، وإنزال الخراب بقصر الملك . . فكيف لو نزلت كل هذه الآلاف من القروء بالجزيرة التى ملاًها هانومان وحده من قبل ربعا . . ؟!

وكان « رافانا » على يقين من الهزيمة بعد أن تحالف ضده راما وهانومان . فجمع مستشاريه وشرعوا يبحثون الأمر من كل الوجوه .

واختلف الشياطين ونشبت بينهم ثورة . ونهض « فبهيشان » شقيق رافانا الأصغر يطالب بتنحية أخيه وتسليم « سيتا » إلى زوجها ، ليحل السلام محل الحرب . غير أن «رافانا» ثار عليه وكاد يقتله . فهرب هذا من أمامه ، وقد أقسم أن ينتقم . . .

وقفز الشيطان الصغير فصار على الشاطئء . وانطلق إلى « راما » يقص عليه قصته ، ويعرض عليه خدماته . وظنه « راما » أول الأمر جاسوسا ، لولا أنه أشار عليه بإقامة قنطرة من الأشجار والصخور تعبر عليها الجيوش البحر .

وفكر « راما » فيما أشار به الشيطان الصغير، واقتنع بصواب الفكرة، ونفذها . . . ولم تكد تمضى خمسة أيام حتى كانت ملايين القردة ، قد جمعت كل ما أمكنها جمعه من جذوع الشجر وقطع الصخر . وأقيمت القنطرة وعبرتها الجيوش فى جنح الظلام .

ونشبت المعركة هائلة مروعة بين جيوش راما وجيوش رافانا . ومن كل من الجانبين سقط الآلاف قتلى وجرى ، بيد أن قتلى الشياطين كانوا أضعاف ما أصاب جيوش «راما» الذى استعمل سهامه المسحورة ، فأخذت تعصف بالشياطين عصفا مخيفا .

واستمرت الحرب طاحنة عدة أيام انتهت بهزيمة جيوش الشياطين . وعندما وجد «رافانا» أنها الهزيمة ، امتلا غيظا وحنقا ، وانتفض مقسما أن يقتل « راما » ولو كلفه ذلك حياته .

ونشبت مبارزة هائلة بالنبال بين راما ورافانا . . .

وكان ملك الشياطين عنيفا في مبارزته حتى لقد بدأ رامبا ينهار ، وكاد يستسلم .
لولا أن جمع قوته كلها قبل أن يسقط على الأرض في رمية واحدة بسهم مسحور من
قوسه . وأخذ السهم طريقه سريعا إلى قلب رافانا فأرداه . . .

وردت نشوة النصر إلى رامبا قوته ، وانطلق يجري نحو السراق الذي تقيم فيه زوجته
يقوده هانومان الوفي . ولم يحس كل من الزوجين كم من الوقت مر بهما وهما متعانقان . .
إلا أنها عندما انتبها ، كان الهدوء قد ساد المكان . وكان فهيشان الشيطان الحليف
واقفا على رأس قومه الساجدين يطلبون الصفح والغفران . . !

وانتصب «راما» قائما من جديد . وأصدر أوامره بالصفح عن من بقى من
الشياطين ، على أن يحكمهم فهيشان ويمنعهم من الهبوط إلى الأرض بعد ذلك . .

وعندما أخذ رامبا وسيتا ولكشمان طريق العودة إلى الوطن ، كانت الأنباء قد سبقتهم
إلى هناك على لسان هانومان . . فخرجت أبوذا كلها وعلى رأسها نائب الملك باراتا
الذي رفض أن يجلس على العرش طوال أربع عشرة سنة . . وظل محتفظا به ليضع التاج
بعد ذلك بنفسه على رأس أخيه رامبا وزوجته سيتا الحسناء . . !

أسطورة هندية المصباح المسحور

بين هذه الأسطورة في أدب الهند . . وأسطورة علاء الدين في ألف ليلة وليلة ، شبه كبير . . وليس هناك شك أن لكل منهما أصلا واحدا ، يؤكد ذلك أن أغلب أساطير ألف ليلة يوجد لها شبه في أساطير الهند والصين . .

بل في كثير أيضا من أساطير فينيقيا . على أن كل واحدة منها تختلف في الغالب عن شبيهتها بتأثير البيئة وأصول الحياة التي تعيش في أرضها كأسطورة . . كما حدث في «المصباح المسحور» .

عندما فتحت الباب ، وجدت أمامها عملاقا أسود قبيح الخلقة وجهه كوجه عفريت . . ولما همت بأن تغلق في وجهه الباب ، وضع قدميه بين مصراعيه ليمنعها . . وقال لها :

- ماكنت أظن امرأة في العالم تستقبل شقيق زوجها الأكبر كما تستقبلينني الآن!

وتوقفت يدها فوق الباب وهى تحديق في وجهه . أيمكن أن يكون هذا العملاق حقا شقيق زوجها الذى مات منذ سنوات؟! لقد كان زوجها خفيف السمرة وهذا أسود . . وكان زوجها قصيرا وذاك عملاق ، وكان لزوجها عينان صافيتان كماء البشر ، وعينا العملاق تبرقان بريق الثعبان في خبث ودهاء .

وانتهت المرأة من تفكيرها على صوته يقول :

- لقد تركت تجارتى في بلاد الرقراق وجئت لأطمئن على أخى الذى افترقت عنه منذ أكثر من عشرين سنة . وإنى لأكاد أموت جوعا لطول الرحلة عبر الصحارى والقفار ، كما أحس رعدة الحمى من البرد بعد أن أغرقتنى مياه الأمطار طوال ليلة أمس . . فهيا يا امرأة أخى خذيني بقرب النار استشعر الدفء بينما تعدين بعض طعام يزيل عنى الجوع الذى يكاد يقضى على . . . !

وأمام المدفأة وهو يأكل ، أخذ الرجل يسمع من الأرملة كيف مات أخوه في حادث

بالبحر ، وكيف أحضره إليها وهو لا يستطيع أن يخرج من بين شففيه سوى لفظ واحد فقط لم تستطع أن تفهم ما يعنى به . . فقد كان يقول . . الكنز . . الكنز . . ولاشئ بعد .

وفكر الرجل قليلا وهو يتلکأ فى المضغ قبل أن يجيب :

- الكنز يا زوجة أخى العزيز . . الكنز . . أجل إنك تريدين معرفة مكانه . . ولعلك إذا أذنت لولدك بالخروج معى للبحث عن الكنز الذى أظنه فى واد كنا قد اجتزناه معا أنا وزوجك ذات يوم . . فسنعود معا محملين بجواهر لاحصر لها ولا مثيل . .
وابتلعت المرأة لعابها وهى تبسّم فى فرح . . فقد استطاعت أخيرا أن تعرف سر الكنز . . !

ومكث الرجل ضيفا عليها بضعة أيام . وعندما جاء اليوم الذى حدده للرجل خرج ومعه الغلام يحمل كيسا كبيرا مملأته لها بكل ما يلزمها خلال الرحلة من طعام وشراب . وقطع الاثنان معا عدة أميال فى طرق طويلة وعرة . وحين أحس الغلام التعب قال لعمه :

- لقد تعبت يا عمه . . وما عدت أقوى على السير أكثر مما سرت . . .
وعنف الرجل الغلام فى قسوة لضغفه وخوره . . فاندفع يمشى بأقصى ما يستطيع من سرعة يمكن أن يحتملها جهده الصغير . .
وتوقفا آخر الأمر عند تل تسلقاه . وعندما بلغا قمة التل أمر التاجر الفتى الصغير بجمع حمل كبير من الحطب ، وإشعال النار فيه . وجمع الفتى الحطب ثم وقف أمامه لا يدرى كيف يوقده فى حين وقف عمه يتأمل . . ولا يفعل شيئا قط . . !
وأمره الرجل أن ينفخ بفيه كما لو كان يشعل النار . وظل الغلام ينفخ وينفخ والنار لا تريد أن تشتعل . وقال لعمه :

- عمه . . .

ولم يتركه الرجل يكمل . . فقد صفعه على وجهه وهو يقول :

- اسكت أيها البغل فلست عم أحد . . انفخ . .
وعاد الفتى ينفخ فى الحطب ورأسه يدور . . فهذا الرجل إذن ليس عمه . . وهو لذلك يعذبه ويصفعه ويقسو فى معاملته قسوة لا مبرر لها . .

وفوجيء الفتى بالرجل يلطمه من جديد ويقول :

- إنك لا تنفخ جيدا . . انفخ وإلا قضيت عليك .

وبكى الغلام . . وأبى أن يعيد النفخ . .

وانهال الرجل عليه ضربا وركلا حتى تعب وتحول هو إلى الحطب ينفخ فيه بقوة . . حتى اشتعلت النار فجأة ، وأمسكت بالحطب حتى أتت عليه . وعندئذ . . ظهر بين الرماد باب سحري ، أمر الرجل الفتى الصغير أن ينحنى عليه ويفتحه بيديه .

وأخذ الغلام يجذب الباب بشدة . ولكن الباب أبى أن يفتح . . وعاد الرجل يضرب الفتى بشدة ويقول له :

- إنك بغل كبير . . . لا تريد أن تعمل إلا تحت ضرب الشياطين . . .

وعاد الصغير يجذب الباب بكل مامنحه الله من قوة . . وأخيرا رفع الباب من مكانه . . وإذا تحت الرماد سرداب طويل يضيئه مصباح . . تراكت حوله كميات كبيرة من الزهور مصنوعة من ذهب ١١

وأمر الرجل الغلام بالنزول في السرداب ، وحذره من أن يطأ الزهور الذهبية بقدميه ، وأمره أن يذهب إلى المصباح المعلق فيأخذه وينير لنفسه المكان . . حتى يستطيع أن يجمع ما يستطيع جمعه من الأزهار الذهبية ، ويضعها على صحيفة من ذهب كانت هناك .

ونفذ الغلام الأمر ، ورفع الصحيفة المملوءة بأزهار الذهب فناولها الرجل ، ثم طلب منه أن يرفعه إلى الخارج ليغادر السرداب . غير أن الرجل لم يكد يأخذ صحيفة الذهب حتى ضرب الكفين المدودتين إليه في قسوة ، ثم أغلق الباب الحديدي السحري . . ومضى تاركا الصبي حبيسا داخل السرداب المظلم المخيف . ١ .

وأخذ الغلام يبكي ويستغيث . ولكن صوته الضئيل لم يكن من الممكن أن يخترق الباب الحديدي الضخم الذي يفصل بين السرداب وسطح الأرض . ١ .

ومرت الساعات طويلة قاسية ، وبدأ اليأس والجوع يحطمان أعماق الفتى الصغير . وبدأت عينا الفتى تنضبان فلا تجدان حتى الدموع . ومد يده الصغيرة يمسح مافوق خديه من آثار الدموع . . وقد خطر بباله أن ينهض ليدور في السرداب عله يجد أى شيء يستطيع أن يأكله .

ومد الفتى يده إلى الأرض يتكىء عليها فاصطدمت كفه بالمصباح الذى كان ملقى على الأرض فى الظلام . . واحتك الخاتم الذى يضعه فى إصبعه بجوانب المصباح . . وفى لحظة . . أضواء المصباح كأنه البرق . . ثم خرج منه فى الحال عفريت ماردا . . انحنى أمام الغلام فى احترام وقال له :

- مولاي . . أنا خادمك بين يديك . . مر بها تريد أنفذه فى اللحظة والتو . . !

وارتعد الفتى الصغير حين رأى العفريت . غير أن انحناءته وكلماته العامرة بالاحترام أزالته من قلب الفتى شبح الخوف . . وانطلق لسانه يقول فى دهشة :

- هل تستطيع ياسيدى أن تفتح الباب وتخرجنى . . !

وفى لمح البرق ، مد العفريت ذراعه العملاقة فنحى الباب الحديدى ، ثم مد يده فرفع الغلام من داخل السرداب ليضعه على سطح الأرض . ولم يكذب فعل حتى اختفى فجأة . . تماما كما ظهر من قبل .

وانطلق الغلام يجرى ويجرى ، وفى يده المصباح حتى بلغ داره . وعندما دخل البيت ألقى بنفسه فى أحضان أمه التى صرخت حين رأت هزاله ، وسألته عما به فقال لها : إنه لا يستطيع أن يقص عليها الأمر حتى تقدم له مايسد رمقه .

وقالت الأم فى أسف حزين :

- يا ولدى المسكين . ليس فى المنزل شىء أقدمه لك . . !

قال الغلام :

- لآتحزننى يا أمى . . سأبيع هذا المصباح الذى وجدته فى السرداب . ثم نشترى بثمنه طعاما كثيرا .

وبدأ الفتى يحك المصباح لينظفه . ومرة أخرى لمس الخاتم جوانب المصباح . . فإذا البرق يخطف ، وإذا العفريت ينطلق منه ، وينحنى فى احترام قائلا :

- مولاي . . أنا خادمك بين يديك . . مر بها تريد أنفذه فورا .

ولم يرتعد الفتى هذه المرة . بل قال له فى شجاعة :

- أرجوك أن تأتينى بأرز مطهر . . وآخر غير مطهر . !

وفى اللحظة نفسها . . امتدت أمام الفتى وأمه مائدة حافلة بأطباق أرز ساخنة ، وإلى جوارها أكياس أخرى مليئة بأرز كأنه حصد منذ لحظات .

ومضت أيام . . ونسى الغلام أمر المصباح . . !

ثم مضى عام . . وتبعته أعوام . . وبلغ الغلام مبلغ الشباب .

وذات يوم . . بينما هو يسير في الطريق . . مرت به ابنة حاكم المقاطعة تزهر في محفتها وهي في الطريق إلى البحيرة . وأخذ الفتى يرقبها ويتبعها حتى بلغ حاملو المحفة جانب البحيرة . . ونزلت الأميرة الجميلة وخلعت ملابسها . . ثم انزلت إلى الماء تستحم .

واختبأ الفتى خلف شجرة ، وراح يرقب حركات الأميرة ، التي شغفته جدا . وعندما عاد إلى البيت آخر اليوم كان ملء أعماقه رغبة في أن تصير الأميرة زوجة له . . !
- كيف يا ولدى . . وهل تجرؤ على خطبة ابنة الراجا ونحن فقيران لانملك شيئا ؟
أجاب الفتى العاشق :

- اذهبى إليه يا أماه واسأليه عن شروطه . . لعل السماء التي ملأت بالحب قلبي أن تمنحني ما يطلب الراجا لقاء هذا الحب . . !

وانطلقت الأم إلى الراجا فوفقت ببابه . وقالت له في استحياء إن ولدها يجب الأميرة . . ويسأله أن يأذن له بزواجها . . !

وأجاب الراجا :

- لا مانع لدى من أن تتزوج ابنتي . . ولكنى لن أزوجه إلا لمن يستطيع أن يقدم لها من المال ما يزيد على ما أملكه أنا نفسي . . !

ورجعت الأم إلى ولدها فحدثته بما أجاب الراجا . وامتلا الفتى حيرة وراح يقضى النهار والليل يفكر ويكي . . والعشق يكاد يقضى عليه .

وبينما الفتى في عذابه إذ ذكر العفريت الذى كان يظهر له عندما يحك المصباح بخاتمته . فأسرع إليه وحكه بخاتمته ، فإذا العفريت أمامه . . وما إن طلب منه ما يريد حتى قدم له من المال أضعاف ما يملكه الراجا . . !

وحمل الفتى كنزه إلى قصر الراجا الذى فتح عينيه دهشة . ثم قبله خاطبا لابنته ، حدد موعدا قريبا لإتمام الزفاف .

وانقضى الموعد ، والحب يكاد يهلك الفتى ، والراجا لا يريد أن ينجز وعده . وعندما ذهبت إليه أم الفتى آخر الأمر تستنجزه الوعد ، أخذ يحاول التهرب والتحلل بما

وعده به ، فلما ضيقت عليه الخناق طلب أن يعد الفتى لابنته قصرا لا يقل عن قصره رونقا وفخامة . !

وأمسك الفتى المصباح من جديد . . وطلب من العفريت أن يبنى إلى جوار قصر «الراجا» قصرا يفوقه رونقا . . وما إن أسفر الصبح حتى كان العفريت قد انتهى من تشييد قصر رائع بدا قصر «الراجا» إلى جواره كوخا ضئيلا .

وكان لابد للراجا بعد ذلك أن يمثل . .

وتزوج الفتى بفتاته . . .

ومضت شهور . . وتلتها شهور . .

و ذات يوم خرج الفتى في رحلة صيد . وبينما هو على مسافة غير قصيرة من القصر . ظهر أمام الرتاج رجل كثيب الوجه عملاق . كان هو نفسه « العم الشرير » الذى حبس الغلام فى ظلام السرداب .

وفتحت الأميرة باب القصر للرجل الذى كان يحمل مصباحا جديدا يتألق ويبرق . وعرض الرجل على الأميرة المصباح الجديد متنازلا عنه مقابل أى مصباح قديم تعثر عليه فى القصر . !

وفرحت الأميرة بالمصباح الجديد . . وانطلقت تبحث عن مصباح زوجها القديم الذى علاه الصدا ، فأعطته للرجل . . وهى لاتدرى من أمره شيئا . . !

وعندما ابتعد الرجل قليلا عن القصر . . حك المصباح بخاتمه . . فظهر العفريت وانحنى يقول له :

- مولاي . . أنا خادمك بين يديك . . مر بها تريد أنفذه فى التو واللحظة . . !

وطلب الرجل من العفريت أن ينقل القصر والأميرة بداخله إلى بلده عبر البحار . . وعندما عاد الأمير من صيده راعه ألا يجد لقصره أثرا . . فطلق يصرخ ويكيى كمن أصابه مس . . وينادى على زوجته الحبيبة . . ولكن رجع الصدى وحده هو الذى كان يجيبه من بعيد . . !

ولم يكن من الممكن أن يفهم «الراجا» شيئا من ذلك السر المجهول . . كل ما كان يبغيه هو أن تعود ابنته التى اختفت مع القصر . . وصرخ «الراجا» فى الفتى وهو يهدد ويتوعد :

- سأمهلك أيها الفتى ثلاثة عشر يوما . فإذا لم ترد إلى ابنتى خلالها . . قطعت رأسك قبل الصباح .

وانطلق الفتى يبحث في جنون . وطفق يدور في كل مكان . . في الصحارى والقفار . . في الجبال والوهاد ، ولكن أحدا لم يستطع أن يديه قط . . !
وجاء اليوم الثالث عشر ، وأيقن الفتى أن الغد سيحمل له الموت . . فاستسلم لقدره ، وصعد إلى قمة جبل ينام على الصخر ويريح جسده المنهوك .
وبينما هو نائم . . إذ احتك خاتمه بالصخرة التى أسند إليها رأسه . . وفي لحظة . . ظهرت جنية أيقظته وسألته عما يريد . . !!
وصرخ الفتى :

- لقد فقدت زوجتى وقصرى . . فدلبنى على مكانها إذا كنت تعرفين .
وتحولت الجنية إلى نسر كبير طار به في الهواء . وعندما بلغ بلد التاجر هبط النسر وترك الفتى أمام باب القصر . ثم اختفى كأنها ابتلعت الأرض .
وبقدرة السحر حول الفتى نفسه في هيئة كلب . وانطلق في حديقة القصر حيث كانت الأميرة تستلقى في زهول . وعندما رآته يتمسح بها ، وأطلت في أعماق عينيه أدركت أنه زوجها الحبيب . . فعانقته وراحت تحدّثه عن التاجر الذى خطفها . وعندما سألها الفتى عن المصباح . . قالت له إن التاجر لا يتركه في القصر أبدا . . بل يحمله في سلسلة تحيط بعنقه حتى لا يخطفه منه أحد . . .
وسألها زوجها :

- وما الذى يمكن أن نصنعه الآن . . ؟
أجابته الزوجة الوفية :

- إن الشر لا يقضى عليه سوى الشر فدعنى أدس له السم في طعامه هذا المساء . . !
وعندما عاد التاجر من عمله . . أمر بعشائه فأعد له ، ولما انتهى منه أحس آلاما كريهة قاتلة . . ولم يكديدرك سرها حتى سقط على الأرض ميتا . . !
وعاد الكلب إلى صورته الأولى . . ومد الفتى يده فخلع المصباح من السلسلة التى تحيط بعنق التاجر . وسأل العفريت أن يعيد القصر وهما فيه إلى مكانه الأول . . بجوار قصر الراجا . . .

وحمل العفريت القصر فوضعه في مكانه القديم . . ولكنه قبل أن يختفى أقسم ألا يعود أبدا . . فما عاد يستطيع حمل القصور . . !

أسطورة هندية عريس واحد وست فتيات

هذه الأسطورة في الأدب الهندي مثل ما لمجنون ليلى من مكانة في الأدب العربي . ففيها يتمثل الحب بكل ما فيه من وفاء ، وبكل ما فيه من تضحيات ، وبكل ما يصور من مثل عليا لها طابعها الفريد الخاص . .

ولكن . . جنباً إلى جنب مع قصة الحب البريء ، تبرز من بين السطور قصة أخرى تزيج الستار عن نقائص المرأة السبع الكبرى . . الكسل ، والغرور ، والبخل ، والحسد ، والشراسة ، والغضب ، والإسراف . . وهو ما لم تنس أن تقدمه هذه الأسطورة . . !

لم يكن « مادهو » الحكيم الهندي يأسف لشيء أسفه لعجزه عن الحصول على زوج لكل من شقيقاته الست . . . كان يعلم جيداً أن فتياته يقضين في داره أياماً شقية ، وأن كلا منهن تتمنى أن تهجرها وترحل عنها إلى بيت أى زوج يمكن أن يقع في شباكها . غير أن أحداً لم يحاول الاقتراب من بيت مادهو . . فقد كان قبح « زهرة اللوتس » كبرى شقيقات الحكيم ، وسوء خلقها ينفران أى عريس من خطبة إحدى شقيقاتها الصغيرات . . . فقد كان لها هي وحدها الحق في الخروج ، والحق في الكلام ، والحق في مخاطبة الشبان ، والحق أيضاً في الحصول على أول الأزواج . . !

وبلغت « زهرة اللوتس » سن الأربعين ، ولم يعد في استطاعة شقيقاتها الانتظار أكثر مما انتظرن ، وانقلب حبهن لها حقداً وغيظاً واستياء . . حتى لقد بدأت كل منهن تفكر في وسيلة للخلاص من « العانس العجوز » لولا بعض خير يرسل في قلوبهن . . من ذلك النوع الذى يملأ قلب شقيقهن .

ولس « مادهو » مبالغ إليه الحال من حرج . . فأقسم ألا يرفض زوجاً يتقدم لأى من الفتيات . . حتى ولو طلب الخاطب يد « نور الفجر » الصغيرة التى لم تتجاوز السابعة عشر بعد . . !

في ذلك الوقت ، التقى مادهو بضابط شاب غنى يسمى « شاندر » . . وكان

شاندور من ذلك النوع من الشباب العرييد الذى لا يعرف كيف تكون الحياة بعيدا عن زوجات الآخرين . . . ! غير أنه فى ذلك اليوم الذى التقى فيه بمادهو، كان قد سئم عبء هذه الحياة وقرر أن ينفذ عن نفسه ثوب الخطيئة . . . ويتزوج . . . !

وعرض الحكيم على الضابط أن يزوجه واحدة من شقيقاته الست « الجميلات » . ولم يرفض شاندور عرض صديقه . . . غير أنه اشترط أن يقضى فى بيته أربعاً وعشرين ساعة . . . يكون له الحق بعدها فى اختيار العروس التى يريد . . .

وانطلق « مادهو » يبشر شقيقاته بالعثور على الزوج . . . ويجبرهن بالشرط الذى أبداه .

وهزت « زهرة اللوتس » رأسها فى استنكار وهى تقول :

- يتخير عروسه . . . ! هل نحن بقرات يأتى الغريب ليقبلهن ويركبن ليشترى منهن واحدة . . . !

وقال لها مادهو :

- إن هذا من حقه . . . ومع ذلك فإن لك امتياز التقدم إليه قبلهن . . . بحكم الأقدمية . . . !

وهتفت الفتاة :

- ولكن لم لاتقدمنى وحدى على شقيقتى . . . ثم يكون لهن حق الزواج بعد ذلك من أى فتى يردن . . . !

- لقد فعلت ذلك مدى عشرين عاماً . . . ولكن الضابط أصر على شرطه . . . فهل أدعه يفلت منا . . . ؟

هتفت الفتيات الباقيات فى صوت واحد :

- لا . . . لا . . . إن من حقنا نحن أيضاً أن نتزوج . . . ومن حقه وحده أن يختار الزوجة التى يريد . . . !

وعاد الحكيم يقول :

- ولكن أريد أن أصارحكن بما لا أبوح به لأحد غيركن . لقد اجتمعت فيكن النقائص السبع الكبرى : الكسل ، والغرور ، والبخل ، والحسد ، والجشع ، والغضب ، والإسراف . . . ويجب أن تتخلصن منها قبل أن يأتى الزوج المنتظر . . . !

وصاحت « زهرة اللوتس » في شقيقاتها وكأنها وضعت على رأسها هالة قديسة :
 - إن النقائص السبع تجتمع فيكن . . ولهذا فلن تستطيع واحدة منكن اختطاف العريس الجديد الذى سيكون من نصيبى وحدى . .
 وهتفت أسولا :

- إن النقائص فيك أنت وحدك . أما أنا فطاهرة نظيفة لا يستطيع أحد أن يعثرلى على نقيصة . . !

ودبت المعركة بين الفتاتين . واشتركت فيها بعد ذلك بقية الشقيقات . . عدا نور الفجر . . أصغرن وأجملهن . . وأبعدهن عن أى نقيصة من النقائص السبع الكبرى .
 وهتف مدهو :

- سكوتا . . وإلا فلا زوج ! . .

وفي لحظة انتهت المعركة . وبدأت كل منهن كأنها كانت بعيدة كل البعد عما دار في القاعة منذ لحظات . واطمأن مدهو إلى الهدوء الذى ساد المكان ، فنهض ليدبر غرفة للضابط شاندور ، والجندى الذى يقوم على خدمته .

* * *

لم يكد « مدهو » يغادر القاعة حتى تسلت « زهرة اللوتس » إلى مخدعها ، فأوصدت من خلفها الباب ، وأخذت تلتهم أوراق كتاب « فن الحب » وتحفظ ماجاء به من نصائح تمكن المرأة من الفوز بقلوب الرجال . وعندما استوعبت كل ماقرأت من نصائح ، تزينت بأجمل مالديها من جواهر، وارتدت أغلى مالديها من ثياب ، وفتحت الباب لتشارك مع شقيقاتها في قاعة الجلوس . . !

وأطلت « زهرة اللوتس » إلى شقيقاتها . . فإذا كل واحدة منهن قد فعلت بنفسها ما فعلته هى أيضا . . إلا نور الفجر ، فقد كانت لاتزال جالسة في المقعد الذى كانت تجلس عليه من قبل بغير زينة أو جواهر، تقرأ كتابا في الشعر ، وكأنها لانتهم بما يدور حولها على الإطلاق .

قالت مورارى ، وهى التى تلى « زهرة اللوتس » في السن :
 - أقسم أننى وحدى التى سأفتن الضابط شاندور . . !

فأجابتها « ياداة » :

- لن يفتنه إلا جمالى . . وأنا واثقة من أننى أنا التى ستفوز بحبه وإعجابه .
وأسكتتها « زهرة اللوتس » وهى تستعيد فى رأسها نصائح كتاب « فن الحب » التى
استوعبتها منذ لحظات وقالت :

- إنما نخدعن أنفسكن . . فأنا التى سأفقدته وعيه . . !

فأجابتها أسولا ساخرة :

- طبعا سيفقد وعيه . . ولكن لقسوة الواقع . . !

وانطلقت اللعنات من فم زهرة اللوتس . . وأجابتها بألعن منها كل من الشقيقات
الأخريات . وبينما الشجار يكاد يتحول إلى معركة ، ارتفع صوت « نور الفجر » فى رقة
وعذوبة :

- يا شقيقاتى العزيزات . . خير لكن بدل الشجار أن تصلين لكما . . إله الحب
.. حتى يسبغ عليك من الجمال ما يسحر قلب الضابط ويغريه بالاختيار!

وسكنت الفتيات فى الحال . . ثم ركن جميعا فى خشوع رافعات أيديهن إلى السماء
يسألن كما أن يزيدهن حسنا وجمالا فى عين العريس المنتظر . .

وفى تلك اللحظة ، دخل مدهو يعلن قدوم الضابط .

وانقطعت الصلاة . . فليس هناك وقت لإتمامها . . وأسرعت كل من الفتيات
تتخذ لنفسها خير الأوضاع لإبراز محاسنها والكشف عن مفاتها . . وترسم على شفيتها
ابتسامة حارة تنم عن الترحاب الصادق ، والاستقبال الحافل . .

ودخل شاندور القاعة . ومن خلفه جنديه وتابعه « سانفو » . . وراح ينحنى تحية
لكل من الفتيات اللائى وقفن كتماثيل مرسوم على وجهها بسمات صناعية جليلة
المعالم . . فرسم هو الآخر على وجهه بسمه من النوع نفسه وهو يقول :

- مرحى مرحى . . ما أروع المشهد الذى يتبدى لعينى ! لقد ملأتني أحلامى منذ
أيام . . ورأيتكن بعين خيالى . ولكن خيالاتكن عجزت عن أن تصور الحقيقة الرائعة
التي أتمثلها أمامى الآن . . فأنتن فى الواقع أكثر جمالا وأروع حسنا من كل ما تخيلت !

وتصنعت الفتيات الخجل ، وتركبن أخاهن يجيب التحية الرقيقة العذبة بخير منها

قائلا :

- مرحبا بك أيها الضابط العظيم . . الذى جمع كل صفات المجد والنبيل والثراء . . !
وتحركت « زهرة اللوتس » إلى الأمام . . وبدأ لها أن تكون البادئة بالكلام لعلها تلفت
نظر الضابط إلى جمالها ورونقها . ورأها شاندور فأنحنى من جديد أكثر مما انحنى من
قبل . . والتفت إلى مادهو وهو يشير إلى زهرة اللوتس ويقول باحترام :

- ليحرسكما الرب فيشنو . . وليسبغ رعايته عليك وعلى أمك . . !!

وصرخت « زهرة اللوتس » مجفلة كأنها لدغتها عقرب :

- أمه . . أمه . . إننى صغرى أخواته . . أصغرن جميعا . . !

وقال مادهو :

- أجل إنها من أصغر أخواتى . . فقد كان لى ست وثلاثون اختا رزق بهن أبى من
ثلاث نساء . وقد تزوجن جميعا عندما كبرن . . ولم يبق سوى هؤلاء الفتيات الست
الصغيرات . . !

وانحنى شاندور من جديد لزهرة اللوتس وهو يقول :

- ما أشد غبائى . . فقد خدعتنى الأصباغ على وجهك فحالت بينى وبين
الحقيقة . . !

وجذب مادهو ضيفه فى اضطراب إلى الحجرة التى خصصها له . وعندما جلسا
وحدهما قال شاندور :

- ما أجمل شقيقاتك وأفتنهن ! وما أسعدنى بالحصول على عروس منهن تزيل
وحشتى وتملاً وحدتى وتترع حرمان قلبى .

وأجابه مادهو فى ابتسامة راضية :

- إذا أردت أن تسعد حقاً فأنا أرشح لك « زهرة اللوتس » . . فهى مثال الرقة والعفة
وعلو النفس .

وهز شاندور رأسه وهو يقول :

- حقاً . . حقاً . . إن لها لصفات حميدة كثيرة . . ولكن هناك سنها . . !

أجابه مادهو :

- لا اتخذنك الظواهر . ومع هذا أليست الكبرى هى أقدر الجميع على الفهم
والإدراك وأكثرهن اهتماماً بأمور الزوج وحاجات البيت . ؟

قال شاندرور :

- أعلم هذا . ولكن ألت ترانى سريـع الغضبـ عنيـف الرد ، وقد تعجز فتاة مثـلها عن إرضائـى ؟ ومع ذلك فهـيـى لا أميل إليها ولا أبغيها . . ؟

قال مادـهو :

- لتكن الثانية إذن . . مورارى . . إنها مثال اللطف والسماحة والبراعة فى الحب والإرضاء .

هز شاندرور رأسه وقال :

- لنفرض أننى لا أجد ما يجذبنى إليها . فماذا يكون الأمر . . ؟

أجاب مادـهو :

- تكون أحق بالثالثة . . رادها . . فهى أقدرهن على خلق السعادة وملء جو البيت فرحا وبهجة .

قال شاندرور :

- هب أننى . . .

وقاطعه مادـهو :

- يبقـى بعد ذلك اثنتان . . يادافا ، وأسولا . ودعنا من أمر نور الفجر فما زالت صغيرة يافعة . . !

وسكت شاندرور ، وسرح ببصره فى شروـد . ثم قال وهو يهمس :

- إنها لطيفة . . .

وأسرع مادـهو قائـلا :

- بل إنها غاية فى اللطف والركة . . وهى أفضل من جميع الأخريات إذ هى خلـو من كل العيوب . . !

وانتهز الضابط الفرصة وهتف :

- إذن للأخريات عيوب ؟

وعض مادـهو على نواجذه لـزلة لسانه . ولم يجد إلا أن يقول له :

- إن بوسعك على أى حال أن تختبرهن بنفسك . وستجد متسعا لذلك خلال الساعات الأربع والعشرين التى ستقضيها بيننا . وأؤكد لك أنك ستجد كل واحدة من

الفتيات خيرا من الأخرى حتى لتعجز عن اختيار أفضلهن . . !
ووافق الضابط على فكرة الاختبار، وقرر أن يختبر كل واحدة من الفتيات على حدة . . . يجلس إليها فترة في المساء، يتحدث إليها، ويستشف أخلاقها وثقافتها ويقارنها بالأخريات .

وقبل أن يهبط الليل خرج الجميع إلى الحديقة، وراح شاندر يجرأ أمامهن قوسه وسهامه، فيصفقن له كلما أصاب هدفاً. وظلوا على ذلك حتى جاء المساء .

وهنا بدأ الاختبار . . وكانت «زهرة اللوتس» قد ذهبت إلى مطبخ الدار تصنع عجة . فحمد شاندر للقدرة تلك الفرصة وجلس مع الفتاة التي تليها «موراري» .

لم تكد موراري تدخل قاعة الجلوس حتى ثأبت . وعندما دعاها للجلوس ليتبادلا الحديث قالت له :

- مادمت تريد أن نتحدث . . فأرجو أن تحضر ذلك المقعد الذى فى أقصى الغرفة لأجلس عليه . . !

ونفض «سانفو» من مكانه ليقدّم لها المقعد وعندئذ لمحت فى يده مروحة صغيرة فقالت له :

- ما أشد الحر هنا ! ألسنت ترى أننى ، وأنا امرأة ، أحق منك بهذه المروحة ؟

وقدم لها «سانفو» مروحته فى هدوء . فأمسكتها بيدها وظلت فى جلستها ساكنة والعرق يغشى جبهتها وخديها . وعندما ازداد عرقها قال لها الضابط :

- حرى المروحة حتى تمنع الحر عنك . . !

قالت له وهى لاتزال ساكنة :

-إننى تعب . . فهل لك يا عزيزى أن تأمر الخادم بتأديبه تلك المهمة ؟!

وانحنى التابع فى سخرية ، وأمسك المروحة وراح يحركها أمام وجهها ليخفف عنها الحر . أما الضابط فقد أخذ يحدثها فى شؤون شتى . . ينتقل بها من حديث إلى حديث ، فلا يجد جواباً بأكثر من لا أو نعم . وخيل إليه أنها قد استكثرت حتى الإجابة بإحداهما عندما وجدها لاتجيبه . وبعد لحظات سمع غطيظاً خفيفاً يتصاعد مع زفرات موراري . . لقد كانت نائمة . . ! !

وتناول الضابط المروحة فألقاها على وجهها فلم تتحرك ، فنفض من مكانه ليغادر القاعة ، وإذا ضحكة صاحبة تنطلق لدى الباب . . فأطل فإذا «زهرة اللوتس» التى

كانت تسترق السمع تدخل القاعة هاتفة :

- هل نامت الكسول كالعادة . . ؟ إن هذا هو عيبها الذى تفشل دائما فى إخفائه .
وتقدمت « زهرة اللوتس » من أختها وراحت تهزها فى عنف . . فلما استيقظت
وأدركت مكان ، صرخت باكية ، وغادرت القاعة فى خطوات سريعة متعثرة وهى تخفى
وجهها بين يديها فى خجل شديد . .

وجلس « زهرة اللوتس » بجوار الضابط . وبدأت تحدّثه وتقول :
- لست أدري كيف نامت هذه الكسول . وهل يطيق الرجل امرأة تنام بين
يديه . . ؟ ! إننى لا يمكن أن أنام حين يحدثنى زوجى الحبيب ويجلس معى .
وبينما هما يتحدثان إذا بالشقيقة الثالثة ، رادها ، تدخل القاعة فى صخب بلا
استئذان ، ثم تهتف فى أختها وهى تختلس النظر إلى الضابط الجميل :
- أهكذا تهملين العجة وتتركينها على النار حتى تحترق ؟ ! لو كنت مكانك لاهتممت
بالطعام وأتقنت صنعه بدل أن أتركه يفسد . . !
وأدركت « زهرة اللوتس » أن أختها تريد أن تتهمز الفرصة لتكشف عيوبها . . فقالت
لها ساخرة :

- هل تظنين أنك بمسلكك هذا قادرة على إسعاده ؟

قالت لها رادها :

- بالطبع أستطيع إسعاده . سأهتم دائما بطعامه وأتقن صنعه . سأقدم له حساء
السلحفاة فى السابعة صباحاً متى استيقظ من النوم ، وأقدم له الفطائر المحشوة فى
الثامنة . وفى التاسعة أكون قد أحضرت له الإفطار وفيه طبق من المربى التى أتقن صنعها
بيدى . ومتى جاءت العاشرة أكون قد صنعت له طبقاً من الأرز بالتوابل . أما فى الحادية
عشرة فسيكون اللحم قد تم طهوه فأقدمه له . وعندما يحل الظهر أكون
وصرخ شاندور يقاطعها :

- كفى كفى يا آنستى فمن المستحيل أن آكل كل هذا . . !

قالت رادها فى زهو :

- إننى أحب الطعام . ولذلك لا يمكن أن أترك « العجة » تحترق . . .
وتذكرت « العجة » المتروكة على النار . فغادرت القاعة وانطلقت إلى المطبخ . . .
وابتسمت « زهرة اللوتس » فى ارتياح ، فقد اقتنعت أن الضابط قد أدرك عيوب « رادها »

كما أدرك من قبل عيوب موراري . وهكذا اختفت من أمامها منافستان خطيرتان .
وعادت « زهرة اللوتس » تتحدث عن أختيها ، وتتبسط في ذكر معاييبها . وبينما هي
كذلك إذ انحنى التابع على ضابطه وأسر إليه كلمات ابتسم لها في سخرية . وغاز هذا
التصرف « زهرة اللوتس » وظنته يسخر بها فهتفت في عنف :
- منذ متى يتدخل الخدم في أحاديث سادتهم ؟
وسكت « سانفو » وهو يكظم غيظه ، حين حاول شاندرور تهدئتها وتغيير مجرى
الحديث وقال :

- وكيف تستطيعين أنت إسعاد زوجك ؟!
أجابته زهرة اللوتس :
- ألا يكفي لإسعاد زوجي أن أبدأ حياتي معه بصدّق كبير . أكبر من صدّق كل
أخواتي إذ إنني أكبرهن . . ؟!
قال لها شاندرور :

- أنا لا أهتم بالصدّق أو المال . . فأنا أملك منه مايزيد على حاجتي . . !
وتذكرت « زهرة اللوتس » أنها لم تنفذ النصائح التي قرأتها في كتاب « فن الحب » .
وحاولت أن تتذكر شيئا من تلك النصائح دون جدوى .
ونفضت « زهرة اللوتس » تستأذن في الانصراف قليلا . . وفي ذهنها أن تذهب إلى
حجرتها لتعيد قراءة « فن الحب » .

وعندما غادرت « زهرة اللوتس » القاعة . . ظهرت « أسولا » بالباب تحتال رشاقة
وهي تنحنى وتستأذن في الدخول . وهمس الضابط كأنها يحدث نفسه :

- لقد ذهبت الكسول ، والأكل ، وسليطة اللسان . فماذا يكون وراءك أنت . . ؟!
واستقبل الضابط « أسولا » في ترحاب . ودعاها إلى الجلوس وهو يقول :
- ما أغباني إذ أنسى الأساء دائما . ! أليس اسمك أ . . . س . . . ؟
وأسرعت أسولا تقاطعه :

- أسولا . . اسمي أسولا . . وإن شقيقتي يسميني « ذات الأنف المثلج » !
وفتح الضابط عينيه في دهشة وقال :
- ولماذا يطلقن عليك ذلك الاسم ؟

أجابته الفتاة وهى تضحك فى مرح :

- لأن جسمى يصطك بردا فى أشد الأيام قيظا . . ا

وهز شاندر كتفيه وهو يقول :

- مهما يكن الأمر فأنا لا أهتم بالجسد بقدر ما أهتم بالروح . ولهذا فأريد أن أسألك
أولا سؤالا لم أستطع أن أجده جوابه عند شقيقاتك ، مما يجعلنى انصرف عن
زواجهن . . . كيف تستطيعين إسعاد زوجك وما وسائلك إلى راحته ؟
قالت له أسولا :

- ليس الأمر عسيرا قط . . فهناك وسيلة واحدة شاملة لإسعاده . . هى أن أفعل كل
مايريد .

قال لها وهو يفتح عينيه دهشة :

- ماذا تقصدين بكل مايريد . ؟

أجابته أسولا :

- أعنى كل شىء ، فعلى المرأة أن تطيع زوجها ، وألا تكون كسولا أو أكولا ، أو
سليطة اللسان .

واهتز شاندر طريا وشعر كأنه قد وجد بغيته وعاد يسألها .

- وهل هناك وسائل أخرى لإسعاد زوجك ؟

قالت الفتاة :

- إذا لم يكن يكفيه هذا فأنا أستطيع أن أجذبه إلى بمختلف الوسائل الأربع والستين
التي ذكرها الإله كاما فى كتابه .

وامتلأت نفس الضابط غبطة وراحة وسرورا . فقد أيقن أنها هى الزوجة التي
تستطيع أن تجعل من بيت زوجها جنة . . وقال لها :

- إنك نعم الزوجة يا أسولا . . خاصة إذا كنت تعرفين الرقص .

وضحكت أسولا . . فقد كانت بارعة فى الرقص . ونهضت فى رشاقة تقدم رقصة
مثل رقصة شيفا . . لم تكده تستمر فيها حتى انطلقت من فم سائفو ضحكة جهد أن
يخفيها . ولم تكده أسولا تراه يضحك حتى اقتربت منه ومدت كفها فصفعته فى غضب
وهى تصرخ :

- أيها العبد . . خذ هذه لك . . !

ونفض شاندور غاضبا وصرخ فيها :

- لماذا فعلت هذا ؟!

فمدت أسولا يدها من جديد وهبطت بصفعة أخرى على خد سانفو قائلة :

- وهذه لسيدك . . !

وانطلقت أسولا . . إلى خارج القاعة !

وفي تلك اللحظة كانت « يادافا » تنتزه في الحديقة . وعندما أحست ضجة في القاعة أسرع لتري ما هناك . فوجدت شاندور منحنيا على « سانفو » يخفف عنه ما أصابه . وعندما شهدا شاندور ، اعتدل في وقفته واستعد لاستقبالها . غير أنها أدارت ظهرها وانطلقت وهى تقول في صوت مسموع :

- ألا ما أحقر سيدا ينحنى على خادمه . . ! إنما أريد أن أتزوج سيدا يحترم نفسه لاسيدا يحترم عبده . . !

وذهل شاندور . وجلس على مقعده وراح يفكر . لقد كان من العجيب ألا يجد بين ست فتيات واحدة فقط تصلح للزواج . . وتخلو من العيوب . . فالأولى كسول ، والثانية أكول ، والثالثة سليطة اللسان ، والرابعة طويلة اليد ، والخامسة مغرورة يملؤها الكبر . والسادسة . . .

ولكن أين هى السادسة . . نور الفجر ؟ إنه لم يجتبرها بعد ، ولم تحاول هى الحضور إليه كما تتابع شقيقاتها الأخريات . . !

وقرر أن يذهب هو ليراها . . !

وتسلل شاندور من القاعة ، وسار في خفة حتى بلغ غرفة مسدلة الستائر ، وأطل من خلال أحد الثقوب ، فإذا « نور الفجر » رائعة وديعة . . جالسة في هدوء تكتب على الورق . ووقف فترة طويلة يتأملها ، ثم سمح لنفسه أن يدخل الغرفة بغير استئذان . وانحنى أمامها معتذرا على جرأته في اقتحام عزلتها ، وقال لها في أدب :

- هل أستطيع أن أسمح لنفسى بسؤالك عما تكتبين . . ؟!

وترددت « نور الفجر » لحظات . . ثم أجابته في بساطة وخجل :

- كنت أنظم قصيدة . . .

قال الضابط :

- هل أستطيع أن أسمع بعض أبياتها . . ؟

ورفضت الفتاة في خجل . غير أنه ألح عليها . فخرجت من الرفض ، وفتحت الورقة وراحت تقرأ له ما كتبه . . لقد كانت أبياتا رائعة من شعر الحب .

قال لها وقد سمح لنفسه أن يجلس :

- ما أروع معانيها ، وما أرق ألفاظها ! إنها لتكاد تحكى روعة جمالك ورقيق نفسك ، وتكشف الفرق الكبير بينك وبين شقيقاتك الأخريات .

وقالت له نور الفجر :

- إن شقيقتى جميعا لطيفات . . رقيقات . . ولن تجد خيرا منهن زوجات . . !
- بل إن اختيار إحداهن زوجة لأمر شاق . فما وجدت واحدة منهن خالية من العيوب . . !

قالت له نور الفجر :

- لقد فهمتك الآن . فأنت صاحب مثل أعلى تريده في المرأة . إنك تريدها أن تكون رقيقة عذبة ، بعيدة عن الغرور والحسد ، ربة منزل متحفظة ، أى أن تكون حائزة لجميع الصفات الحسنة . . وهذا ما لا يمكن أن يتوفر في امرأة . . !

- ولكنها متوفرة كلها فيك يا نور الفجر . . فهل تقبلين أن أكون زوجك ؟
وانطلقت من بين شفثيها كلمة واحدة :

- لا . . !

وفوجئ شاندور ، فما تصور أن تجيب امرأة على عرضه بالرفض . وأحست الفتاة مقدار الصدمة التى أصابته بها . ولكنها قررت أن تواجهه بحقيقة رأيها فيه :

- إنك ياسيدى تظن نفسك مالك رقاب . . يكفى أن تزور أسرة لينحنى لك كل فرد فيها . . وأن تصدر أمرك فيتلهف الجميع إلى إرضائك . إنك مستهتر مغرور ياسيد شاندور . ولن يشرف امرأة ، أن تقبلك زوجا . . لأنك تستهين بالمرأة وتحقرها . . وترى فيها محظية فحسب . . !

وأراد شاندور أن يحتج ويعترض . . غير أنها لم تتمكنه ، واستطردت :

- إذا كنت ترى أننى كاذبة فيما أقول . . فهل تقسم على أن هذا لا يدور في خاطرك ؟
وسكت شاندور . وراحت مظاهر الإعجاب المختلط بالدهشة تتضارب في أعماقه . . وهنا قالت :

- إن سكوتك يعنى أننى صادقة . ومع هذا فأنا لا أستطيع أن أنكر أنك نلت إعجابى . وأننى إذا فكرت فى قبولك زوجا فإن لى شروطا أنا الأخرى . وهتف شاندر مغضبا .

- شروط . . ؟! لعلك تظنين نفسك خير النساء . . لا يا سيدتى . . إنك لمغرورة متكبرة تغالين فى تقدير صفاتك . . قالت له فى ابتسام :

- إذا كنت مغرورة فلدى ما أغتر به . أما أنت فماذا لديك . . أتراك كريها . . أم ذكيا ؟! إنك لا تستطيع أن تنكر أنك كسول . . !
وضرب شاندر الأرض بقدمه فى غيظ . ونهض من مكانه وغادر الدار مغضبا .
وقد أقسم ألا يتزوج على الإطلاق . . !

* * *

فى اليوم التالى انطلق مادهو ومعه شقيقاته الخمس إلى الوزير ، وقد قرن أن يتقم من الضابط الذى رفض زواج إحداهن . ولم تكن « نور الفجر » قد ذهبت معهن ، فقد أبت أن تشترك فى عمل لايرتاح له ضميرها ، أو هى فى الحق كانت قد أحبت الفتى فاستكثرت أن تشترك فى مؤامرة تدبر ضده . .

ووقف مادهو يطلب من الوزير إنزال النعمة بشاندر . غير أن الوزير لم يجد فى مواد القانون مايجعله يصدر حكما على شاندر . . ولم يكده يعلن ذلك حتى هتفت موارى :
- هنا قانون يا سيدى يعاقب من لايدفع الضرائب . وشاندر لايدفع الضرائب قط رغم غناه .

وهتف الوزير :

- فكرة صائبة يا ابنتى . . فلنستدعه للتحقيق . . !

وأرسل الوزير جنوده لاستدعاء الضابط . وعندما حضر كان الوزير جالسا فى حجرة جانبية يدبر الأمر مع مادهو . . فى حين كانت الفتيات الخمس يجلسن مع «أونا» زوجة الوزير التى راحت تستمع إلى وصفهن له فى إعجاب . . ظل يزداد ويزداد حتى دخل الضابط القاعة . فأحست قلبها يخفق بين جنبيها ، ودار رأسها فى سرعة وأخذت تدبر أشياء أخرى غريبة . .

تقدمت « أونا » من الضابط وقالت له :

- لماذا ترفض دفع الضرائب أيها الضابط . . ؟

أجابها شانندور :

- ولماذا أدفعها . . ؟!

قالت له :

- إن الضرائب تضمن للوزير حسن سير أمور الولاية .

قال لها :

- وإذا كنت لا أرى أن شؤون الولاية تسير سيرا حسنا . . ؟! بل أراها تسير من سيء إلى أسوأ . .

وكان الوزير قد دخل في تلك اللحظة . . فأثاره رد الضابط ، وأصدر أمره في الحال باحتجازه حتى يتم التحقيق . . .

واقتيد الضابط إلى غرفة الحجز . . في حين كانت « أونا » تتبعه بنظرات تشتعل برغبة متأججة .

وبينما هو في غرفة الحجز ، إذ أطل عليه من خارج النافذة وجه كان يعرفه جيدا . . إنه وجه « نور الفجر » ، التي لم يستطع أن ينساها منذ غادر دار أخيها حتى تلك اللحظة التي ظهرت له فيها وهو غارق في ظلمات السجن . . .

وهمست الفتاة :

- أيها الضابط . . أسرع بالفرار . . وخذ هذه الأدوات فاكسر بها نافذة السجن لتفر . . !

وهز شانندور رأسه وقال لها :

- ولماذا أهرب ؟! إنني أعرف جيدا كيف أرد على التهم التي يريدون إلصاقها بي . . .

ولكن نور الفجر هتفت فيه متوسلة :

- إن المسألة أدق وأخطر من كل ما يبدو لك . . فهناك مؤامرة تدبر ضدك . فاهرب في الحال أو ادفع لهم الضرائب التي يطلبونها منك قبل أن يلصقوا بك تهمة الاعتداء على الحكومة . . . !

قال شانندور :

- لن أدفع حتى أعرف سر الأمر بالقبض على . ومع هذا فما سر اهتمامك بى . . ؟
أجابت الفتاة :

- لقد شعرت بالخطر الذى يحيط بك . ولقد كرهتك عندما كانت النساء يتلهفن عليك . . أما الآن ، وأنا أحس الخطر المحدق بك ، فلا يسعنى إلا أن أسرع إليك لأنقذك . . فأنا . . أنا أحبك . . ؟

وفى تلك اللحظة سمع وقع قدمى الوزير . فاخفتت نور الفجر . . فى حين دخل الوزير والحكيم وأونا والفتيات الخمس . ووقف الوزير يقرأ الحكم الذى أصدره على المتهم . .

- لقد حكمنا عليك أيها الضابط بالحرمان لمدة عام كامل من الحب . فإذا خالفت القرار كان عقابك الموت . كما تعاقب بالموت أيضا كل امرأة تشاركك الحب خلال تلك المدة . . !

وطربت الفتيات الخمس وصفقن شباته ، فى حين رنت « أونا » إلى زوجها الوزير وهى تغمز بعينها . .

وملاً الذعر قلب شاندور . . وفى لحظة كان قد ارتقى على قدمى مادهور وهو يهتف :

- إنى أرتقى على قدميك أيها الحكيم طالبا يد نور الفجر . . !
وصعقت الفتيات . . بينما كانت نور الفجر تدخل من الباب . وتحول الجميع إليها فإذا بها تقف فى جراءة وتعلن أنها تحب شاندور . . وأنها لن تتزوج سواه .
وهتفت « زهرة اللوتس » فى غيظ وشباته :

- ولكن الحكم يحرم على الضابط الحب ولو ارتبطت معه برباط الزواج . . .
هز الفتى كتفيه وقد ارتاح لاعتراف نور الفجر . وقال :
- من أجل أن أكون جديرا بنور الفجر . . أقبل أن أظل عاما كاملا محروما من نيل ثمار حبى . . !

وتحول الحكيم إلى أخته وقال لها :

- إن من المستحيل يا شقيقتى أن يظل رجل وفيا لامرأة بعيدة عنه عاما بأكمله . فلا تصدقيه . . ومع هذا فإن عليه أن يدفع أيضا الضرائب كاملة . . !
فصاح شاندور :

- لا . . لن أَدفع . . !

وعندما رأى الحكيم جرأة أخته ، وتصميم الضابط . . أمر اثنتين من أخواته باقتياد نور الفجر إلى البيت وحبسها هناك حتى لا تحاول الاتصال بالضابط السجين .
وبينما كان الجميع يغادرون غرفة السجن . . تأخرت « أونا » لتهمس في أذن الضابط :

- إنك الآن تتحدى النساء . . ولكنك ستثوب إلى رشذك بعد حرمان شهر كامل منهن . وسأكون عندك أنا بعد انقضاء تلك المدة . . وسترى يومئذ أنك سترتقى تحت قدمي أنا . . . ملتصبا حبي . . !

وضحك شاندور في سخرية فقد أقسم أن يكون وفيما لنور الفجر مهما طال به الحرمان . . ولو تجاوز العام . . .

والحق أن شاندور قد أثبت وفاءه للعهد . . فبرغم أن الحكيم ترك « زهرة اللوتس » لتراقب تنفيذ الحكم على الضابط بالابتعاد عن حب النساء . . وبرغم محاولات « أونا » خلال زيارتها له في السجن لإغرائه بحبها . . ظل شاندور ثابتا على وفائه لنور الفجر . . ساخرا بكل رقابة . . مقاوما كل إغراء ، مثيرا بتلك المقاومة قلوب كل الناس الذين راحوا يهاجمون الوزير لقسوة الحكم الذي أصدره على الفتى . . ويتهمونه بالسماح لامراته بالتدخل في شؤون الحكم وإصدار أحكامه كما تهوى النساء . . !

وازدادت ثورة الرأي العام ضد الحاكم . . واضطر آخر الأمر صونا لكرامته إلى الذهاب إلى مادهو ، ودفع مبلغ كبير له كهدية صداق لإغرائه على قبول زواج الضابط بنور الفجر . . ودفع الضرائب المتأخرة من الهدية . . !
وانطلق مادهو إلى شاندور في سجنه . . وعندما دخل عليه تلقاه بين ذراعيه . . وقال له :

- دعني أهنتك على ثباتك في حبك لنور الفجر . . ولاتظن أنني قصدت أن أسبب لك كل تلك المتاعب فإنما كنت أريد أن اختبر قوة حبك وإخلاصك لها . وهانذا أقدم لك أختي نور الفجر لتكون زوجتك . . أما الضرائب المتأخرة عليك . . فقد ذهبت إلى الوزير بنفسى ودفعتها . . وهكذا سقط عنك الحكم . . !

وفي اليوم نفسه تم زواج العروسين . . ومدت زهرة اللوتس يدها بنفسها فوق رأس اختها الصغرى تبارك زواجها . . وتتمنى لها التوفيق !

أسطورة يابانية ابن السماء

ابن السماء . . هو الاسم الذى يطلقه اليابانيون على الميكادو . . الجالس على عرش اليابان .
ويعتقد سكان بلاد الشمس المشرقة أن نسب الميكادو يمتد بضعة آلاف من السنين إلى زمن لم يكن فيه
شيء قط . . سوى آلهة تلد ذكرا وأنثى . . ثم تموت . . حتى جاء يوم تعلم فيه إلهان شابان سر اتصال
الذكر بالأنثى من الضفادع . . فبدأت قصة الخلق . . وجاء ابن السماء . . !

على رأس قوس قزح . . ذلك الجسر الرائع الذى ينحدر من السماء إلى حيث مياه
المحيط الواسع اللانهائى . . وقف الإله الشاب إيزاناجى وفوق رأسه إكليل من النور ،
يطل فى حيرة إلى رفيقته الإلهة إيزانامى ، بجهاها الرائع وشعرها المسترسل على كتفها
كأسلاك الذهب .

وكانت الحيرة تملأ رأسى الإلهين الشابين ، فقد كانا يدركان خطورة المهمة التى عهد
بها إليهما مجمع الآلهة ، حين أصدروا إليهما أوامرهما بالهبوط من السماء ليخلقا أرضا
يقيمان على سطحها الحياة . !

ووقف الإلهان الشابان يحديقان فى المياه الصاخبة التى تهدر عند نهاية الجسر . .
أيمكن أن يكون هناك شيء صلب وسط هذا المحيط المتلاطم الأمواج يتخذان منه مقرا
للعالم الذى كلفا أن يخلقا فوقه الحياة . . ؟!

وبدا لايزاناجى أن يتحسس برمحه الطويل المرصع بالجواهر صفحة الماء عله يجد
الأرض ، غير أن شيئا صلبا لم يحتك بالرمح قط . . ويئس الإله فرفع رمحه . ولم يكذب
يفعل حتى تساقطت من الرمح قطرات من الماء راحت تتجمع وتتكثف وتصلب وتمتد
فوق صفحة المحيط ، لتصبح أرضا صلبة واسعة . . كانت هى نفسها جزيرة أنوجورو .
وعلى سطح هذه الأرض هبط الإلهان . . وبدأت قصة الخلق . . .

* * *

لم تكذب أقدام الإلهين تمس الأرض الجديدة ، حتى أحس كل منهما رعشة ضخمة وهو
يطل إلى عين الآخر . وشعرا كأن شيئا غريبا حارا يضطرب فى صدريهما . وبدأ لهما كأن

كلا منهما يرى الآخر لأول مرة . .

لقد كان هناك شيء جديد غريب يحدث للمرة الأولى على هذه الأرض . . شيء اسمه الحب . . !

وكما لم يحدث لهما في السماء من قبل ، بدأ إيزاناجي يرى في إيزانامي أشياء أخرى جديدة رائعة ، أحسها جيدا وهو يتأمل شعرها الطويل ، وعينيها السوداوين ، وشفتيها الساخنتين ، وذراعيها المليئتين ، وقوامها الفارع المشقوق . ولم تكن إيزانامي هي الأخرى بأقل منه إعجابا به . . فقد وجدت أمامها شابا رائعا ، في صدره قوة ، وفي ذراعيه عنفوان ، وفي نظراته دعوات كأنها السحر . . .

وراحت الربة الحسنة تتأمل في إعجاب وهو يقيم نصبا ضخما يبدآن منه دورتين يكتشفان خلالها هذه الأرض الجديدة . . ثم يعودان ليلتقيا عنده مرة أخرى . . . وبدأ كل منهما دورته . . فأخذ إيزاناجي أحد الاتجاهين ، وسارت إيزانامي في الاتجاه المضاد . . .

وبينما كان كل منهما يأخذ طريقه على طول شاطئ الجزيرة ، أخذ يشهدان ما تصنعه الضفادع في الماء وفوق الرمال ، وأخذ بهما العجب وهما يكشفان سر اتصال الذكر بالأنثى . . وبدأت تملأ رأسيهما فكرة جديدة لم يعرفاها من قبل . . وهكذا لم تكذب إيزانامي تصل إلى النصب وتلتقي بإيزاناجي ، حتى بادرت في عينيها فرح كبير.

- ما أقواك يا إيزاناجي . . وما أشوقني إلى أن أتزوجك كما تتزوج هذه الضفادع . . !
واضطرب إيزاناجي . . فقد كان يريد أن يبدأ هو بالكلام . وبدأ على وجهه غضب كبير وهو يهتف فيها :

- كيف . . وأنت امرأة . . تتكلمين أولا ؟ إنني أنا الرجل . . وبهذا الحق كان يجب أن أبدأ أنا الكلام . . إن هذا لنذير سوء . . !

وبكت إيزانامي ، وطأطأت رأسها إلى الأرض . وبدأ الهدوء يعود إلى إيزاناجي ، وهو يرى دموعها الإلهية لأول مرة . . وقال لها :

- لنستأنف الدوران من جديد . واحذري أن تبدئي الكلام متى التقينا . . !

وعاد الإلهان يستأنفان الدوران حول الأرض . وفي هذه المرة . . عندما التقيا عند النصب الكبير . . بادرها إيزاناجي بالحديث وهو يقول :

- إيزانامي . . ما أبهجنى إذ ألتقى بعروس حسنة مثلك . . فهل تقبل الحسنة أن

نكون زوجا وزوجة . . ؟!

وأومات إيزانامى برأسها . . .

وهكذا تزوج الإلهان . . !

ولم يكد يمضى من الوقت سوى قليل ، حتى أنجبت إيزانامى أربعة آلاف ومائتين وأربعة وعشرين ابنا هم مجموع جزر اليابان . . بكل مافيها من جبال وصخور وأنهار . وبكل مايعمرها من أناس وحيوان ونبات . . !

وجلس الزوجان ذات يوم يتحدثان . وقالت إيزانامى لزوجها إيزاناجى :

- لقد أنجبنا هذا العدد الكبير من الأبناء لنخلق الأرض ونملأها بالحياة . . فلم لا نخلق ابنا جديدا يكون سيدا لكل الأرض . . ؟!

ولم يكن هناك مايمنع التنفيذ . . .

وولدت إيزانامى أنثى هى أماتيراسو . . ربه الشمس . . التى بلغت من الروعة والجمال حدا جعل والديها يقرران إرسالها على الجسر الإلهى إلى السماء . . لتستقر هناك . . ولترسل أشعتها الذهبية البراقة لتنير الأرض . . !

وعاد الإلهان ينجبان من جديد . .

وكان الابن الثانى هو تسوكى يومى . . إله القمر الذى كان تألقه الفضى أقل روعة من تألق شقيقته . إلا أنه بدا حقيقا بأن يكون رفيقا لها ، فأرسله أبواه على قوس قزح ليستقر هو الآخر فى السماء . .

غير أن الأخوين سرعان ماتشاجرا واختلفا وصرخت أماتيراسو فى أخيها تسوكى يومى ذات يوم :

- إنك دعى محتال . . إننى أكرهك . . ولا أريد أن أرى وجهك بعد الآن . . !

وذهب تسوكى يومى إلى أبيه يشكو أخته . فلم يسع الأب إلا أن يبعد كلا منهما عن الآخر . . ومنح أماتيراسو مملكة النهار ، كما منح أخاها تسوكى يومى مملكة الليل . . !

واستمر الأب والأم ينجبان . . .

وكان الوليد الجديد هو سوزانو ، الذى لم يكد يهبط على الأرض ، حتى أثار صخباً وضجيجا وزوابع جعلت منه رب العواصف . واضطر أبوه أن يسلمه مملكة البحار بأمواجها التى تبلغ ثمانمائة ألف موجة . . !

ولم تكن إيزانامى قد اكتفت بالأبناء بعد . . .

وكان الوليد الجديد الذى أنجبته هذه المرة هو كاجوتسوشى ، رب النار ، الذى لم

يكذ يولد حتى أصاب أمه بحمى قاسية شديدة . . أحرقتها . . !
وكان لابد لإيزانامى بعد ذلك أن تنحدر إلى العالم السفلى . . بعيدا عن الأرض التي
خلقتها . . !

* * *

اختفت ربة الأرض ، وبقي زوجها وحيدا شقيا لا يحس لحياته معنى على الإطلاق .
وكان إيزاناجى يعلم أن الأموات عندما ينتقلون إلى العالم السفلى لا يدركهم الفناء ، بل
يقضون هناك حياة أخرى جديدة . وكان يعلم أنه سيأتى يوم يذهب هو الآخر فيه إلى
العالم السفلى حيث يلتقى بزوجته . . .

غير أن إيزاناجى ، لطول ماحزن وتأم لفراق زوجته ، لم يطق انتظار ذلك اليوم ،
وقرر أن يذهب بنفسه إلى أرض الجحيم ليراها ، وليحاول انتزاعها من هناك والعودة بها
إلى الأرض !

وانطلق إيزاناجى إلى المنفذ الذى يفصل بين الأرض والعالم السفلى ، وانحدر منه إلى
مملكة الجحيم ، حيث الظلمة تطفى على كل شىء ، وراح يجوب الطرقات المظلمة
محاو لا اختراق حجب الظلمة ببصره بحثا عن زوجته الحبيبة . . ولكن دون جدوى .

وحين ملأ اليأس قلب إيزاناجى من العصور عليها ، قرر العودة إلى سطح الأرض
ليحبس نفسه حتى لو قضى عليه بالذهاب إلى عالم الظلمات . . !

وبينما هو يدير قدميه ليعود أدراجه ، فوجئ بصوت رقيق يهمس فى أذنه :

- هذا أنت يازوجى الحبيب . ألا ما أسعدنى بقلبك . . وما أعظم الشرف الذى
أضفيته على بمجيئك بحثا عنى فى عالم الظلمات . . !

وتلفت إيزاناجى إلى حيث مصدر الصوت ، وحاول أن يرى زوجته ، ولكن الظلمة
الحالكة لم تكن تبدى له شيئا قط .

وقال يخاطب صوت إيزانامى :

- زوجتى الحبيبة . . تعالى إلى . . اقتربنى منى . . لقد اخترقت من أجلك كل هذه
الظلمات . . عودى معى إلى عالم النور . . إلى الأرض التي لاتزال تنتظر منا الكثير . .

وسمع إيزاناجى صوت إيزانامى يقول :

- أبدا يازوجى الحبيب . . لقد مضى الوقت الذى كان يمكن أن أعود فيه إليك . .
فقد جئت متأخرا جدا . . إذ أكلت منذ لحظات طعام الجحيم الذى لا يستطيع من
يذوقه إلا أن يستلقى ليستريح فى عالم الظلمات . فاذهب أيها العزيز . . اذهب ولا

تحاول الاقتراب منى أو النظر إلى أو رؤية وجهى . . فالقانون هنا صارم مخيف . .
لايسمح فيه للأموات أن يراهم الأحياء قط . . !

وصرخ إيزانا جى . . أيمكن بعد كل تلك المتاعب التى لقيها خلال رحلته الشاقة
عبر العالم السفلى ، أن يعود بغير أن يراها . . ؟! أبدا . . إنه لن يستطيع العودة بغير
رؤية زوجته الحبيبة . . !

وبرغم الوعد الذى قطعه على نفسه ألا يحاول رؤيتها ، فقد وجد نفسه آخر الأمر ،
مدفوعا بفضوله وعاطفته معا ، إلى أن ينقض الوعد . . .

وفى ببطء مد إيزانا جى يده إلى مشطه المغروز فى شعره فانتزعته من مكانه ، وكسر
إحدى أسنانه . . ثم أشعل فيه النار . . !

وكان المشهد الذى طلعت عليه عيناه مروعا مخيفا .

ففى اللحظة التى استنار فيها الجحيم . . سقطت إيزانامى فى عنف ، وانقلب
وجهها الجميل فى سرعة بشعا مخيفا ، وانطفأ البريق الرائع الذى كان ينبثق من عينيها
فإذا بهما ثقبان غائران مخيفان ، يسرى فيهما الدود ويتشر منهما إلى كل جزء من الجسد
الذى حلله البلى . .

وانطلق صوت إيزانامى ، وهى تتلوى ، مرعدا رهيبا :

- خستت أيها الشقى . . ولتنصب عليك كل لعنات السماء جزاء مانقضت عهدك
فألقيتنى إلى العذاب ولوثتني بالعار . . !

وعادت جثة إيزانامى تتلوى فى جنون . فقد انقضت عليها آلهة الرعد الثانية منبثقة
من رأسها وثندييها وبطنها وكفيها وقدميها ، وهى ترعد بأصوات قوية بشعة صاحبة ،
يهتز لها الجحيم .

واندفع إيزانا جى يجرى فى رعب مذعور . . . وصرخت إيزانامى الغاضبة المعذبة
تهتف داعية زبانية الجحيم المخيفات ليتبعن الرجل الذى خدعها وألقى بها إلى
التهلكة .

واندفعت من أعماق الجحيم زبانية مخيفات فى صورة نساء يمثلن القبح والدمامة
والشراسة ، أسرعن خلفه ، واستمر هو يجرى أمامهن هاربا فى منحنيات الجحيم . .
حتى إذا وجدهن قد كدن يلحقن به أسرع فخلع الإكليل الذى يحيط برأسه وألقاه
نحوهن . وفى لحظة . . تحول الإكليل إلى عناقيد من العنب ، لم تكد الزبانية البشعات
ترينها حتى توقفن . . ثم انحنين فوقها يأكلن فى شراهة وجوع . . !

وعادت إيزانامى تصرخ فى مسوخ أخريات أن يتبعن الهارب . . واندفعت المسوخ خلفه فى قوة حتى كدن يبلغنه ، فمد يده فخلع مشطه وألقاه نحوهن . وفى الحال انقلبت أسنان المشط إلى عيدان طويلة من القصب سال لها لعاب المسوخ فتوقفن ورحن يلتهمنه فى لذة وبأصوات كهزيم الرعد .

واستمرت إيزانامى تصرخ . . وفى هذه المرة انطلق خلف الإله الهارب ألف وخمسمائة من جنود الجحيم . فأخرج إيزانامى سهامه وراح يلقي بها إلى الخلف وهو يندفع إلى الأمام حتى وجد نفسه آخر الأمر قريبا من المنفذ الذى يقوده إلى خارج عالم الظلمات .

وفى ذلك الوقت كانت جثة إيزانامى هى التى تجرى بنفسها مندفة خلفه . وكادت يداها المعقوفتان تمسكان به فى الوقت الذى كان هو ينطلق من الثقب الذى يفصل بين العالمين ، ويمد يده إلى صخرة كبيرة هائلة يدفعها ليسد بها الثقب الملعون . . !

وسمع إيزانامى تصرخ من الناحية الأخرى :

- انتظرنى يازوجى العزيز . . لاتذهب . . لاتقل الوداع . . عد إلى . . فإنك إذا هجرتنى فسوف أهلك فى كل يوم ألف رجل على الأرض .

وأجاب إيزاناجى وهو يثبت الصخرة على مدخل الجحيم :

- اصنعى ماتريدين فلن أعود . . وسوف أعمل على أن تستقبل الأرض ما لا يقل عن ألف وخمسمائة طفل جديد كل يوم بزيادة خمسمائة عن العدد الذى سوف تهلكينه . . !
وهكذا هرب إيزاناجى من الجحيم . . وقدر لسكان الأرض أن يموت منهم كل يوم ألف شخص . . وأن يحل محلهم ألف وخمسمائة من المواليد .

وبينما كان كل ذلك يجرى فى أعماق الجحيم ، كان سوزانو - رب العواصف - قد انتهز فرصة غياب والديه وراح يلعب دورا آخر على الأرض .

والحق أن « سوزانو » كان ذا خلق عنيف ميال إلى الشر . وكان برغم لحيته الطويلة البيضاء التى تبعث على الاحترام لايدع وقتا يمر إلا ويرسل فيه عويله الطويل ونحيبه الذى يثير التشاؤم فى كل النفوس ، ولايعبأ خلال ذلك بتحطيم كل مايعترض سبيله بسيفه الطويل البتار .

وعندما عاد إيزاناجى ووجد ولده « سوزانو » سادرا فى غيه قرر أن ينفيه إلى أرض الجحيم .

ولم يكن سوزانو يستطيع الاعتراض . غير أنه أجاب أباه :

- أنا طوع أمرك يا ابتاه . . وسأهبط فوراً إلى العالم السفلى . ولكنى أرجو قبل أن أذهب إلى عالم الظلمات أن يسمح لى بالصعود إلى السماء لأرى أختى العزيزة « أماتراسو » قبل أن أخفى من هذا العالم إلى الأبد .

ووجد رب هذا العالم أن رغبة ولده ليس فيها مايضر، فأذن له بالصعود إلى السماء . . .

وتحرك «سوزانو» في طريقه إلى السماء . . وفى أثناء صعوده عوت السماء والأرض والبحار والجبال عواء رهيباً خفيفاً .

وبلغت الأصوات الرهيبة أذن أماتراسو . . ربه الشمس . . ولما أطلت من عليها رأت أخاها الشرير يقترب من مملكتها ومن حوله رعود وبروق .
وارتعدت ربة الشمس وهى تحدث نفسها :

- لماذا يزحف أخى الشرير إلى مملكتى ؟ لخير قدم أخى ياترى أم لشر؟ ولكن أى خير يمكن أن يفكر فيه هذا الجحود . إنه ولاشك يهدف إلى أن ينحني عن عرشى . . برغم أن أبويننا حددا لكل منا حدوده . ليكن إذن مايريد . . وسأعرف كيف أقاومه وأنزل به عقاباً صارماً لا ينسأ مدى الحياة .

وأخذت أماتراسو أهبته لمعركة عنيفة رهيبة . فجذبت شعرها الذهبى الطويل وجمعتها فى عقد كثيرة متألقة ، وثبتت كل جواهرها ولآلئها فى العقد الذهبية ، ثم وضعت فوق ظهرها كنسائها وفيها ألف سهم ، وأمسكت بإحدى يديها درعاً قوية صلبة وباليدي الأخرى قوساً رهيباً ، واندفعت متأهبة فوقفت على ضفة نهر السماء ، وأزاحت طبقة من الثرى فهيات لنفسها فيه خندقا غاصت فيه حتى الركبتين . .

على أن كل ما فعلته كان عبثاً . . . فعندما وصل أخوها ووقف على الجانب الآخر من النهر لم يكن يبدو على وجهه شىء من نيات الشر التى توقعته . وتحدث إليها سوزانو فى هدوء قائلاً :

- ما هذا الذى أراه أيتها الأخت ؟ ولأى سبب تستقبلينى هذا الاستقبال العدائى فى حين أنا قادم إليك وكلى شوق لرؤيتك والاستماع إلى صوتك الحبيب ؟
وأجابت أماتراسو :

- ولكن ما الذى جعلك تحضر إلى مملكتى بغير إذن منى ؟
أجابها سوزانو :

- لقد قرر أبى نفى إلى عالم الظلمات . ولم أطق الذهاب دون أن أرى شقيقتى

الكبرى الحبيبة . ولقد اجتزت على قدمي من أجل أن أراك كل تلك السحب والغيوم
وصعدت كل هذا الارتفاع الشاهق بغير سلم استعين به . . فكيف لاتصيني الدهشة
عندما أجدك تستقبليني هذا الاستقبال العدائي؟

وتقبلت أمتراسو حديث أخيها بشيء من الشك ، فما كانت قسوته وخداعه ليخفيا
عليها . . وقررت أن تكرم وفادته على أن تكون على حذر حتى تتأكد من حسن نيته .

والواقع أن الغطاء البراق الذي كان « سوزانو » يضعه على وجهه سرعان ما انكشف
.. وكانت أمتراسو قد زرعت بضعة حقول للأرز في السماء ، بعضها ضيق قصير
وبعضها واسع طويل . وما كان أسعدها بهذه الحقول التي زرعتها بيديها . وعندما جاء
وقت بذر البذور في الربيع إذا بسوزانو يفاجئها يوما بتخريب كل القنوات التي
صنعتها ، وإذا ثغرات الري قد سدت ، وحواجز الحقول قد هدمت ودمرت تدميرا .

وثارت ربة الشمس . غير أنها كظمت غيظها وظلت تنتظر صابرة .

غير أن الأخ الشرير الثقيل لم يكفه ماصنع . وإذا به يفاجئها ذات يوم وهي جالسة
في غرفة النسيج السماوية ترقب صناعة أردية الآلهة ، فتقب سقف الغرفة وألقى عليها
وعلى الغازلات جثة حصان مسلوخ يقطر من جراحه دم فاسد غزير .

وذعرت ربة الشمس ، واضطربت حتى كادت تخرج نفسها بإبرة الغزل . . وملاها
غضب جبار ، وتحول وجهها إلى لون أحمر قانٍ كالدم . وأطبقت قبضتها من جديد تلوى
كل خيوط شعرها الطويل ، وأقسمت في صوت كالرعد على أن تترك عرشها احتجاجا
على الآلهة الذين يسمحون لمثل هذا الشقي الفظ بالبقاء في مملكتها .

وأسرعت ربة الشمس تتوارى خلف صخور السماء . واندفعت إلى كهف ضيق
فدخلته ، وأحكمت إغلاق باب خلفها ، وقبعت بداخله تبكى وتنتحب .

وغمر الظلام العالم ، ولم يعد هناك ليل أو نهار ، ولا نور أو ضياء .

وارتفعت صرخات سكان الأرض تستنجد بألهة السماء . واجتمع الآلهة الذين يبلغ
عددهم ثمانية ملايين إله على شاطئ نهر السماء . وراحوا يبحثون كيف يزيلون أسباب
الهلل الأعظم الذي حل على الأرض . .

وكان لابد للجميع أن يفكروا في وسيلة يمكن بها إقناع ربة الشمس بالعودة إلى
عرشها العظيم . واستمرت المناقشات طويلة هادرة لم تستقر وتهدأ إلا حين خرج عليهم
رب الحيلة بفكرة وجدها صالحة جديدة بالنجاح .

قال رب الحيلة وهو يعرض فكرته إن ربة الشمس أنثى . . وكل النساء يمكن التأثير
عليهن إذا شحذت غيرتها وأثير فضولهن وأغرinen بالزينة واللآلئ والجواهر البراقة . .

وكل ذلك يمكن أن نقدمه لربة الشمس إذا أتيتمونى بمرآة مصقولة أضعها فى مواجهة باب الكهف وزودتومنى بعقود علوية من الجواهر واللالى . . !

وجمع بعض الآلهة نجوما من السماء ضموا بعضها إلى بعض لتؤلف مرآة رائعة . وانطلق آلهة آخرون يجمعون طيوراً صداحة من كل جوانب العالم الخالية ، فى حين شرع آخرون يبتدون آلات موسيقية جديدة ترسل أنغاماً لاتصدر إلا من السماء .

وعندما تم إعداد كل شىء انطلق الآلهة مجتمعين إلى الكهف الذى تختفى بداخله ربة الشمس ، وتجمعوا أمامه فى حفل صاخب عريـد ، حين كان رب الحيلة يغطى فروع شجرة الساكى التى تواجه الكهف بعقود من أثمن المجوهرات وعناقيد من أروع اللالى . وفى وسط الشجرة فيما يواجه باب الكهف أقام رب الحيلة المرأة السماوية المصقولة .

ومن كل جانب انطلقت ألحان شجية صدحت بها طيور الخلود . . وعلى أنغامها راحت ربة الرقص أوزوم فى رداثها القدسى ترقص رقصاً هازلاً عريـداً انفجر له الآلهة جميعاً ودوت ضحكاتهم صاخبة تهز أركان الكون . .

ومن وراء باب الكهف كانت ربة الشمس تنصت إلى الصخب والضجيج فى استغراب وعجب كبيرين . وعندما ازداد فضولها واثارت بها الرغبة فى كشف سر ذلك السرور الذى يملأ المكان فتحت الباب قليلاً فى هدوء . . وفى هذه اللحظة أشرق النور مرة أخرى على العالم الذى كانت الظلمة تغمره ، وامتدت خيوط الذهب فى الشعاعات المتألقة تفيض بالضياء الذى يبعث الحياة .

وشهدت ربة الشمس المجمع الإلهى الذى كان يصخب فى سرور وانطلاق . . وأخذت تتساءل عن سره . . فأجابتها ربة الرقص أوزوم :

- تسأليننا عن سر صخبنا وفرحنا . . ؟! إذن فاعلمى أننا قد وجدنا ربة أخرى تفوقك جمالاً وروعة . . !

وفتحت ربة الشمس عينيها فى استغراب وقلق .

وبدأت تدور بعينيها فى الجمع الحاشد عليها تستطيع أن ترى منافستها . . . واضطرت من أجل أن ترى المجموعة كلها أن تفتح الباب كله وتطل أمامها . . . وعندئذ عكست المرأة المصقولة الصورة الرائعة لربة الشمس . . تتألق حسناً وروعة وبهاء .

وملأ القلق الربة وهى ترى أمامها هذه الحسناء الرائعة التى تواجهها . وبدأت تغادر الكهف لتزداد قرباً من الربة الجديدة . . وهى لاتدرى أنها إنما كانت تقترب من المرأة .

ومد أحد الأرياب يده ليمسك بيدها . . في حين كان رب آخر ينصب وراءها جبلا
من قش ليمنعها من العودة إلى الكهف . . .
وعندما أدركت ربة الشمس الخدعة ، لم تغضب ولم تصر على العودة . . بل أبدت
موافقتها على الصعود إلى عرشها بشرط أن يعاقب الآلهة رب العواصف . .
وفي لحظة . . كان الملايين الثمانية من آلهة السماء يهجمون على « سوزانو » ويلقون به
على الأرض . . ويحلقون لحيته . . وينتزعون أظفار يديه وقدميه . . ثم يحملونه جميعا
ليلقوا به من السماء إلى الأرض .
ومنذ ذلك اليوم لم تغب ربة الشمس عن عرشها قط . . .

وعادت الحياة إلى الأرض . . وانقطعت عن الآلهة صرخات الاستنجااد التي كانت
تنبعث من أهلها . .

ومع ذلك فقد عاد الآلهة يجتمعون من جديد . . ولم يكن سكان الأرض هذه المرة هم
السبب . . ولكن الضيق الذي أصاب الآلهة كان مبعثه ذلك الطنين المزعج المنبعث من
كل ماعلى الأرض من جبال وصخور وسهول وأشجار . . فقد كانت كل هذه الأشياء
لا تزال تتكلم تماما كأبناء البشر . . وكان الطنين الذي يحدثه كلامها ، خاصة في سكون
الليل ، يورق آلهة السماء . واجتمع شملهم للبحث عن وسيلة يقضون بها على هذا
الضجيج . . وينشدون الهدوء والسلام على الأرض .

وعندما ارتفعت أصوات الآلهة في خلال مناقشاتهم . . تقدمت ربة الشمس تعرض
أن ترسل حفيدها نينيجى ليحكم هذا العالم المضطرب ويعيد إليه المجد والسلام . .
على أن يرسل الآلهة قبل ذلك رسولا يمهد له الطريق . وأعجب الآلهة بفكرة إرسال
واحد من أبناء السماء ليكون سيدا على الأرض . واتفقت كلمة الجميع على أن يهبط إلى
الأرض الرسول امانوهو ، ليمهد الطريق لابن السماء . . حفيد ربة الشمس .

ومضت سنوات ثلاث ولم يعد امانوهو . . وأرسل الآلهة من بعده ولده يبحث عنه
ويعيده . ولكن الابن أعجبه الحياة على الأرض فلم يصعد إلى السماء قط . وتتابع الرسل
إلى الأرض . . وتتابع خياناتهم للسماء . . فلم يكن بد بعد ذلك من أن يهبط حفيد
ربة الشمس . . وابن السماء . . نينيجى نفسه . . ليضع حدا لكل تلك الخيانات . . .
وقربت امانواسو حفيدها منها ، ومنحته بركاتها ونصائحها ، وزودته بهدايا قيمة
ثمينة من بينها أحجار كريمة اقتطعت من سلم السماء وكرات شفاقة من قبتها ، وسيف

خالد وجد في قلب التنين ولم تكتف ربة الشمس بهذه الهدايا ، بل منحته أيضا المرأة السماوية التي أهداها لها الآلهة من قبل يوم غضبتها الخالدة .

وودع نينيجى جدته ، وأخذ طريقه إلى الأرض ، يحيط به موكب من الآلهة ، بينهم ربة الرقص أوزوم ، تلك التي أثارت رقصاتها العريضة ضحكات الآلهة الملايين الثانية .

وراح موكب الآلهة يخترق السحب حتى بلغوا مفرق الطرق الخالد حيث يتفرع الطريق الرئيسى إلى ثمانية فروع . وهناك توقف الجميع فجأة ، وبدءوا يتراجعون إلى الخلف في ذعر .

وعند المفرق الخالد كان يقف وحش هائل تبرق عيناه بلهب صاحبه له فحيح . . . وبدأت أقدام الآلهة وبينهم نينيجى تضطرب وتتراجع ، عدا أوزوم التي وقفت في جراءة وتقدمت من الوحش تسأله عما يكون وماذا يريد وكيف يجرؤ على اعتراض الموكب الإلهى . وأجاب الوحش :

- أنا رب حقول الأرض . . . وقد قدمت لأكون في استقبال ابن السماء « نينيجى » سيد الأرض كلها . . . ولأكون مرشده الأمين . عودى إلى سيدك ، أى أوزوم ، وارفعى إليه رسالتى .

وأبلغت أوزوم رسالة رب الحقول إلى ابن السماء . وعاد الموكب يستأنف طريقه عبر السحب حتى بلغ جسر السماء الذى تم عبوره وبلغ الموكب بعده أرض تكاشيهى . وبدأ رب الحقول يرشد ابن السماء في رحلة طويلة مرهقة حول الأرض التي كان عليه أن يحكمها ويهديها إلى السلام . . . وفي إحدى المناطق القدسية استقر رأيه على إقامة قصره .

ووجد ابن السماء أن من واجبه أن يقدم شكره لمرشده الأمين . . . فمنحه زوجة رائعة . . . إلهية . . . هى أوزوم ربة الرقص نفسها . . . وعندما شهد فرحة العروسين . . . أحس هو الآخر برغبة قوية في أن يفرح كما فرحا . . . وراح يطل حوله باحثا لنفسه عن عروس حيث شاهد حسناء رائعة الجمال تنتصب قائمة إلى جوار حدائق الزهور . وتقدم ابن السماء إلى الحسناء يسألها من تكون . أجابت الحسناء :

- أنا كونوهانا . . . ابنة ملك الجبل المقدس . . . ومهمتى أن أصنع الزهور التي تغطى الأشجار على هذه الأرض .

وسرعان ما وقع « نينيجى » في هوى كونوهانا . . . فانطلق إلى أبيها . . . « أوهياما » وطلب منه يد ابنته . . .

وكان للملك الجبل المقدس ابنة اسمها ايها ناجا ، طويلة كعمود من الصخر ، تكبر كونوها نا ، ولكنها كانت بالغة الدمامة والقيح . ومع ذلك فقد أراد أوهوياما أن يكون لأبناء « نيني جي » أعمار طويلة خالدة كعمر الصخور . ومن أجل هذه الرغبة أبى إلا أن يقدم ابنتيه معا زوجتين لابن السماء . . .

ولم يجد « نيني جي » بدا من الزواج بالأختين . غير أن كل حبه كان يتجه إلى الزوجة الحسنة . . وبدا منه إهمال كبير لشقيقتها المشوهة .

وملاً الغضب قلب ايها ناجا . . ووجدت نفسها تصرخ ذات يوم في نيني جي :
- لو أنك اخترتني وأحببتني . . لجعلت عمر أبنائك خالداً مثل عمر الصخور .
أما وقد فضلت على أختي الصغرى . . فإني كما وأبناء كما ستذوون سريعاً كما تذوى الزهور . . !

وقد كان . . .

وعاش نيني جي ابن السماء سعيداً مع زوجته الحبيبة كونوها نا . غير أن هذه السعادة لم تدم طويلاً ، فقد أعمت الغيرة قلب نيني جي ذات يوم . . وملاّت رأسه بالجنون . ولم يكن هناك من سبب لهذه الغيرة المجنونة التي شقيت بها كونوها نا . . . فما كان هناك من يغار منه زوجها . . فانطلقت إلى كوخ أغلقته على نفسها . . ثم أشعلت فيه النار . .
ومن بين ألسنة اللهب خرج ثلاثة أطفال ، كان من بينهم « هوري » . . الذي تسلسلت منه سلسلة مقدسة متصلة الحلقات من « الميكادو » . . هم الذين جلسوا على عرش اليابان منذ ذلك التاريخ حتى اليوم .

أسطورة صينية مكافأة الآلهة

استطاع « باكو » أول الخلق في أساطير الصينيين أن يشكل الأرض حولى عام ٢٢٩٠٠٠ قبل الميلاد بعد أن ظل يعمل ويكد ويجهد في تشكيلها مايقرب من ثمانية عشر ألف عام . وتجمعت أنفاسه التى كان يلهث بها فصارت رياحا وسعيا ، وأضحى صوته رعدا ، وتحولت عروقه أمهارة ، واستحال لحمه أرضا ، وشمره نباتا وشجرا ، وعظمه معادن ، وعرقه مطرا . أما الحشرات التى كانت تعلق بجسمه . . . فأصبحت آدميين . . وهم أصل وجود البشر . ا

ومع تقدم البشر وتحضرهم بدأ الملوك ، وهم من نسل الآلهة . . يعلمون الآدميين كيف يعيشون حياة نظيفة طاهرة كان أبرز مافيهما إخلاص الأبناء لأبائهم وطاعتهم طاعة عمياء ومن هنا صار حب الآباء مثل العبادة .

كان تونج يونج قد فكر طويلا جدا قبل أن يترك بيته وينطلق إلى الساحة العامة في المدينة حيث يعرض الأرقاء والمدينون أنفسهم للبيع . ولم يكن تونج قد اتخذ هذا القرار عن يأس من سداد دين أو رغبة في حياة الرق . فقد كان الأمر أبعد من كل ذلك . فهناك . . بين جدران غرفته الحقيمة الضيقة ، كانت جثة أبيه لا تزال تستلقى في سكون ، لا تجد من يستطيع أن يؤدى لها مراسم الدفن ، ورغم كل ما بذله تونج من محاولات وجهود ذهبت كلها مع الريح . !

والحق إن تونج حين خرج يبحث أول الأمر عمن يمكن أن يمد له يد العون لسد نفقات دفن أبيه ، لم يكن لديه أمل كبير في أن يجد أحدا . فقد كان بالغ الفقر تماما كما كان أبوه . . والفقر لا يجد سوى الفقراء أصدقاء له . وقد كان هؤلاء الأصدقاء فعلا البؤساء الذين يعجزون عن تقديم أى عون لتونج ، كان الألم يملؤه وهو يجد نفسه غير قادر على القيام بطقوس دفن الأب الذى عاش حياته في ضيق و تقتير من أجل تعليم ولده ، والذى عجز في الوقت نفسه عن ادخار قطعة واحدة من النحاس للمستقبل الأسود الكئيب .

ومع ذلك ، فقد أصر تونج على القيام بطقوس الدفن التى تعارف عليها الناس ، وتخليد ذكرى والده بإقامة نصب جميل على قبره يليق بوالد طيب حنون .

ولم يكن أمام تونج لكى يحصل على قطع النحاس والفضة سوى طريق واحد

رهيب، هو أن يبيع نفسه كعبد لأى سيد من الأثرياء .

وانطلق تونج يونج فى طريقه إلى ساحة الرقيق ، بعد أن وضع فوق كتفه لافتة تحدد الشروط الباهظة لعبوديته ، والأعمال التى يمكن أن يؤديها بنشاط وإتقان .

وفوق مقعد حجري كبير جلس تونج يونج فى انتظار من يشتريه . وما أكثر من مر به من رجال راحوا يبتسمون فى سخرية وهم يقرءون الثمن الباهظ الذى علقه فوق كتفه .

واستمر تونج يونج جالسا فوق الحجر ، لا يجذب من يشتريه . !

ومرت الساعات طويلة ثقيلة باردة . . وما من أحد يحاول أن يعرض على تونج ذلك الثمن الذى يبيغيه . وبدأ اليأس يأخذ بخناق . وأحس بحقارته إذ عجز عن الحصول على سيد يشتريه . ونهض من مكانه ، ومن عينيه يكاد يطفر دمع غزير . وفى هذه اللحظة ، دخل السوق على صهوة جواد أشهب ، سيد بارز من سادة المقاطعة ، يعرف كل أهلها أن لديه من العبيد بضعة آلاف ، ومن الأرض إقطاعيات واسعة الأطراف . ووقف السيد يتأمل الشاب الذى عاد فملاً صدره أملاً بعد يأس . وقرأ الرجل اللافتة المعلقة فوق ظهره . وعاد فصعد بصره إلى كل عضو من أعضائه القوية البارزة . وراح يتأمل وجهه الباسم السمع . ثم التفت إلى رفيق كان يصحبه . وأمره بأن يدفع للفتى الثمن الذى يبيغيه .

وهكذا أصبح تونج يونج عبدا . غير أنه أحس وهو يستسلم لمصيره الجديد ، أنه قد حقق أعز آمانيه ، إذ كان أول ماصنعه حالما تسلم ثمن حرته ، أن انطلق إلى بيته فجهر جثة أبيه وأعدّها للدفن ، وأقام عليها الطقوس الجنائزية فى تقى وورع ، ووضع بين شفثيه الفضة المقدسة ، وأحرق عرائس الورق بكل أشكالها فى النار الطاهرة ، ثم دعا المنجمين والسحرة ليستخبروا من الآلهة عن المكان الذى يمكن أن يقام فيه نصب أبيه ، ليختاروا البقعة التى لا يقترب منها شيطان أو تنين . وعندما تم اختيار مكان الضريح ، انطلق الفتى إلى أمهر الفنانيين فشيّدوا قبرا من رخام نقشوا على حجارتها أبدع النقوش ، ثم نثر على جانبى الطريق قطعا من فضة ونحاس ، قبل أن يعود إلى الدار ليبدأ جنازة أبيه ، ويسير بها فى الطريق إلى الضريح ليوسدها للحد ، بعد أن تمت كل إجراءات الدفن كأحسن ما يشتهى أغنى الأغنياء . !

وعندما أتم تونج يونج أداء العمل الصالح الذى كان يبيغيه ، انطلق إلى سيده الجديد وقد قرر أن يجعل من نفسه خير العبيد . !

والواقع أن تونج كان أبرز الجميع إخلاصا لسيده وإتقانا لعمله . . وما قصر قط فى

أمر عهد إليه ، حتى إن السيد قرر في أعماقه أن يسهل له مهمة الحصول على مايساوى أجر حرته . . خلال سنوات قليلة يقضيها لديه .

على أن الإخلاص في العمل لم يمنع تونج يونج من الاستمرار في الحزن على أبيه الطيب الحنون . ولم يكن يترك مناسبة تمر إلا ويزور قبره ومعه أعواد البخور يحرقها أمامه ويقيم الطقوس التى اعتادت أسرته القيام بها في مثل هذه المناسبات ، ويوزع على الفقراء مايشتره من فواكه ولحوم بالمال الذى كان الجميع يتوقعون أن يدخره ليجمع منه ثمن عتقه . . !

وكان لابد للحزن العميق ، والتفانى في العمل ، مع الإرهاق المستمر بغير مايكفى من غذاء ، أن ينتهى بالفتى إلى مرض منهك يقعه عن أداء كل شىء . فإذا به ملقى في فراشه بالكوخ الصغير ذات يوم يتقلب على نار الحمى ، ولا أحد يراعه أو يهتم به ، حتى زملاءه لم يجدوا لديهم من الوقت مايجعلهم يزورونه وهم يقضون نهارهم كله في المزرعة ، ويعودون مع الغروب مرهقين لا يكادون يحفلون بشىء قط عدا النوم . . !

وهكذا جاء الوقت الذى بدأ فيه تونج يونج يستسلم لموت لابد منه . وغامت عيناه ، وخنقته الحمى ، وراح في إغفاء عميقة طويلة . . .

وبينما تونج في إغفائه ، إذ رأى في حلمه حساء رائعة الجمال تقترب منه ، وتمد كفها الرقيق إلى جبينه ، وتمر بأصابعها الطويلة الدقيقة على وجهه . وشعر تونج بها يشبه السحر يسرى في جسده المنهوك ، وكأن حياة جديدة قد بدأت تتدفق في عروقه التى كانت قد أخذت تتقلص وتنهار . . !

وفتح الفتى عينيه ، فإذا هو أمام حساء شيقة تنحنى عليه . . لم تكن تختلف قط عن الحساء التى شهداها في حلمه اللذيذ .

وفي لحظات . . كانت الحمى قد زالت عنه ، والحياة الجديدة الرائعة تتدفق في عروقه ، والحساء لاتزال تحرك أصابعها على وجهه وجبينه وعينه ، وترميه بنظرات رقيقة حانية فيها سحر فريد عجيب .

وداخل الفتى شعور لذيذ ، فيه راحة وفيه رهبة ، وحاول أن يخرج من بين شفثيه كلمات يسأل فيها من تكون . غير أنها أشارت إليه أن يسكت . . وانطلقت تقول له في صوت كأنه يهبط من السماء :

لا تسألنى شيئاً أيها الحبيب . . فيكيفيك أننى جئت لأعيد إليك قوتك ، ولأكون زوجة لك . . فانهض معى نصلى للسماء !

وكاد تونج يبتسم فى سخرية وهى تطلب منه النهوض . . فقد ظل عدة أيام لا يستطيع حركة على الفراش قط . . .

وأحست الحسنة بما يعتمل فى أعماقه . فمدت إليه ذراعها يعتمد عليه فى نهوضه . ووجد نفسه بالرغم منه يستسلم لها . . وإذا به لدهشته ينجح فى النهوض ، بل ويجد فى نفسه القدرة على المشى والجري والقفز أيضا . !

لقد عادت إليه كل قواه . . ولم يعد يحس ألماً أو انهياراً أو ضعفاً . !
وأدرك الفتى أن الحسنة كانت صادقة فيما وعدت به من إعادة قواه . . ولكنه لم يدر كيف يمكن تنفيذ وعدها الآخر بالزواج منه ، وهو فى ذلك الحضيض من الفقر والبؤس والامتهان . . !

وكانما أحست الفتاة بما يدور بخلده ، فعادت تربت كتفه فى حنو كبير، وقالت له فى صوت طاهر نقى :

- لانتخس مسئوليات الزواج . . فسأزودك بكل ما تحتاج إليه . . !
وفتح الفتى عينيه فى دهشة ، وراح ينقل بصره بين أسنانه البالية . . وملابسها التى بدت فيها هى الأخرى فقيرة ضئيلة كمثيلات من بنات الشعب .
وشعر باطمئنان كبير، برغم الحيرة التى انتابته ، ولم يكذب يفتح شفثيه ليتكلم حتى كانت هى قد أخذت بيده ، وجعلته يركع إلى جوارها ، ويصلى معها . .
وفجأة رفعت الفتاة كأساً من النبيذ ، لم يعرف من أين جاءت بها ، وأدنتها من شفثيه ثم من شفثيه ، ليشربا معا نخب الزواج . . .

وقد كان . . وأصبحت الحسنة الغريبة النقية زوجة طيبة لتونج يونج . . !

عاش تونج يونج أيامه التى تلت ذلك اليوم عيشاً لم يعيش مثله من قبل . فقد بدت له الحياة هنية شهية ، فيها سحر وفيها روعة وفيها جمال ، برغم الحيرة والخوف الغامض الذى كان يملؤه وهو يعيش مع زوجة لم يجرو قط على سؤالها من تكون ومن أين جاءت .

غير أن تلك الحيرة لم تطل به ، فقد قرر أن يدع كل ما يتعلق بهاضيها وماضيه ، وأن يعيشا معا حياتهما الجديدة الرائعة . . في ذلك المسكن الصغير الذى لم يعد باردا جافا حقيرا ، بل صار بفعل قوة سحرية بديعا هادئا ، تغطى حقاوته زخارف وزينات صنعتها الحسناء بيديها الرقيقتين العامرتين بالسحر .

ولم يكن ذلك وحده هو ما أسكت يونج عن أن يفكر فى حقيقته . فقد كان ثم شىء آخر غريب لم يدر سره . . فقد كانت زوجته الحسناء تقضى نهارها كله وجزءا كبيرا من الليل ، تنسج حريرا لم تشهد مثله المقاطعة من قبل .

لم يدر تونج كيف تصنع « تشى » هذا النسيج العجيب . غير أنه لم يحاول أن يسألها أبدا عن السر الذى لاتريد أن تبوح به . وكان يكفيه أن يأخذ منها النسيج ليعرضه فى السوق ، فيلتف حوله كل أغنياء المقاطعة ، ويدفعون له مكعبات من فضة وهم يطلبون منه كميات أخرى كثيرة هائلة .

وذاع صيت « تشى » ونسجها العجيب . وبدأ الأمراء والتجار يتوافدون على المقاطعة من كل مكان ، يطلبون مشاهدة النسيج الساحر ، ويتوسلون إلى « تشى » أن تعلمهم سر صنعه . ولكن الزوجة الحسناء كانت تهز رأسها وهى تبتسم وتقول :

- أؤكد لكم أن أحدا منكم لن يستطيع صنعه . . . فليس بينكم من له أصابع كأصابعى .

والحق إن أحدا لم يكن يستطيع أن يتبين أصابعها خلال قيامها بنسج الحرير . فقد كانت أصابعها تتحرك فى سرعة عجيبة كأجنحة نحلة تطير.

واستمرت الأيام تمضى ، ومكعبات الفضة التى يبيع بها تونج يونج أثواب النسيج تزداد يوما بعد يوم وتتراكم فى صندوق كبير ، بينما « تشى » تعمل فى دأب لإنتاج أثواب أخرى كثيرة ، حتى تفى بوعدا الذى قطعتة على نفسها حين قالت لزوجها إنها ستزوده بكل ما يحتاج إليه .

ثم جاء يوم . . .

وبينما كان تونج يونج يستعد لمغادرة الدار فى طريقه إلى السوق قبل الذهاب إلى مزرعة سيده ، نادته زوجته وقالت له :

- لا تخرج اليوم . . فما عاد هناك ما يدعوك للذهاب إلى المزرعة !

ولم يفهم تونج ماتعنيه زوجته ، إلا عندما أخذته إلى حيث كان الصندوق الكبير

ففتحها ، وأخرجت منه وثيقة تحريره من العبودية ، بعد أن ابتاعها بمكعبات الفضة التي ادخرتها من أثمان الحرير النفيس . . !

ورقص تونج يونج ، وانحنى على زوجته يقبلها ثم حاول أن يسجد لها شاكرا فمنعته ، وقالت له .

- الآن قد مضى زمن عبوديتك . . فلا تحاول أن تبيع حريتك بعد ذلك . كن سيد نفسك ، واعمل لصالحك أنت وحدك . ولقد اشتريت لك هذا المنزل ، وابتعت باسمك المزرعة التي تحيط به ، ودفعت ثمن غابات شجر التوت فأصبحت كلها ملكا لك . . !

* * *

ومضى عام جديد . . كان تونج يونج قد أصبح خلاله أبرز أغنياء المقاطعة وأحبهم إلى قلوب الناس . وحتى العبيد الذين اشتراهم ليعملوا في أرضه ، ملأهم أحاسيس بأنهم لم يعودوا عبيدا قط ، بما كان يعطيهم من مال ويمنحهم من عطف ، فأخلصوا له الحب ، كما قدسوا السيدة تشى . . زوجة السيد التي لم يروا منها شيئا سيئا على الإطلاق .

وأنجبت « تشى » طفلا رائع الجمال ، كان على جبينه هالة من النور .

وتحدث كل أهل المقاطعة عن ذلك الطفل العجيب ، إذ كان أعجوبة لم يروا مثلها من قبل . فقد ردد وهو بعد في الشهر الثالث من عمره أمثال الحكماء ، وعندما بلغ شهره السابع بدأ يتلو الصلوات المقدسة ، وقبل أن يبلغ سن العاشرة كان يجيد الكتابة ويتحدث إلى الكهان ويناقشهم في أصول العبادات .

وكان الفرح يملأ قلب تونج يونج وهو يشهد أعاجيب ولده . وكان يتحدث إلى زوجته في زهو وأمل بالمستقبل الذي ينتظره . . في حين كانت هي تتابع سروره وزهوه في رضا كبير.

ونهض تونج يونج ذات أمسية باردة ، فأحس في أعماقه انقباضا كريها بغضا ، وشعر كأن أطرافه قد جمدت . . وانهض إلى النار فأشعلها ، واقترب من زوجته فإذا هي راقدة في هدوء ، وعلى وجهها نور مضىء كأنه السحر . . وأخذ تونج يونج يتأمل وجه زوجته وهو يراه أكثر جمالا مما كان في يوم من الأيام . واستمر في تأمله وهو ذاهل عن مضى الليل ، وخود النار ، وسكون الرياح التي كانت تصفر قبل ذلك في جنون . . !

وفجأة . . فتحت « تشى » عينيها ، ونهضت وعلى شفيتها سكون ، ثم مدت يدها إليه . . تماما كما مدتها إليه يوم جاءت لتشفيه . . وسارت به إلى حيث كان الطفل يرقد في الفراش .

وكما حدث يوم التقت عيونها أول مرة ، شعر تونج برعشة رهبة وعيناه تلتقيان بعينيها .

إلا أن الرهبة التي ملكته ذلك اليوم كان لها طابع آخر غريب ، أحس معه بقوة غير منظورة تدفعه إلى أن يسجد أمام « تشى » كما يجثو ناسك أمام إلهه . وعندما نهض من سجوده ، ورفع عينيه إليها ، انطلقت من بين شفتيه آهة رهبة . . .

فقد كانت « تشى » تنتصب أمامه ، طويلة فارعة ، ومن وجهها يشع بريق هائل كأنه الشمس . وسمع صوتها يحدته في رفق وحنان :

-والآن أيها الحبيب . . لقد حان الوقت الذى أتخلى فيه عنك . . فما عدت بحاجة إلى . . بعد أن أديت لك كل ما أرسلنى من أجله سيد السماء ، مكافأة لك على حنوك البنوى ، فتجسمت لك في صورة امرأة لأنجب لك ولدا جميلا يكون لك محبا رفيقا عطوفا كما كنت أنت نفسك لأبيك . . وبات على أن أعود الآن إلى مقرى العلوى . . فأنا . . أيها الفتى الحبيب . . الإلهة تشى نيو . . !

ولم تكذ تنتهى من كلماتها حتى تلاشى البريق الهائل الذى كان يغمر المكان . وحدث تونج يونج بعينه أمامه ، فما رأى شيئا قط . . إذ كانت تشى نيو قد ارتفعت إلى السماء كومضة البرق الخاطف .

أما الفراش الصغير . . فقد كان الطفل لا يزال يرقد فيه . . ومن وجهه الوضىء يشع بريق رائع . . لا يقل روعة عما كان عليه وجه تشى نيو.

الفهرس

هذه الأساطير	٥
أسطورة فرعونية : رع أبو الآلهة	١٣
أسطورة فرعونية : حكاية الأخوين	٢٤
أسطورة فرعونية : رحلة إلى الآخرة	٣٥
أسطورة فرعونية : الملك خوفو .. والسحرة	٤٦
أسطورة إفريقية : مزرعة الشيطان	٥٦
أسطورة إفريقية : المجزرة	٦٦
أسطورة إفريقية : الفرس العجوز	٧٣
أسطورة إفريقية : الكذاب	٨٧
أسطورة آشورية : سميراميس	٩٩
أسطورة بابلية : قصّة الخلق والطوفان	١٠٩
أسطورة بابلية : أشتار وجلجميش	١١٧
أسطورة بابلية : شجرة الكريز	١٣٠
أسطورة فارسية : الملك رضوان والأميرة شهرستاني	١٣٧
أسطورة فارسية : رستم وملك الجن	١٥١
أسطورة هندية رامايانا	١٥٩
أسطورة هندية : المصباح المسحور :	١٧٤
أسطورة هندية : عريس واحد وست فتيات	١٨١
أسطورة يابانية : ابن السماء	١٩٨
أسطورة صينية : مكافأة الآلهة	٢١١
الفهرس	٢١٥

رقم الإيداع ٩٨ / ٧٢١١
الترقيم الدولي 3 - 0464 - 09 - 977

مطابع الشروق—

القاهرة : ٨ شارع سيبريه المصرى - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



أساطير من الشر

الأسطورة والحكاية الشعبية.. لا يكاد يخلو منها أدب من الآداب. ولا يكاد يوجد شعب من الشعوب. دون أن يتوارث أبنائه بعض الأساطير والحكايات التى قد تصبح فى صورتها الأخيرة أحيانا.. «حدوتة».. تماما كهذه الحوادث التى تعود الصغار أن يركنوا إلى جداتهم لى تحكيها لهم. ولقد تتشابه مواضيع بعض هذه الأساطير والحكايات الشعبية بين مختلف الشعوب.. بل وقد تتشابه أحداثها بصورة تزيد القارئ ثقة فى وحدة الإنسانية ووحدة الجوهر الأساسى للتفكير الإنسانى وتصوراته للخير والشر والفضيلة والرذيلة والعدل والظلم وما إلى ذلك من قيم إيجابية أو سلبية.

ومثل هذه الأساطير والحكايات الشعبية تتناقلها الأجيال فى الغالب شفاهيا باعتبارها جانبا من التراث الشعبى.. وتظل المشافهة هى طريقة حفظها زمنا طويلا حتى يبدأ تدوينها فى عصور الانتعاش الأدبى التى تحفظ جانبا كبيرا منها من الضياع.

ولقد اهتم الكثيرون من الأدباء والكتاب المعاصرون بدراسة مختلف ألوان التراث التى عرفتتها شعوبهم. وراحوا يعملون جهدهم على جمع هذا التراث لى تكون صورة حية لضمائر الشعوب من واقع ماضيها.. وفى هذا الكتاب بعض من ألوان هذا التراث الحى الذى ما يزال يعيش.. وسيظل.. طالما عاشت هذه الشعوب.

دار الشروق

القاهرة، ٨ شارع سيديون المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص ب: ٣٣، ألبانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت، ص ب: ٨٠٦٤، هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨٠٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)